المركز القومى للترجمة

المشروع القومى للترجمة

پاولا كاريدى

عرب لا نراهم

العرب الذين لا نعرفهم
أولئك الذين ليسوا إرهابيين

تقديم: علاء الأسوانى
ترجمة: مروة على فوزى
مراجعة: سوزان إسكندر

1781

إلى هؤلاء العرب الذين لا نراهم، أولئك الذين أسدلت عليهم عباءة الصور النمطية، إلى هذه القائمة الطويلة من الرجال والنساء الذين لا يعرف الغرب ملامحهم وسيماهم، يأتي هذا الكتاب في محاولة لجعل جزء منهم على الأقل، أكثر تفهماً من قبل الغرب، وذلك بهدفين: الأول إماطة ولو جزء من الأفكار المسبقة التي تغشى الواقع العربي، والتعريف بما حدث في السنوات الأخيرة على الشاطئ الجنوبي لبحرنا المتوسط، فضلاً عن التعريف بالكوارث والحروب والصراعات المترسبة في المجتمع والحياة اليومية ما بين تطور تكنولوجي وعادات وبحث عن الهوية وتطورات اجتماعية اقتصادية واتجاهات فنية. أما الهدف الثاني فهو التذكرة بالخيوط الخفية التي دائماً ما ربطت مصيرنا بهم ومصيرهم بنا؛ التذكرة بأحجار قصر الجابرى البيضاء والسوداء شديدة الشبه بأحجار دوومو أمالفي، دون الشعور بالغربة هنا وهناك.

تصميم الغلاف: نادية كشك

عرب لانراهم

أولئك الذين لا نعرفهم
أولئك الذين ليسوا إرهابيين

المركز القومى للترجمة
تأسس فى أكتوبر ٢٠٠٦ بإشراف: جابر عصفور

إشراف: فيصل يونس

- العدد: 1781
- عرب لا نراهم: أولئك الذين لا نعرفهم، أولئك الذين ليسوا إرهابيين
- باولا كاريدى
- علاء الأسوانى
- مروة على فوزى
- سوزان بديع إسكندر
- الطبعة الأولى 2011

هذه ترجمة كتاب:
Arabi Invisibili
By: Paola Caridi

شارع الجبلاية بالأوبرا – الجزيرة – القاهرة. ت: ٢٧٣٥٤٥٢٤ – ٢٧٣٥٤٥٢٦ فاكس: ٢٧٣٥٤٥٥٤
El Gabalaya st. Opera House, El Gezira, Cairo.
E-mail: egyptcouncil@yahoo.com Tel: 27354524- 27354526 Fax: 27354554

عرب لا نراهم

أولئك الذين لا نعرفهم
أولئك الذين ليسوا إرهابيين

تـــألـــيف: پـاولا كاريدى

تقديم الأصل الإيطالى

علاء الأسوانى

ترجمة: مروة على فوزى

مراجعة: سوزان بديع إسكندر

2011

كاريدى، پاولا.

عـرب لا نراهـم: أولئك الذين لا نعـرفـهـم أولئك الذين ليسـوا إرهابيين/ پاولا كاريدى: تقـديم: علاء الأسـوانى؛ تـرجـمـة: مـروة على فـوزى؛ مـراجـعـة: سـوزان إسكندر. ـ القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠١١ .

١٧٢ ص ؛ ٢٤سم . ـ (المشروع القومى للترجمة)

تدمك ٦ ٨٥٢ ٤٢١ ٩٧٧ ٩٧٨

أ ـ الأسوانى، علاء. (مقدم)

ب ـ فوزى، مروة على. (مترجم)

ج ـ إسكندر، سوزان. (مراجع)

ء ـ العنوان.

رقم الإيداع بدار الكتب ٧٠١٧/ ٢٠١١

I. S. B. N 978 - 977 - 421 -852- 6

ديوى

المحتويات

تقديم

حبيس الصور النمطية(*)

لقد تنبهت مبكرًا جدًا في حياتي كمصري وككاتب إلى الصور النمطية المنتشرة عن العرب في الغرب. اصطدمت بها قبل أن تُرسِّخ أحداث ١١ سبتمبر مفاهيم عن الآخر كانت موجودة بالفعل وقام ضرب برج التجارة فقط بإخراجها من جحورها التي كانت تقبع فيها مغطاة بنوع من الرقابة الذاتية أخذت تمنح الناس في الغرب الفرصة على الأقل لطرح الأسئلة ومحاولة الفهم قبل تصديق تلك الصورة التي لديهم عنا.

وعرفت ماذا تعنيه الصور النمطية منذ وقت بعيد، أثناء إقامتي في أمريكا عندما ذهبت إلى مدينة كبيرة مثل شيكاغو لأتم دراستي للطب في مكانٍ عريق مثل جامعة إلينوي. اكتشفتُ آنذاك أن لا أحد يعرف عني شيئًا كمصري، اللهم إلا الأهرامات. وما كانوا يعرفون عن ثقافتي العربية إلا أننا نستخدم الجمال في تنقلاتنا. وفي أروقة الجامعة كان من النادر أن يستطيع أحدهم التمييز بين إيران والهند: في الجانب الآخر من الأطلسي كانت الصور النمطية ثمرة جهلٍ مطبق وما كان يبث خطئًا عن الآخر في وسائل الإعلام الأمريكي.

أما في أوروبا فالوضع مختلف، لا يُوجد بها غيابٌ تام للمعرفة. هناك بالأحرى صورةٌ نمطيةٌ ثابتة وغير قابلة للتغيير. مرةً أخرى تجلّى الفرق بين صورة العرب في أمريكا وبينها في أوروبا من خلال مرحلة من المراحل "الغربية" في حياتي عندما قررت الذهاب إلى إسبانيا لتحسين اللغة، وإذا كنت قد ذهبت إلى

(*) تمت ترجمة هذا التقديم عن الترجمة الإيطالية الواردة بالنص الأصلي للكتاب (المراجع).

شيكاغو كطبيب، فإنى اخترت أن أذهب إلى إسبانيا ككاتب، كي أتعرَّف أكثر على الأدب الإسباني. وفي فصل الدراسة كان هناك أشخاصٌ من جميع أنحاء أوروبا، مجموعة من الأوروبيين المتعلمين، كلٌّ باهتماماته واختلافاته.

وعندها انتبهت للمرةِ الأولى أن الصورة النمطية ـ من أي نوع كانت ـ من الممكن أن تكون مريحة للغاية لأنها تمنحك تصورًا سابق التجهيز للعالم ، تمنحك موقفًا واضحًا دون الحاجة إلى تفكير وبالتالي تكوين صورة عن الآخر. وأدركت على الأخص عملية الزيف الكبيرة وراء الصور النمطية التى تحكي عن الآخر دون اعتبار لإنسانيته، بل غافلة عن كونه إنسانًا.

في الدورة التى التحقت بها لتعلُّم الإسبانية في مدريد طلبوا من كل منا أن يقوم بتحضير موضوع يتعلق بثقافة بلده وقررت أن أتحدث عن الزواج في الإسلام. واستخدامًا للغة الغرب كي أعرف به ذكرت أن عقد الزواج في الإسلام له قيمة العقد المدنى، يمكن أن يُدرَج فيه أي شرط يرغب فيه أحد الطرفين. وقد ضربت أمثالا لأوضح بشكل أفضل ماذا تعني "الشروط" فمنها مثلا ما يتعلق بالعروسة: بإمكان زوجة المستقبل أن تُملي في العقد على أن يكون سلطة الطلاق من حقها وحدها، أو مثلا ألا يكون من حق الزوج الزواج من أخرى. وقفت فتاةٌ فرنسية تدرس القانون لتقول لى إنى مخطئ لأنه ـ على حد قولها ـ في الإسلام يجب أن يتزوج الرجل من أربع وإننا نعامل النساء كالحيوانات ولهذا فنتزوج أربعًا. كانت صدمة بالنسبة لي، لم أستطع أن أفهم كيف يمكن أن تتحول ديانتي أي رؤيتي للحياة وثقافتي إلى مهزلة بناءً على تأكيد مفاهيم خاطئة.

كثيرًا ما عاودت التفكير في هذا الحدث في السنوات التالية، كنت أحاول أن أفهم ما الذي كان يدور برأس تلك الفتاة. وبمرور الوقت أدركت أنه أسهل كثيرًا أن تكون لدينا صور نمطية مخزونة. إن كنت أؤكد أن "العرب لا يحترمون النساء" فأنا أتحدث عن صورة نمطية، وبالتالى أستطيع أن أتعامل مع أي عربي دون الحاجة لاعتباره إنسانًا بل باعتباره موضوعًا معروفًا. وعلى العكس من ذلك، فإن التخلي عن الصور النمطية من الممكن أن يكون متعبًا جدًا. قاسيًا وصعبًا لأن ذلك يستلزم تعديل وتغيير مفهوم عالم الآخر برُمّته.

ثم جاءت أحداث الحادي عشر من سبتمبر وما كان مختبئًا في ثنايا المخ طفا على السطح. ومع نهاية الرقابة الذاتية اصطدمت ـ للمرة الثانية ـ أثناء إحدى سفراتى في الغرب، حيث أذهب كثيرًا وبسعادة أيضًا لأننى أحوي بين جنباتى عنصرًا غربيًا عميقًا جدًا. لقد تعلمت في مدرسة الليسيه الفرنسية في وسط البلد بالقاهرة على مقربة من عمارة يعقوبيان. أنحدر من عائلة مصرية وفرانكفونية: كان والدي فرانكفونيًا، وكذلك زوجتي وأبنائي الثلاثة. كنت قد دُعيت إلى لاڤينى في سويسرا لحضور سيمينار مغلق الأبواب لكتّاب معروفين. وهو ضربٌ من تحديد الإقامة، من العزلة التامة، كنا نعيش سويًا، نأكل معًا، نشاهد التلفاز معًا ونكتب. وهناك تعرضت لوابل من أسئلة كاتبة نمساوية تبين أنها معادية للعرب بشكل قاطع. سألتنى ذات مرة على العشاء: "لماذا أنتم المسلمون تقتلون الناس في العراق أمام عدسات التلفاز بينما ديانتكم لا تجيز التلفاز؟". حاولت أن أرد بطريقة هادئة ونقاش عقلاني معلنًا قبل أى شيء أنى لم أقم بقتل أحد قط ثم موضحًا أنه إذا قام شخص مسيحى بقتل أحد فإن ذلك لا يعنى أن المسيحية تسمح بالقتل. وفي النهاية، وقد كنا بالفعل في عصر قناة "الجزيرة" وشبكات التليفزيون السعودية التى تدخل كل بيت عربى تعيّن علي أيضًا توضيح كيف أن الإسلام ليس ضد التلفاز. واستمر سيل من الآراء المسبقة والصور النمطية في مواقف كثيرة، مثلاً بينما أشاهد نشرة الأخبار لاحظت زميلتي النمساوية أن الوفد الكويتي الذى كانت تتحدث عنه النشرة مكوّن من سيدتين فقط وعشرة رجال، وقالت: إن هذا الوفد يمثل الطريقة التى تعاملون بها النساء: ككائنات أدنى من الرجال. وبينما كنت على وشك أن أشرح لها أنه لم يكن لدي أي يد في اختيار أعضاء الوفد الكويتي لسبب بسيط جدًا هو أنني لست كويتيًا وإنما مصريًا وأن العالم العربي كيان كبير ومتنوع في داخله، ظهر على الشاشة وفد بلد أوروبى كله من الرجال. حاولت في صبر أن أعيد على مسامعها كيف أنه لا يجب استباق الاستنتاجات عن الآخر عندما يكون كل ما لدينا عنه هو مجرد صورة.

إذن، بعد أحداث الحادي عشر من سبتمبر اختفت الرقابة الذاتية. إلا أن الصور النمطية لازال مسموحًا بها. حتى وإن كنت أدرك أني أنا أيضًا ـ في هذه اللحظة ـ أطلق آراء مسبقة إذ أصنِّف الغرب إلى مجموعات إلا أنني أعتقد فقط

أن كثيرًا من الناس على الشاطئ الآخر من البحر المتوسط يجهلون ببساطة الكثير عنا، ويطلبون مجرد أن يعرفوا. إلا أن هناك عقبتين: الأولى هي وجود أقلية في الغرب ضد العرب حتمًا؛ العقبة الثانية في طريق المعرفة هي الرقابة الخاصة. هناك ثلاثة أنواع من الرقابة في الحياة: الرقابة السياسية والرقابة الدينية والرقابة الخاصة. وتلك الأخيرة، مؤذية ومعادية، تظهر عندما يتحكم اتجاه سياسي أو قومي معين في وسائل الإعلام ولا يسمح للجماهير أن تعرف الأوجه المختلفة للحقيقة. وقد بت أنا أيضًا إحدى ضحايا هذه الرقابة عندما اتصلت بي إحدى صحافيات FranceInter لتسجيل لقاء معي عن حرب الصيف الماضي في لبنان: حددنا الموعد على أن يكون صبيحة اليوم التالي وقبل أن ننهي المكالمة بدقيقة واحدة سألتني عن رأيي في "إرهاب حزب الله" حتى يكون لديها فكرة عما سوف أقوله في اليوم التالي. أجبتها أن رجال حزب الله بالنسبة لي ليسوا إرهابيين إطلاقًا لأنهم يدافعون عن أرضهم. ربما أخطأوا حساباتهم ولكنهم لم يغزوا أرضًا ليست لهم. وعلى السؤال التالي عما كنت أعتقد أن رجال حزب الله إرهابيون مموَّلون من قبل الإيرانيين وأنهم دُمى في أيدي طهران، أجبت بمثال من التاريخ: جيفارا كان بطلاً حقيقيًا على الرغم من أن الاتحاد السوفيتي كان يسانده وهذه العلاقة بينه وبين الاتحاد السوفيتي لم تجعل منه دمية في أيدي موسكو. طبعًا إيران بلد يمثل خطرًا ولكن بالنسبة للولايات المتحدة ولإسرائيل وليس بالنسبة لنا: لم تقم بغزونا ولم تقتل أطفالنا. سكتت الصحافية عن الكلام وقلتُ لها بمنتهى الصراحة إنه بإمكاننا إلغاء المقابلة إن كانت ترى أن ما قلته ليس مناسبًا. إلا أنها أكدت الميعاد ونبهتني إلى أن موقفي سيتم وضعه إلى جانب آراء أخرى مختلفة. تناقض كان من شأنه فقط أن يسعدني إذ أن تعددية الآراء هذه هى الجانب الإيجابي في وسائل الإعلام. وفي الصباح التالى، لم يرن جرس هاتفي: لم يتصل بي أحد.

سأستخدم الآن مصطلحات قديمة، لم تعد تستخدم بعد: أعتقد أن الإمبريالية لازالت موجودة وهي الرابحة في السنوات الأخيرة من وراء الصراع الثقافي وصدام الحضارات المزعوم. وخير مثال على ذلك الحرب في العراق والتي كانت على وجه التحديد حربًا إمبريالية: الشركات متعددة الجنسيات تدفع كثيرًا كي تربح كثيرًا، تمارس القتل حتى تتحكم في سوق البترول وتمول صناعة

الأسلحة. إذا كان الأمريكان يعطون صورة سيئة عن العرب في إعلامهم، فإن هذا من شأنه تسهيل سياساتهم. لو عرف الجمهور الأمريكي حقيقة ما يحدث في العراق. لو علم أنه يتم قتل وانتهاك حرمات رجال ونساء يوميًا في العراق. من الممكن أن يمارس الضغوط على حكومته كما حدث من أجل فيتنام: بإمكان الشعب الأمريكي إيقاف الآلة الإمبريالية وبالتالي إيقاف الحرب. إن الأمر لا يتعلق بلَبس ثقافي كبير وإنما هي دعاية منظمة تخدم مخططًا سياسيًا محددًا. حتى و إن كان إدوارد سعيد على حق عندما وضح في "استشراق" كيف أن الثقافة أيضًا تتجه ليس فقط إلى الحفاظ على الصور النمطية وإنما أيضًا إلى تقويتها وتضخيمها: والمثال على ذلك الطريقة التى يتم بها اختيار أية كتب من العالم العربى للترجمة. أصبح الاختيار يقع على تلك الكتب التي لا تضع الصور النمطية محل النقاش، بل تعمل على ترسيخها.

تحكي الصورة النمطية عن عالمٍ عربي موحد لا تمايز به. بينما العالم العربي في حقيقة الأمر هو واقع ضخمٌ و متنوعٍ، متعدد الأوجه للغاية. كانت مصر على سبيل المثال نموذجًا يحتذى به في الديموقراطية لكل المنطقة: ففي عشرينيات القرن الماضي تأسس لدينا أول برلمان في العالم العربي وأول دستور وأول انتخابات حرة وأول امرأة تكمل تعليمها العالي وأول نائبة في البرلمان وأول وزيرة. هناك امرأة أيضًا: سهير أبو شوارب التي كانت أول من فازت في سباق السيارات القاهرة ـ الإسكندرية في ١٩٢٢. لا يمكن مقارنة مصر بالمملكة العربية السعودية والتي تأتي بعدنا بكثير في هذا المجال. إن المجتمع المدني العربي في المنطقة كان على مر التاريخ الإسلامى تقدميًا في مصر ولبنان والعراق عنه في الخليج. ولكن في أواخر السبعينيات عندما ارتفع بشدة سعر البترول ذهب ملايين من المصريين للعمل في المملكة العربية السعودية وعادوا وفي حقائبهم مدخراتهم والرؤية التفسيرية الوهابية للدين الإسلامى: رؤية ضيقة وعدوانية. كانت لنا في مصر قراءة أكثر تسامحًا للإسلام ولهذا لم يكن أبدًا لدينا آية مشكلات مع المرأة أو الديموقراطية. ومنذ ذلك الحين انتهى بنا الأمر تحت سيطرة السعودية التى استثمرت ملايين الدولارات في المنطقة كي تقاوم تأثيرًا آخر ألا وهو الثورة الإيرانية، والذي كان يثير المخاوف نظرًا لأن شريحة كبيرة من شعوب الخليج من الشيعة: كان الرد إذن على الثورة الإيرانية في اتجاهين: ضخ ملايين الدولارات

حتى يتم النظر للحياة بعيون سعودية وتدعيم صدام حسين للتخلص من ثورة الخوميني. وكان لتلك الدولارات أثر سيئ للغاية في المجتمعات العربية الحديثة مثل المجتمع المصري.

ولكن مصر تشهد الآن صحوة حيث بدأ يتولد من جديد أبناء تلك الروح القديمة من خلال حركات ظهرت في السنوات الأخيرة من أجل الديموقراطية. اليوم في القاهرة، يمكننا أخيراً القول إن هناك معارضة علمانية إلى جانب تلك الإسلامية على عكس عشر سنوات مضت عندما كانت المعارضة ممثلة فقط في "الإخوان المسلمين". هناك الآن جبهة متماسكة يجمعها هدف واحد هو النضال ضد وطن أصبح غير محتمل حتى يمكن التوصل إلى ديموقراطية حقيقية. أنا عضو في حركة "كفاية"، حركة المعارضة التي تضم عدداً كبيراً من الآراء السياسية من الشيوعية إلى "الإخوان المسلمين"، والتي تعرف بها باولا كاريدي في كتابها باستفاضة. ومن واقع التزامي هذا أرى أنه حان الوقت للغرب لكي يعرف ماذا يحدث حقيقة في العالم العربى دون التأثر بما تقوله وسائل الإعلام، لأن عدم فهم ما يحدث في مجتمعاتنا قد يُشكّل خطراً كبيراً. ليس فقط على مستقبل العالم العربي وإنما على مستقبل العالم بأسره.

تُمارس علينا ضغوط قوية في الغرب وفي الدول العربية أيضاً. ضغوط تدفع كلاً من الغرب والعالم العربي باتجاه التطرف. ولذا بات من الضروري تخطي الصور النمطية والعودة إلى إنسانية الآخر، ولكن بعيداً عن التفسيرات السطحية أو المغلوطة. فمثلاً عندما يتحدث الغرب عن تأييده للمعتدلين في المجتمعات العربية، فإنه بذلك يخلق ضحية واحدة: العلاقات الإنسانية والثقافية: فالاعتدال، في واقع الأمر، مصطلح سياسي استخدمته الإدارة الأمريكية بدءاً من حرب فيتنام. وللأسف عندما تصف واشنطن شخصاً ما، سياسياً كان أو زعيماً بأنه "معتدل"، كان ذلك يعني أنه موالٍ لأمريكا. كلمة "معتدل" تحمل معنى إيجابياً جداً في داخلها، ولكن المشكلة هي أنه من خلال ما أسميه أنا بالرقابة الخاصة، من خلال الإعلام يتم إدخال مصطلحات سياسية خبيثة في عقول المشاهدين. فالحكام العرب مثلاً ليسوا معتدلين وليسوا حتى حلفاء للولايات المتحدة: إنهم يعملون لحساب أمريكا حتى يوجهوا بلادهم إلى ما تطلبه السياسة الأمريكية.

أما هدف هذا الكتاب فهو بالضبط أن نظهر للجمهور الأوروبي واقع أن المعتدلين الحقيقيين موجودون في المجتمعات وفي الشعوب العربية وليس بين من يحكمون بلادنا. المعتدلون الحقيقيون هم من عامة الناس من أولئك الناس الذين تطحنهم الصور النمطية و لا يعرف أحد عن حياتهم شيئًا.

فمثلا كم من الأوروبيين يعلمون شيئًا عن التعليم في العالم العربي؟ إنه موضوع أفردت له المؤلفة فصلا كاملا. إن حالتي،بصورةٍ أو بأخرى، تعد مثالاً لحالات أخرى مشابهة. لقد ولدت وتربيت في أسرة فرانكفونية، أتممت دراستي الثانوية في ليسيه باب اللوق بالقاهرة، أي في مدرسة علمانية. كان معنا في الصف زملاء يهود ومدرس يهودى بقوا في مصر بعد ١٩٦٧، وكنا معتادين على أن نهنئهم في أعيادهم، وكنا نفعل الشيء نفسه مع الآخرين بالنسبة لأعياد المسلمين والأقباط والكاثوليك. كنا نسأل مدرسينا ما إذا كانوا مؤمنين أم لا حتى نستطيع أن نحتفل معهم بأية مناسبة: فإذا كانوا مؤمنين كنا نقدم لهم التهاني في عيد الميلاد، وإذا لم يكونوا كذلك كنا نقدم لهم التهاني في أعياد ميلادهم. أما زوجتي فقد تعلمت في مدارس الراهبات الفرنسيسكان بنات في الإسكندرية وتعلم أبنائي بالمدارس المسيحية: الولد في "الفرير" والبنات في "المير دى ديو" أفضل مدرسة راهبات في القاهرة، أنشئت منذ ١٦٠عامًا. نحن، المصريين والمسلمين، لم يكن لدينا أبدًا مشكلة في أن نتربى في مدارس مسيحية؛ الالتحاق بإحدى هذه المدارس يعني بالنسبة لنا تلقي تعليمًا جيدًا: فمن ناحيةٍ ما هذه المدارس هي مزيج من مدارسنا العلمانية والوجه الحقيقى للمسيحية. لقد أحببنا راهباتنا اللاتي تقبلن أطفالنا مهما كانت ديانتهن وعلمنهم كيف يحبون بعضهم بعضًا. إن چورج بوش الذي يتحدث عن الحضارة المسيحية وفي نفس الوقت يمارس الحرب هو آخر من يمكن أن يمثل المسيحية التي تحمل بالنسبة لنا وجه الراهبات اللاتي يعشن بيننا.

نحن نصل في هذا الكتاب إلى لُب المشكلة: العرب ليسوا جميعًا إرهابيين. إن أسامة بن لادن لا يتحدث باسمي وباسم كل العرب. ومن ناحيةٍ أخرى علينا نحن العرب أن نعلم أن الذين يقتلون أبناءنا ويغزون أرضنا لا يمثلون الحضارة الغربية. إني شخصيًا لا أستطيع أن أعتبر الغرب عدوًا لي. إذ أني أعلم أن الغرب ليس

كله وحدة واحدة. أعلم أن چورچ بوش لا يمثل الغرب. إذا فكرت في رمز للغرب ولحضارته فإنني - بحكم موروثي الثقافي وتكويني - أفكر في ڤيڤالدي، في شكسبير، في موليير، ڤيكتور هوجو، وليس بالطبع في ديك تشيني.

علاء الأسواني

مقدمة المؤلفة

بوش لم يذق أبداً شراب الليمون بالنعناع

صيفٌ دمشقي. أحتسي ليموناته بالنعناع في ساحة دار الجابري. رذاذٌ خفيف يتساقط كالندى من البوص الذي يظلل الطاولات حتى يرطب الجو لمرتادي أحد أشهر الأماكن في العاصمة السورية، حيث يذهب السائحون القلائل الشجعان الذين يغامرون بالذهاب إلى الشرق الأوسط من أعضاء "الليونز" والكثير من أهل دمشق ممن يعشقون الأكل والشرب في ساحة قصر الجابري القديمة وسط تلك الحجارة البيضاء والسوداء التي تذكرك ـ وبمنتهى السهولة ـ بدوومو أمالفي[1].(*)

الليموناتة بالنعناع في دمشق ليست كمثيلتها في القاهرة ولا في القدس العربية. وكما هو الحال بالنسبة لباقي المطبخ الشامي فإن الليموناتة بالنعناع السورية تتميز بما ينتظره منها الجميع، وتفي به دائمًا. النعناع المنعش مسحوق ناعم للغاية يُنثر خفيفًا على عصير الليمون قليل السكر والبارد بالدرجة المطلوبة، لا يضاف إليه الثلج أبدًا. يبدأ مسحوق النعناع في النزول شيئًا فشيئًا إلى قاع الكوب، ومع ذلك لا يختلط تمامًا بالشراب. أمّا في القاهرة فالأمر مختلف: ثمرة الليمون في مصر أصغر حجمًا وألذع مذاقًا. السكر كثير وكذلك الثلج، بينما تطفو وريقات النعناع وحيدة في الإبريق الخاص "الكارافة"[2] كما يطلقون عليها في القاهرة. وفي القدس العربية تنويعة أخرى بفضل ليمون أريحا ذي الرائحة الخاصة والنعناع الأكبر من تلك التي تزرع على ضفاف النيل.

---

(١) كلمة "دوومو" تعني بالإيطالية الكنيسة الرئيسة في البلدة وتنحدر من كلمة "دوموس" التي كانت تعني باللاتينية منزل وتطورت لتصبح "منزل الرب" أي الكنيسة.

(*) هكذا في الأصل.

منذ عام ٢٠٠١، حينما وصلت إلى القاهرة قبل أحداث ١١ سبتمبر ببضعة أشهر أصبحت الليموناتة بالنعناع نوعًا من الهوس بالنسبة لي. وإني على يقين من أن چورج بوش لم يحظ بشربها قط: لم يسعد بترطيب حلقه بهذا الخليط اللاذع القوي الذي يفيق به من يرتاد الأجواء الجافة السائدة في بلاد الشام أو تلك شديدة الحرارة في شمال إفريقيا: وأراد الارتواء بالإيحاءات التي تتدفق تلقائية من الكأس بدءًا من هذين اللونين اللذين يحويان الكثير من الثقافة العربية: أصفر شمس الشرق الأوسط والصحاري والسهوب السورية وقبة الصخرة وأخضر الإسلام، وشجر الأرز في موزايكو المسجد الأموي بدمشق، وأخضر شجر الزيتون وحزم النعناع والمقدونس وأشجار المانجو والتين وأخضر النخيل.

بالنسبة لمن يأتي من تكساس فالليموناتة بالنعناع مذاق جديد بالذواقة رفيعي المستوى أما بالنسبة لمن يأتي من روما وله جذور جنوبية متأصلة في مضيق مسّينا، تصبح الليموناتة مشروبًا راجعًا إلى تراث مشترك لدرجة أنه يداعب مع كل رشفة منه ذكريات حميمة: إنها خلاصة تأثيرات وآثار لقاء بحار وأقدار متلاقية، مزيج من النكهات المشتركة، من روائح الفلفل والثوم. ولهذا السبب ـ ولأسباب أخرى ـ لا أستسلم للتأثر بالأسطوانات الشائعة وتلك النزعات الاستعلائية والمقاييس القاصرة التي يقرر بها كثيرٌ من الحواة تحت التمرين أيّ الحضارات أعلى وأيها يتحتم عليها أن تخدم الإمبراطورية التي أصابها الدور وسيكون مصيرها هي الأخرى ـ يومًا ما ـ الانهيار. هكذا يقول لنا غبار القرون المتراكم على أطلال الصروح العظيمة التي كانت لإمبراطورية لا تُقهر في ذلك الزمان وخلفتها أثرًا لها في الأراضي العربية. إنه أيضًا التراب الأصفر الممتد على أطلال پالميرا القديمة في سهول سوريا وحتى الغبار الذي يملأ المسرح الروماني "الجيم" بتونس الذي كان يومًا ما عظيمًا. كلاهما يشهدان لسلطان كان يعتقد أنه أبديًا بينما آل به الأمر ـ مثل كل شيء في العالم ـ إلى أن ابتلعته ضحالة معاصريه من بلاد صغرى أصبحت تحيط الآن بتلك الآثار القديمة التي شُيدَت يومًا تمجيدًا لعظمة إمبراطورية ما.

وهكذا بدون انقطاع أستمرُ في شرب الليموناتة بالنعناع في القاهرة، في دمشق، في القدس وأنا أرى العرب الذين لا يعرفهم الغرب وهم يمرون أمامي:

أرى كل أولئك العرب الذين ليسوا إرهابيين، الذين لا يخضبون بلون الدم الأحمر والدخان الأسود مترو لندن أو فنادق عمّان، ولكنهم يستخدمون ألوانًا أخرى: الأصفر والأخضر، أو ألوان الإنترنت الصارخة في داخل عالم افتراضي برّاق ونشط يخلقه العرب بعيدًا عن تصريحات القاعدة. أو الألوان المتعددة للحجاب الذي يغطي شعر السيدات المسلمات طبقًا لموضات وقوانين خاصة لا يتسع لديهما وقت الغافل في الغرب: أو أبيض فساتين زفاف المسلمات والمسيحيات في مراكبهن الصاخبة عبر الشوارع العربية المزدحمة: أو أزرق المحيط بدرجاته المختلفة. الذي تطل عليه كازابلانكا، أزرق البحر المتوسط الفاتح أو لون البحر الأحمر الفيروزي.

ومن منطقة خاصة في تركيبها مثل تلك التي تبث منها قناة "الجزيرة" في الدوحة وحتى الأرض البُنِّية حيث جبال الأطلس الكبير. هناك طابورٌ طويل من العرب غير المرئيين، الذين لا يعرفهم الغرب. بعضهم يعبر البحر المشترك ويصل عندنا على الشاطئ الشمالي للبحر المتوسط ويظلون غير مرئيين، مجهولين ولكنهم على أية حال "ملائكة" ـ كما يغني إيانو فوسّاتي ـ يعلنون عن وجودهم بمجرد وصولهم في حالة إعياء إلى موانئ لامبيدوزا. أما الآخرون الذين يبقون داخل حدود بلادهم فهم يشعرون بأنهم سجناء داخل صورة نمطية كبيرة لم تعد تستوعب كل ما يدور وراء تفاصيل الحياة اليومية في العالم العربي: الثراء والجمال والتاريخ والترابط الاجتماعي والقدر والألم والمستقبل والإبداع.

وكما لو أن إدوارد سعيد لم يقم أبدًا بكتابة "استشراق". ذلك النص الذي كان في أواخر السبعينيات أهم وثيقة اتهام للاستشراق الأوروبي بشقيه الثقافي والسياسي من المفكرين العرب في جميع أنحاء العالم بدءًا من أولئك الذين يعيشون في الشرق الأوسط وشمال إفريقيا حتى عرب الشتات في الخارج: بعد "استشراق" تغير كل شيء بالنسبة للصفوة العربية، وكذلك بالنسبة للغربيين الذين بدءوا في دراسة الصور النمطية التي كانوا قد كونوها سعيًا وراء معرفة من سينتهي بهم الأمر منذ عصر نابليون إلى ما بعده تحت سيطرة القوى الاستعمارية المعاصرة. وبعد مرور أكثر من ربع قرن على هذا الكتاب يبدو أن التاريخ قد عاد للوراء. كما لو أنه يجب أن نبدأ من جديد، دون وجود، مع ذلك، لصوت أكبر رجال الفكر العرب وأكثرهم تلامذة لكي يوبخ ويستنكر أساليب ومفاهيم عدة.

هناك عربي آخر ممن قرروا العيش في الولايات المتحدة، وهو مصطفى العقاد، وقد تعهد قبيل وفاته بإعادة رسم الوجه الحقيقي للإسلام العربي. المخرج السوري العلماني صاحب الفيلم الوحيد "أسد الصحراء" الذي منعته الرقابة في إيطاليا، كان يريد عمل فيلم عن النهضة العربية في إسبانيا، وفي حديث له في خريف ٢٠٠٥ قال: " كان هناك زمن يرسل فيه كل ملوك أوروبا أبناءهم إلى قرطبة كي يتعلموا الكيمياء والجبر والطب والفلك." . كان منتج "هالووين ـ" "Halloween" يريد أن يوضح للناس أن الإسلام ليس طالبان وليس الإرهابيين" . ولكن هذا الفيلم لم يتم تنفيذه أبدًا؛ لقي العقاد مصرعه في أحد فنادق عمّان في منتصف شهر نوفمبر عام ٢٠٠٥ و تمزقت أوصاله إثر عملية انتحارية قام بها رجال أبو مصعب الزرقاوي، النائب الأول للقاعدة في العراق، والذي قتله الأمريكان بعد الحادث ببضعة شهور.

أمريكا في بغداد منذ ٢٠٠٣ والحرب بين حزب الله وإسرائيل صيف ٢٠٠٦ سرعان ما تحولت في غضون بضعة أسابيع إلى الحرب العربية الإسرائيلية السادسة في أقل من ستين عامًا. لا جدوى من إخفاء أن هذين الصراعَيْن بالنسبة للعالم العربي يدخلان في أزمة ما بعد الحادي عشر من سبتمبر (وحتى ذلك الصراع بين تل أبيب وبيروت الذي دار منذ وقتٍ أبعد)، وهذان الصراعان يمثلان بكل تأكيد جزءًا من عملية تفكيك وحدة البحرِ المتوسط الذي كان يجمع في هدوء سكان شُطآنه. إن بغداد وبيروت وتل أبيب (القدس أمرٌ آخر)، إضافة إلى مركز التجارة العالمي، هي الدرَك الذي يؤدي الطريق إلى عهد الكلمة. إلى بداية الصدام الحقيقي المبني، من جهة، على الصور النمطية الضحلة المرسومة عن العرب بكونهم مسلمين وبالتالى إرهابيين ومن جهةٍ أخرى على المطالبة ـ الذي غالبًا ما يتم تناسيه من المجتمع الدولى ـ بمعايير موحدة في صورة العدالة، الاعتراف بالحقوق والإنصاف عندما يتعلق الأمر بمسائل تخص الشرق الأوسط.

من الصعب على من يعيش في روما أو في نيويورك أن يفهم أو يصدق كيف أن العرب ـ وبخاصة المسلمين منهم ـ يشعرون بوطأة الصور النمطية عليهم. إنها أحكام سابقة مساوية وإن كانت في عكس اتجاه تلك التي تثقل كاهلنا يومًا بعد يوم وهي أن الغربيين كلهم سواء، كلهم استعماريون، كلهم أشرار. ولكن القليل

يكفي كي نشعر بأثر ذلك: يكفي أن نسمع بآذانٍ أهل الجنوب تعبيراتنا التلقائية حيث حُمِّلَت كلمة "عربي" بمعنى كله تحقير وازدراء. أو أن نرى بأعين عربية (مسلمة) عنوان إحدى الصحف اليومية المنتشرة في كل أنحاء البلاد، عنوان بالبنط العريض يقول: "القبض على أربعة إسلاميين في ميلانو" (بتهمة الإرهاب طبعًا) وذلك مع عجز الألفاظ تمامًا عن إثارة الضحك إذا ما أخذت الكلمات بمعناها الحرفي: "القبض على أربعة إسلاميين" كما لو أنه يمكن أن نكتب: "القبض على أربعة كاثوليكيين"، "الإمساك بثلاثة بوذيين" أو"تم القبض على مجموعة من الهندوس". يكفي بكل بساطة أن نضع أنفسنا مكانهم؛ مكان المهاجر غير الشرعي، أو مكان من يقوم بعملية انتحارية، موظف البنك في دمشق، مدرس التعليم الابتدائي في القاهرة كي نشعر بمدى قمع الصورة النمطية التي لم تَعُد حتى تستخدم على استحياء، وإنما يُصَرَّح بها في وضح النهار.

إنهم عرب، إذن هم إرهابيون، هكذا أصبح التعبير الدارج. وكنتيجة لذلك فإن هؤلاء العرب باتوا يعزلون أنفسهم داخل عالمهم بما قد ينشأ عن ذلك في بعض الأحيان من سلبية خطيرة من شأنها أن تمنعهم منذ البداية من أى نوع من أنواع الاختلاط ـ حتى ولو سطحي ـ مع من يعتقدون أنهم لن يعاملوهم معاملة النِّد وإنما سينظرون إليهم نظرة استعلاء. إن العبارة الشهيرة التي تتردد فيما يعرف بـ "الشارع العربي" هي: "أرغب في الهجرة ولكن أصبح الجميع غاضبين منّا؛ إنني مسلم، لا أحد يريدني". إنها ليست فقط رقابة ذاتية، وإنما تفرقة واقعة تطول الجميع وتخلق ضربًا من العقاب الجماعي ويصيب أحيانًا إرهابيين حقيقيين، ولكنه ينال من العرب غير الإرهابيين في كثير من الأحيان.

إلى هؤلاء العرب غير المرئيين، أولئك الذين أسدلت عليهم عباءة الصور النمطية؛ إليهم، إلى هذه القائمة الطويلة من الرجال والنساء الذين لا يعرف الغرب ملامحهم وسماهم، أهدي هذا الكتاب في محاولةٍ لجعلهم، على الأقل لجعل جزء منهم، أكثر تفهمًا من قبل الغرب، وذلك بهدفين: الأول إماطة ولو جزء من الأفكار المسبقة التي تغشى الواقع العربي، والتعريف بما يحدث في السنوات الأخيرة على الشاطئ الجنوبي لبحرنا المتوسط، فضلاً عن الكوارث والحروب والصراعات المتَرَسبَة، في المجتمع والحياة اليومية ما بين تطور تكنولوجي

وعادات وبحث عن الهوية وتطورات اجتماعية اقتصادية واتجاهات فنية. أما الهدف الثاني هو التذكرة بالخيوط الخفية التي دائمًا ما ربطت مصيرنا بهم ومصيرهم بنا: التذكرة بأحجار قصر الجابري البيضاء والسوداء شديدة الشبه بأحجار دوومو أمالفي، دون الشعور بالغربة لا هنا ولا هناك. هذه الروابط الخفية تنم عما في الشرق الأوسط من خيوط متشابكة لا يمكن حلها إلى حد أنها تربط بين الإسلام والمسيحية في المسجد الأموي مثلاً. حيث الذوق الدمشقي الرفيع يصمد أمام رمادية جدران نظام عائلة الأسد. هذا المسجد، هو الوحيد الذي دخله البابا يوحنا بولس الثاني بابا الفاتيكان ـ حافي القدمين ـ أثناء زيارته في عام ٢٠٠٠ للأراضي المقدسة. إنه يقول لنا إن المهد هو دائمًا واحد: إن يوحنا المعمدان مدفون في مسجد مهم بالنسبة للسنّة والشيعة، مشيَّد على كنيسة مشيَّدة بدورها على معبد روماني، وإلى جانب مئذنة عليها اسم السيد المسيح، النبي المكرَّم في القرآن، والذي يزور المسلمون في المدينة القديمة في القدس قبره حفاة تعبيرًا عن تكريمهم له ويعتقد المسلمون أنه في المسجد الأموي تحديدًا، وهو رابع الأماكن المقدسة بعد مكة والمدينة والقدس، سيكون يوم الحساب.

ما تم تقديمه لنا في هذه السنوات هو الإسلام المعادي للمسيحية. ذلك الإسلام الذي يتبع نظريات الحملات الصليبية البالية في العداء، وإسلام القاعدة وإن كان موجودًا، والإسلام السياسي الأكثر أصولية.

بينما ظل خفيًا عن أعين الأغلبية تلك الصورة الشاملة الثرية في مزجها وفي تشابك خيوطها الوثيق الذي يجعل من مصيرنا ومصيرهم مصيرًا مشتركًا، تمامًا كما في المسجد الأموي، كما في الحي القبطي في القاهرة. حيث تُزَيِّن الكنائس والمعابد اليهودية والمساجد التكوينات الزخرفية الخشبية نفسها وحيث تذهب النساء المسلمات اللاتي لم ترزقن بأولاد ـ إلى الكنائس ـ لإنارة الشموع ودعاء القديس جرجس والقديسة تيريزا وطلب شفاعتهم. إنه إذن تزاوج يتحقق بشكل كبير في الممارسات الدينية الشعبية تمامًا مثل اختلاط السلع والروائح في الأسواق. وإنه تحديدًا هنالك، بين شموع النذور ورائحة "الكنتة" و"الفلافل"لازالت الأرض الوسيطة رحبة إلى يومنا هذا.وهي مساحة آخذة في الانكماش ومهددة بالزوال.

بالنسبة لمن لا يريد الانتماء إلى الجماعات التي تملأ عالمنا المعاصر والتحصن وراء التعصب السهل الذي يتجاوز التعصب الإسلامي إلى أصولية العلمانية، فإن هذا المزج الذي تحدثنا عنه هو بمثابة لمسة ناعمة، ولكن هذا المزج أو التلاحم ـ مع عدم الغفلة والإنكار ـ يغطي أرضًا مشتركة أخذت تضيق شيئًا فشيئًا: وإنها أرض صعبة وخلاب يعيش في جذورها الغربيون الذين يحاربون ضد صورهم النمطية والعرب الذين نرحب بهم ونقدرهم: العلمانيين والمستقلين والأحرار: أولئك الذين نراهم أقل خطورة.

إلا أن التحدي أمر آخر: علينا أن ننظر بانفتاح وحسن ظن على قدر الإمكان إلى العرب الآخرين. العرب غير المرئيين الذين يمثلون الأغلبية، العرب الذين نالوا منهم جمود المواقف وحِدَّة الصراعات قبل أن ينتبه الغرب ـ في ظل الحادي عشر من سبتمبر ـ إلى أن شيئًا ما كان يحدث في العالم العربي، شيء كانت له أيضًا علاقة بنا.

واقع الأمر أن هذه العقود الأخيرة قد عملت على توجيه تطور الشخصية العربية، التي كثيرًا ما نجدها اليوم غالبًا مشحونة بمشاعر مناهضة للغرب، التنافس والكره تجاهنا ولكن مشحونة أيضًا بنماذج ونظريات وخبرات لها قيمتها حتى لو كانت قد انطلقت من نماذجنا ونظرياتنا نحن لتتخذ بعد ذلك مناحي نراها الآن سلبية وخطيرة. إذا ما تجاوزنا النفور الذي تثيره فينا بعض الأنماط، أو إذا بعدنا قليلاً عن الأقنعة التي تخفي الوجوه والأيديولوچيات، ستظهر لنا بانوراما إنسانية لا يتعين علينا معرفتها فقط، وإنما من شأنها أيضًا توضيح الصورة والإتيان بقواعد أخرى غير التي أرستّها ثقافتنا والتشكيك بأن الغرب لم يعُد بعد مستودع حقائق هذا العالم ـ وبتعبير أوضح ـ لم يعُد الغرب يقوم بهذا الدور لجانبٍ كبير من العالم: المساحة التي تمتد إلى ما هو أبعد من أرض العرب باتجاه الجنوب في إفريقيا وما وراء المحيط إلى أمريكا اللاتينية ثم إلى الشرق الأقصى الذي يتقدم إلى الأمام بشكل محسوس أكثر فأكثر.

هكذا إذا نظرنا إلى ما وراء النفور المتبادل، سنكتشف قائمة متفرِّدة من العرب غير المرئيين يجمعون بين عناصر قد تبدو لنا متناقضة: نساء مواليات للحركات الإسلامية والنسائية، متطرفون ومدافعون متفانون عن حقوق الإنسان، شيوخ

بجبة "هاكرز"، تجار و يجيدون التحدث بأكثر من لغة. بعيدًا عن مفاجآت من طراز "غريب ولكنه حقيقي"، القائمة تُعد وسيلة لا غنى عنها لفهم الرؤى المستقبلية على المدى القريب والمدى المتوسط، ولنقل صورة أوضح للعالم الذي سيتعين علينا ـ ولاسيما على أبنائنا ـ العيش فيه.

- ١ -

ليس مجرد حجاب للشعر

من ترتديه

حدث ذلك في قناة "الجزيرة" عندما ظهرت إحدى أشهر المذيعات في القناة أمام المشاهدين مرتدية الحجاب. ومنذ ذلك الحين بدأ الحجاب يظهر على شاشات التليفزيون العربية المحمية ـ حتى ذلك الحين ـ بالنسبة للمسلمات اللاتي لا ترتدين الحجاب، ولم يكن السبب في ذلك علمانية الفنانين ورجال الصحافة ولكن كان وراءه أيضًا تعليمات للسلطة السياسية التي كانت تمنع رسميًا طيلة العقود الأخيرة ظهور نساء متحجبات على الشاشة. كانت نهاية نوفمبر ٢٠٠٢، أواخر رمضان، عندما ظهرت خديجة بن قنة وبشكلٍ غير متوقع مرتدية حجابًا ما بين الأصفر والوردي. كانت صدمة للمشاهدين الذين كانت الجزائرية خديجة تمثل لهم أسطورة المذيعة العصرية في ثوبها العربي. ولكن إن كانت هكذا انتهت أسطورة خديجة بدون حجاب فقد بدأت أسطورة خديجة بالحجاب في السنوات التي تلت ذلك، أصبحت خديجة أيضًا مرجعًا يحدد "موضة" في أشكال الحجاب، فكان ظهورها في حلقات برنامج "الشريعة والحياة" مع أكثر المشايخ شهرة في العالم العربي، الشيخ يوسف القرضاوي، ظهور يميزه ارتداؤها الحجاب ليس فقط كإعلان عن الهوية وإنما كإكسسوار يُوجِّه الموضة بألوانه المتناسقة مع الملابس، وبما يزينه أحيانًا من لآلئ أو خيوط مذهبة وغيرها من أشكال التطريز.

لم تفقد خديجة شيئًا من إجادتها مهنتها وأدائها بارتدائها الحجاب. ولكنها أسهمت في أن الكثير من السيدات العاملات والمتعلمات واللاتي يشغلن مناصب قيادية، وممثلات النُخبة في البلاد العربية، قد اتجهن إلى ارتداء الحجاب. لقد

وضحت خديجة للعالم أن الحجاب لم يعد حكرًا على سيدات الطبقات الفقيرة، أو للسيدات اللاتي قُمن بارتداء الحجاب حتى يتمكن من الانضمام إلى الخدمات الاجتماعية للإخوان المسلمين والجمعيات الخيرية الإسلامية. ولكنّه وصل إلى سيدات الطبقة المتوسطة في المدن العربية، بل وتجاوزها إلى الطبقة البرجوازية العليا في ظاهرة أدت إلى شيء من الصعوبة في قراءة الغرب للحجاب الذي يرى فيه علامة من علامات الرجعية ورفض الحداثة.

الحجاب بلون السومون الذي ارتدته المذيعة الرمز لقناة "الجزيرة" يعبر أيضًا عن حقيقة كيف أن الحجاب بالنسبة لجزء من المجتمعات العربية إنما هو مسايرة لاتجاه سائد في المجتمع أكثر منه تعبيرًا عما هو أعمق من امتثال لأوامر الدين. خير برهان على تلك الألوان الفاتنة في حجاب خديجة. الموضة نفسها تبرهن على ذلك؛ منذ أن ظهرت خديجة على شاشات التليفزيون مقتحمة بذلك عالم الإعلام، والذي كانت لوائحه تمنع، حتى سنوات قريبة مضت، وجود الحجاب فيه، حوّل مصممو الأزياء الحجاب إلى إكسسوار يتطلب ميزانية وعمل أكثر بكثير عن ذي قبل.

وجاء دخول الحجاب إلى عالم الإعلام والفن في العالم العربي تدريجيًا. حيث بدأ من المستوى الأدنى إلى أن وصل إلى وجود متزايد بين من تعملن في وزارات الإعلام والثقافة: بدءًا من عاملات النظافة ثم الموظفات ثم المسئولات وصولاً إلى المديرات والرئيسات. الخطوة التالية كانت ظهور المذيعات المتحجبات، والذي مازال ممنوعًا في المحطات الحكومية في بعض البلدان كما هو الحال في مصر حيث تم التحايل على هذه القاعدة بانتشار الحجاب في الوسط السينمائي. لازالت القاهرة هي رائدة صناعة السينما في المنطقة والماكينة الكبيرة التي وجهت الموضة وطرق التعامل ولهجة الجمهور العربي لعقود طويلة سواء من خلال شاشات السينما أو التليفزيون، لاسيّما عن طريق إنتاج وتوزيع المسلسلات التي يتم إنتاجها خصيصًا لشهر رمضان، الفترة الأكثر تركيزًا على الاستمتاع بالمسلسلات التليفزيونية. على كلٍّ، الحجاب لم يمس عالم الممثلات المصريات فقط، ولكن من خلال الضغط الذي تمارسه صناعة السينما في القاهرة، بدأ الحجاب يتغلل بشكل ملحوظ أيضًا خارج حدود مصر تاركًا راية العلمانية في عالم الفن للفنانات اللبنانيات ولاسيما المطربات منهن.

مما لا شك فيه أن ظاهرة الحجاب في تزايد: ومما يساعد على جعلها من مواضيع الساعة أن مجلات أخبار الفنانين تجتهد في أن تنشر بين الحين والآخر أن الفنانة الاستعراضية أو الراقصة أو الممثلة أو المطربة المعروفة، قد قررت أخيرًا ارتداء الحجاب. ومن الجدير بالذكر أن قرار ارتداء الحجاب هو قرار بلا رجعة في حياة أي امرأة، ولذا فإنه غاية في الصعوبة. "من غير الممكن ارتداء الحجاب وخلعه اليوم التالي" هكذا تقول فدوى الجندي عالمة الأنثربولوچي المصرية التي قامت بإجراء أكبر بحث عن الحجاب عنوانه "الحجاب: تواضع، خصوصية، مقاومة". وعلى الرغم من أنه صَدَرَ عام ١٩٩٩ في الولايات المتحدة الأمريكية، فإنه مازال إلى يومنا هذا المرجع الرئيس لمن يريد أن يفهم ماذا يحدث في قوانين اللباس بالشاطئ الجنوبي من البحر المتوسط. إلا أنه كثيرًا ما حدث في السنوات الأخيرة، أن دامت أخبار هذه المجلات وقتًا وجيزًا إلى أن تعاود النجمة المعنية الظهور على الملأ بدون حجاب. حدث هذا مثلاً مع إحدى الراقصات الأكثر شهرة وإغراءً في المنطقة وصاحبة ثورة في عالم أزياء الراقصات بثيابها ليس فقط القصيرة جدًا وإنما أيضًا الضيقة للغاية. والتي حلّت محل الترتر والجونلات الفضفاضة للراقصات في السابق. خرجت هذه الراقصة في عام ٢٠٠٢ من فضيحة كبيرة تورّط فيها معها أحد أهم رجال الأعمال المصريين، أول من أدخل السيارات الـ Bmw إلى مصر واستطاع أن يحصل على توكيل تجميعها في مصر. كان قد تم القبض عليه في أوائل عام ٢٠٠٢ بتهم مالية وضريبية مع مجموعة من ألمع الأسماء في العالم المصرفي والأعمال الحرة. ولكن ما كان له أثره المدوي شريط الڤيديو الذي كان قد سجله بدون علمها بينما كانا يمارسان الجنس، ليس كعاشقين بالطبع لأن العلاقات خارج الزواج غير مسموح بها، ولكن في إطار نوع آخر من عقود الزواج والمسمّى بالعرفي وهو عقد محدد الأجل يسهُل إبرامه على ورقة بيضاء يُوقّع عليها الطرفان بحضور شاهدين.

أصبح شريط الڤيديو ضالّة القاهريين إذ كان يُباع في كل مكان بأبخس الأثمان. كان الأمر صعبًا جدًا على التي اعتزلت الأضواء بشكل مؤقت وذهبت لتضاء فريضة الحج في مكة، أحد أركان الإسلام الخمسة، وعند عودتها ترددت الأقاويل بأن، المرأة الأكثر إغراءً في مصر، ارتَدَت الحجاب: ولم تكذب دينا الخبر

على الفور، أعلنت فقط أن الرحلة أتعبتها وهزتها كثيرًا على الصعيد الروحى إلا أنها ظهرت بعد ذلك ببضعة أسابيع بدون حجاب وعاد عالم الأعمال الحرة المرتبط بالاستعراض للدوران كما كان من قبل إلى أن جاء في عام ٢٠٠٦ دور حنان ترك.

إنها الجميلة القديرة بطلة أشهر أفلام الفيديو الرومانسية في السنوات الأخيرة مثل "سهر الليالي" عام ٢٠٠٣ و "حب البنات" ٢٠٠٤، ومع ذلك نجحت حنان ترك في أن تجعل كل الجمهور العربي يتحدث عنها في أواخر مايو ٢٠٠٦ عندما كشفت لإحدى المجلات الأسبوعية الكبيرة "روزاليوسف" عن رغبتها في ارتداء الحجاب. وبعد أشهر قليلة من فيلمها "دنيا" للمخرجة اللبنانية جوزلين صعب، الذي أثار جدلاً عنيفًا لتناوله قضية جسد المرأة (تحديدًا ختان الإناث) من خلال قصة راقصة في العشرينيات من عمرها. حنان ترك لم تتحدث فقط عن اختيار صعب كانت تضمره منذ سنين، ولكنها هاجمت أيضًا السينما المصرية متسائلة عن سبب عدم اتباعها للنموذج الإيراني حيث تعمل العديد من الممثلات المتحجبات. الحجاب والحديث عن الثورة الإسلامية (الشيعية) الوحيدة في العالم كان كافيًا لإطلاق أصوات معجبي حنان ترك المتحجبة ومعارضيها. علاوة على ذلك، لم يظل الخلاف داخل حدود القرار الشخصي "الإيماني" لحنان وإنما تخطاه إلى ما هو أبعد من ذلك، حيث كتبت إحدى قارئات منتدى "إيلاف" المجلة الأشهر في العالم العربي: "لقد أخذت السينما الناس بعيدًا عن الإسلام خلال الستينيات والسبعينيات باسم الحرية والحضارة وأتى الآن دور الممثلات كي يساعدن ويشجعن على العودة إلى الطريق المستقيم؛ الإسلام الحقيقي هو الحضارة الحقيقية."

إن حالة خديجة بن قنة وكذلك حنان ترك ـ وإن كان على مستوى أصغر ـ يوضحان أن هناك فصلاً من قصة ارتداء الحجاب يتجاوز قضية الشكل واستخدام الحجاب كوسيلة. إنه الفصل الذي يلتقي فيه الدين والهوية إلى حد التشابك غير القابل ـ أحيانًا ـ للتفكك. ومن جانب آخر فقد تحدثت أهداف سويف عن هذا قبل أن تتحجب خديجة بن قنة: "لو كان لدينا زي قومي مثل الساري لنساء الهنود أو السروال للباكستانيات لارتدته الكثيرات منا الآن." هكذا كتبت الكاتبة المصرية الإنجليزية على صفحات "الجارديان" في ديسمبر ٢٠٠١.

أهداف المولودة في القاهرة والمقيمة في لندن لا ترتدي الحجاب إلا أنها تحمل بداخلها هوية أخاذة على قدر ازدواجيتها: امرأة مصرية بعمق، تربَّت في قاهرة الثورة (ثورة عبد الناصر) ثم دفعتها ظروفها إلى بريطانيا، حيث تعلَّمت الكتابة بالإنجليزية واستخدام لغة شكسبير في رواياتها وفي الحياة اليومية في لندن، وهكذا انحصر استخدام اللغة العربية لديها على اللقاءات والمحادثات الحميمية: إنها باختصار خير ممثل لتلك "الأرض المشتركة" ("أرض مشتركة" هو عنوان أحد مؤلفاتها) لتلك المنطقة المشتركة التي ينميها قِلة، في نقصان مستمر، من المفكرين العرب الذين كرَّسوا أنفسهم للحرية ولحياةٍ ثقافية صعبة، ينتقدون ضيق أُفق أبناء أرضهم وفي الوقت ذاته يرفضون بشدة عجز الغرب عن تجاوز مخاوفه لكي يتفهم دوافع الآخرين.

على الرغم من أنها لا ترتدي الحجاب، فإن أهداف سويف تعي البعد الثقافي والاجتماعي الكبير لهذه القطعة من القماش التي تعذب الغرب منذ سنوات عديدة لفهمها وليس في فرنسا وحدها. إن الحجاب ليس الزي القومي للمصريات ولا علامة مميزة للهوية العربية إلا أنه تشبع في السنوات الأخيرة بما يدل أيضًا على الهوية التي تتجاوز مجرد الانتماء الديني للإسلام، إنه خرج من حيز الدين ليدخل في إطار الانتماء إلى شعب ومنطقة ومصير بعينه. تقول أهداف: "لقد عاد الحجاب في مصر في العشرين سنة الأخيرة. وبشكلٍ عام فهو تعبير عن الهوية، احتجاج على العولمة الثقافية، ويجب أن نوضح أنه اعتراض على فكرة أن يكون النموذج الغربى هو النموذج الوحيد المطروح للمرأة في عالمنا المعاصر. ولذا فإن أي محاولة أمريكية أو غربية "لإنقاذ" المصريات من الحجاب سوف ينظر إليها على أفضل الفروض على أنها دعم مُشَوَّش، أو عدوان استعماري جديد، على أسوئها." . وتشارك أهداف الرأي امرأة تختلف عنها كثيرًا، وهي هبة رءوف عزت، الخبيرة السياسية المصرية التي تصغر أهداف وترتدي الحجاب؛ وهي واحدة من الأصوات الأكثر تجديدًا في الجانب الإسلامي: مفكرة تبذل الكثير من الوقت والجهد من أجل قضية الديموقراطية والحوار بين الأديان ومشاركة الإسلام السياسي في المؤسسات. ترى هبة أن مسألة الحجاب "توضح منظور المستشرقين، الصور النمطية السائدة في الغرب وتظهر في الوقت نفسه حدود التسامح في الدول الغربية. ولكني أعتقد أنه بعد أحداث الحادي عشر من

سبتمبر تحاول العديد من الدول ليس فقط "التحكم" في الوجود الإسلامي، ولكن أيضًا "تغيير شكل" الإسلام".

من الممكن إذن أن يكون الحجاب كالساري أو السروال الباكستاني وقد أصبح الحجاب بالفعل هكذا بالنسبة لعدد كبير من المسلمات العربيات. ولكن هذا لا يعني أن الدين هو المرجعية الأساسية لمن تقرر أن ترتدي الحجاب سواء كان منديلاً بسيطًا كالحجاب أو النقاب، وهو الصورة الأصولية منه التي ترتديها السعوديات (وغيرهن) أو الشادور الشيعي أو حتى البُرقة[١] القبلي الأزرق. لا يمكن التغاضي عن العلاقة بين غطاء الرأس والإسلام وإنها تحديداً هذه العلاقة التي تُخيف الغرب الذي هو من الضعف بحيث لا يستطيع أن يتعامل بتسامح واحترام مع ظاهرةٍ تحتاج إلى فهم ما وراء الشكل. ولندع المتحجبات يتكلمن.

إن جيش المتحجبات متعدد الألوان الذي ينتشر في العالم العربي كله (وقسمًا كبيرًا من العالم الإسلامي) هو بلا شك الصورة التي تلفت انتباه الإيطاليين والأوروبيين وكل الغرب وتُربكهم كما لو أن الحجاب له معنى واحد فقط: الركض الحثيث المضاد للمعاصرة بما تُمليه الطاعة العمياء للتعاليم الدينية. مناهضة المعاصرة هي بالطبع واحدة من مكونات الظاهرة: هو أيضًا المكوِّن الأكثر وضوحًا والأكثر جذبًا للعيون الغربية، ولكننا إذا نظرنا إلى الموضوع من الناحية المقابلة فليس هناك ما يجزم بأن مناهضة المعاصرة هي المكون الأكثر أهمية، والمسألة على الأقل ليست كذلك بالنسبة لمن ترتدي الحجاب.

سبب هذه الظاهرة على حد التفسير الأكثر شيوعًا على ألسنة المتحجبات هو الرغبة القوية في الالتزام الواعي بأخلاق الإسلام الذي يحُث على السلوك التقي والمتواضع الذي لا يقتصر على المرأة فقط بل يشمل الرجل أيضًا، ولعل سبب الفهم الخاطئ للحجاب أنه في السنوات الأخيرة كانت هناك الكثير من الكتابات غير الجيدة عن قواعد اللباس الإسلامي، في الوقت الذي لم نقف فيه كثيرًا لنتأمل حقيقة أن الحجاب هو مجرد شكل من أشكال تطبيق هذه القواعد. ولقد اكتسب، مع ذلك، شهرة أكبر عندما غطى رأس المرأة وليس ـ كما يحدث بشكل

---

(١) البُرقة Burqa هي كلمة تطلق على النقاب الأفغاني وتأتي من بُرقُع (المترجم).

متزايد في العالم العربي ـ عندما يغطي رأس الرجل الذي يُعلن بتغطية رأسه عن التزامه بالتواضع الذي أمر به الرسول نفسه أصحابه.

ترى فدوى الجندي أن "اعتبار الحجاب مسألة تخص المرأة فقط هي نظرة قاصرة ويعطي صورة خاطئة لما يحدث في العالم الإسلامي". إلى يومنا هذا وبعد مرور أكثر من ست سنوات على بحثها عن الحجاب ترى فدوى ـ التي لا ترتدي الحجاب على شعرها الأسود مثل زميلتها أهداف سويف ـ أن نتائج الوقت الذي قضته بين الرجال والنساء وغطاء رءوسهم سعيًا في بحثها في أنثربولوچيا الثقافة لم يضع هباءً، إذ أن الحجاب هو إعادة اكتشاف للهوية القومية، ومقاومة لضغوط الغرب، ولكنه أيضًا انصياع لشكل اجتماعي سائد وتنفيذ للتواضع الذي تأمر به تعاليم الدين: الحجاب إذن يجمع الحس السياسي والديني معًا.

إذا ما نحينا تفاصيل الإيمان جانبًا، ونظرنا إلى البعد الروحي للحياة، بعيدًا قدر الإمكان عن شياطين المادية: إذا ما نحينا جانبًا الحجاب والخمس صلوات المكتوبة، سيبدو وكأننا نسمع تلك النداءات المناهضة للحمى الاستهلاكية، الشائعة أيضًا في الكنيسة الكاثوليكية بفريقيها الأكثر تمسكًا الملتف في السابق حول البابا يوحنا بولس الثانى والآن حول بابا بيندكت السادس عشر، و فريقها التقدمي القريب من الحركات المناهضة للعولمة أحادية الاتجاه، المحصورة على الأغنياء.

وهذا هو الحجاب كما تصوره برامج الإسلام السياسي: الحجاب كرمز للالتزام الديني اليومي، الذي يحوي معاني الإحسان والتواضع والصدق والإحساس بالمسئولية إضافة إلى الانصياع الكامل لما يَنُص عليه الدين الإسلامي: حياة يحكمها الإيمان وما تُمليه الشريعة الإسلامية: هي باختصار، حياة يحكمها القانون الإلهي، في العام والخاص، وإن تَعَارَض هذا القانون مع قوانين البشر، فإننا لا نحتاج لتوضيح أن الغلبة ستكون للأول.

وإن كان هذا القبول للرسالة السماوية يبدو بعيدًا عن عالمنا في الغرب، تكفي الإشارة إلى الحوار الدائر بين الكنيسة الكاثوليكية والحكومات الوطنية بشأن أخلاقيات التعامل العلمي مع الجسد البشري حتى نتنبه كما هو معاصر في عالمنا أيضًا هذا التعامل مع الرسالات السماوية. في إيطاليا أيضًا (إن لم يكن

فيها على درجة الخصوص) يتأجج الجدل حول التلقيح الصناعي والإجهاض وتقنين العلاقات دون الزواج والموت الرحيم(*)؛ كلها مواضع يرى البعض وليس الجميع أنه يرجع إلى القانون الإلهي في المسيحية وما ينبثق عنه من أخلاق إنسانية تحديد سلوك الفرد والجماعة فيها يسبق القانون الإلهي قوانين البشر ويفوقها.

"مفردات" الحجاب

لنعد مع ذلك إلى قطعة القماش تلك. إلى ذلك المنديل شديد الشبه بالإيشارب الذي كانت ترتديه النساء الأوروبيات في السابق (وأحيانًا إلى يومنا هذا) إذ لم يكن الظهور في الأماكن العامة برأسٍ مكشوفة يعتبر لائقًا. يُعد الحجاب عند العرب اليوم ليس فقط تعبيرًا عن الخضوع للأمر الإلهي وعن الإسلام السياسي. هذا ما بيَّنته أهداف سويف عام ٢٠٠١. إن الحجاب يكشف "عن هوية من ترتديه أمام المجتمع المحيط والعالم أجمع. إنه ليس كالساري. ولهذا السبب نجد أن الحجاب يتخذ، داخل البلد الواحد، أشكالاً متعددة تعبر عن مدارس فكرية، مواقف سياسية وعادات اجتماعية متباينة فيما بينها.

يأتي على رأس القائمة ما يبدو ـ فقط في المظهر ـ الشكل الأكثر بساطة: الحجاب، أي الإيشارب الذي يغطي بطرق متعددة الوجه والرقبة اللذين لا يصح، طبقًا للعرف، أن يتركا بلا غطاء. بالنسبة لكثير من النساء فإن الحجاب هو أبسط الطرق لمجاراة التيار السائد في المجتمع. إنه ما يشبه غطاء الرأس يوضع حتى لا تشعر المرأة بأنها منبوذة، لتقي نفسها من المضايقات وتعليقات الجيران في مجتمع شديد المراقبة لشرف المرأة ويعني فيه الكثير بالنسبة لها ولأسرتها. باختصار، ترتديه أُمّي وزوجة شقيقي، وكذلك أعز صديقاتي التي قررت منذ بضعة أشهر أنه حان الوقت لارتداء الحجاب ولنعلن للكل أننا فتيات على خلق، ثم

(*) بالإيطالية Eutanasia وكلمة تنحدر من اليونانية Euthanasia والتي تعني الموت الطيب أو الرحيم. وقد أصبح المصطلح في عالمنا المعاصر يستخدم للتعبير عن إنهاء حياة المرضى الميئوس من حالتهم بناءً على طلبهم الشخصي أو طلب ذويهم. الأمر الذي أفسح المجال أمام جدل مفتوح في الغرب. (المترجم).

إنه في البنك الذي أعمل فيه أصبحن يرتدين الحجاب تقريبًا كل زميلاتي باستثناء ماريان المسيحية ورانيا التي تأتي من عائلة واسعة الأفق ولا تهتم بتعاليم الدين كثيرًا.

أحاديث كهذه من السهل أن تسمعها عندما تثق فيك السيدات العربيات ويَبُحن لك بأنه ـ خاصةً في الأوساط المحافظة كما هو الحال في القاهرة منذ سنوات ـ قد نشأ فيما يخص الحجاب نوعٌ من أنواع التقاليد الاجتماعية أكثر منها دينية. ذلك ما يشبه قليلاً ما كان يحدث منذ بضعة عقود في جنوب بلادنا من ساردينيا إلى پوليا.

إلا أنه من خلال الممثلات وغيرهن من الموظفات ممن قلبن صورة المرأة المتحجبة المغلوبة على أمرها، بدأ الإسلام السياسي يوجه بصورةٍ كبيرة جماليات وموضة الحجاب الذي لا يقف ـ في بعض الأوساط ـ عند حد الطرحة البسيطة التي ترتديها الفتيات أو الطُّرَح الأنيقة التي تستخدم في الأعراس والمناسبات، ولكنه يتحول في عرف المثقفات الإسلاميات المعتدلات إلى حجاب أكثر تواضعًا. لا تتعدد فيه الألوان والنقوش ويمتد طولاً إلى أن يغطي الجزع؛ ترتدي النساء هذا النوع من الحجاب على ثوب أو تنورة لأن البنطلون ـ لاسيما "الچينز" الضيق الذي تفضله الفتيات المتحجبات ـ غير مقبول بالمرّة. ويكمل هذا النوع من الحجاب القفاز الذي يغطي اليدين اللتين ـ طبقًا لقواعد الالتزام المتشددة ـ لا يمكن لها أن تصافح يد رجل لا ينتمي إلى أسرة السيدة المتحجبة إلا إذا كانتا مستورتين. أما الخمار الذي يكشف الوجه فقط فهو المفضل لدى الطالبات الجامعيات اللاتي تنتمين إلى فكر الحركات الإسلامية بالقاهرة. وهذا هو الشكل المرتبط بمسألة الهوية الإسلامية (أو العربية) في مواجهة غرب يُنظَر إليه على أنه عدو، لأنه محتل في شكل جديد. في هذه الحالة يُعتَبَر الحجاب حقًا تأكيدًا للصورة الخاصة أمام ذلك العالم ذاته، ولكنه أيضًا اتهام لمن لم يرغب ولم يعرف كيف ينفتح على الآخر ويتقبل تباينه.

غير أنه وراء هذا الشكل من أشكال الحجاب الذي ينم عن وعي واعتزاز أكبر هناك ثقافة نسائية اكتشفتها الحركات النسوية في أوروبا وأمريكا منذ وقتٍ قريب فقط. هناك عقليات متفتحة تتمتع بها ناشطات رائدات في تلك الحركات

امثال الإيطالية "إيمّا بونينو". هؤلاء الناشطات تجاوزن النقاش العقيم حول الحجاب الذي مازال متأججًا في فرنسا، في محاولة لفهم ماذا تريد سيدات الفكر العربيات المتحجبات قوله لنا. فحسبما تقول هيفاء خلف الله، مديرة مركز الدراسات الإسلامية المتوسطية في بريطانيا، الذي يُعنى بالحوار بين شاطئي المتوسط بين المسلمات والأوروبيات: "إن كثيرًا من السيدات المسلمات يرين أن الحركات النسوية الغربية لا وقع لها في المواضيع التي تهمهن، فهن يبحثن عن تأثير سياسي وثقافي حقيقي (ليس مجرد كلام نظري). إنهن يتطلعن إلى الاستقلالية الاقتصادية ويشتد قلقهن على الوضع السياسي الراهن المؤلم في المنطقة.".

وهكذا يتكشّف لنا أن الكثير منهن لسن مغلوبات بالمرة على أمرهن ولسن مجبرات بأي شكلٍ من الأشكال على ارتداء الحجاب. إن لديهن مطلق الحرية لاتخاذ هذا القرار كما تقول كلمات أغنية سامي يوسف عن سوء فهم الغرب لظاهرة الحجاب، تلك الأغنية التي أصبحت علامة من علامات موسيقى المسلمين: "حُرة". ولاسيما أن النساء اللاتي ترتدينه على دراية بكثير من النظريات التي يبنين عليها آراءهن كما أنهن يستندن إلى تاريخ طويل للحركات النسوية الإسلامية. "الحركات النسوية الإسلامية" هي مصطلح يُستخدم على سبيل التسهيل، ولكنه لا يروق لكثير من الناشطات في هذا المجال لكونه غير دقيق، فعلى سبيل المثال هذه التسمية لا تروق لواحدة من أشهر السياسيات في الساحة العربية الإسلامية، وهي نادية ياسين المغربية، ابنة الشيخ الشهير عبد السلام، وهي المتحدثة باسم "العدل والإحسان"، الحركة الإسلامية التي أسسها والدها. وزادت شهرتها عندما هاجمت في عام ٢٠٠٥ الملك محمد السادس، ملك المغرب بالتفويض الإلهي طبقًا للأعراف في المغرب، وهو واحد من الأشراف. في لقاءٍ لها مع مجلة أسبوعية في الرباط، تحدّت نادية الملك بإعلانها عن تأييدها لتحويل المغرب إلى جمهورية، ما ورطها كمتهمة في قضية سب الذات الملكية، تمنعها من مغادرة البلاد. أما عن الحركات النسوية فإن نادية لا تريد أن تعرف شيئًا عنها إذا ما تعلق الأمر بمعارك المرأة العربية، لأنه ـ كما صرّحت في ٢٠٠٤ـ "لم تكن لدى النساء في الغرب أية حقوق قبل المعركة من أجل الحصول على هذه الحقوق. أما عندنا فالأمر معكوس: سُلِبنا حقوقنا شيئًا فشيئًا.".

المشكلة ليست الإسلام، هكذا تقول نادية ياسين وتقوله معها كل الناشطات المتحجبات في الحركات النسوية. المشكلة تكمن في التفسير الذكوري للظاهرة الذي له الغلبة الكبرى حتى الآن. والذي يُمكن محاربته بالعودة إلى نص القرآن الذي يدافع عن المرأة: "الإسلام ليس عدوًا للمرأة" تشرح هيفاء خلف الله وتستطرد قائلة: "لقد تضمَّن التاريخ الإسلامي مواقف مشينة ضد المرأة. وهذا هو السبب في أنه تعين على كثير من النساء العرب إيجاد طُرُق جديدة لمحاصرة ما اخترعته مجتمعاتهم لتفرض خيارات تفسيرية معادية للمرأة على مقومات شرعية إسلامية هي في أصلها صحيحة.".

القرآن إذن على صواب، أمَّا القراءة فلم تحترم النص: وهذه المفارقة بين الرسالة الأصلية للقرآن وما أُشيع بعد ذلك هي أيضًا وراء كتيبة المُشرِّعات المسلمات، الباحثات، عالمات الشريعة اللاتي بدأن في الظهور فيما كان حكرًا على الرجال من تفسير القرآن. وفي المقام الأول في جامع وجامعة الأزهر، معقل الاتجاه المحافظ السنّي والمكان الذي يتربى فيه ليس فقط النخبة العربية وإنما النخبة المسلمة بشكلٍ عام التي ستقود فيما بعد الاتجاه الديني والسياسي من الجزائر وحتى إندونسيا.

النساء اللاتي يشغلن مناصب مهمة في الأزهر قليلات. ومن بين هؤلاء سعاد صالح عميدة كلّية البنات في الجامعة الإسلامية بالقاهرة، وهي واحدة من أفضل الباحثات في الجامعة لدرجة أنها كانت الوحيدة التي تم اختيارها لتحرير "وثيقة حقوق الطفل في الإسلام" الصادرة عام ٢٠٠٣ .وإنها أيضًا واحدة من المرشحات لمنصب أول "مفتي امرأة" في مصر، وهي معروفة أيضًا لدى الجمهور العريض الذي يراها على شاشات الفضائيات العربية تتحدث تحديدًا عن النساء في الإسلام. ولكن ليس لهذه الأسباب تريد الدكتورة سعاد أن يتم تصنيفها كمؤيدة للحركات النسوية، لأنها ـ كما صرحت في لقاءٍ لها في مجلة الأهرام ويكلي الحكومية المصرية ـ أن الواجب الأول للمرأة المسلمة هو الأمومة وإدارة المنزل ورعاية الأسرة والزواج هو المؤسسة الذي يتجدد فيها المسلمون: "الرجال هم الرجال والنساء هن النساء" توضح الدكتورة سعاد التي تؤكد على الرغم من ذلك على المساواة بين الرجل والمرأة الموجودة في القرآن "في أيام الرسول ـ عليه

الصلاة والسلام ـ لم تكن هناك أية تفرقة بين الجنسين: كان الرجال والنساء يصلون ويجاهدون معًا، كانت هناك مساواة تلقائية".

موضوع العصر الذهبي للإسلام هو موضوع يلجأ إليه الكثيرون للاعتراف بدور المرأة، كما تؤكد عليه سعاد صالح وعالمات قانون وشريعة أخريات أمثال ملكة يوسف زرار. وملكة ليست أزهرية مثل سعاد، وإنما تأتي من مدرسة إسلامية أخرى من جامعة القاهرة وسنوات طويلة من التدريس في الجامعات السعودية، وقد قررت استخدام التليفزيون ـ وصرحت بهذا في واحدة من اللقاءات الصحفية القليلة ـ كواحد من الأدوات القليلة لمكافحة "القانون الذكوري" و"توضيح سماحة الإسلام خاصة فيما يتعلق بالقضايا النسوية" لأن "كل النصوص القانونية بحاجة إلى إعادة نظر". ولهذا فقد وقع اختيارها على واحدة من القنوات التي تُشاهدها الطبقات الدنيا والمتوسطة من الشعب المصري، قناة "دريم"، والتي استضافها فيها أكثر من مرة برنامج "عمَّ يتساءلون" الذي يستقبل مداخلات المشاهدين على مدى ساعة ونصف بالمساء مع التركيز على القضايا التي تهم المؤمنين من مشاكل الحياة اليومية وغيرها من القضايا بما فيها الموت، الموضوع الذي عرف الجماهير بالبرنامج منذ أن وضَّح لأول مرة على شاشات التليفزيون، بالاستعانة بمانيكان، الطريقة الصحيحة لتغسيل الموتى طبقًا لتعاليم الإسلام.

سعاد صالح وملكة زرار وكذلك عبلة الكحلاوي التي تتحدث إلى الجماهير من خلال شاشة القناة الدينية "الرسالة"، وهي أيضًا أزهرية وعميدة كلية الدراسات الإسلامية في جامعة السويس، هن فقط الأكثر شهرة بين الداعيات الإسلاميات اللاتي أحدثن طفرة في السنوات الأخيرة في العلاقة بين جمهور المسلمين (بما فيهم الرجال) والمرأة التي تتعرض للنصوص القرآنية وتوصلها لجمهور محدود الثقافة وبه نسبة عالية من الأميين. ولكن وعلى الرغم من أن هذا النشاط الدعوي يتجاوز حدود شبه الجزيرة العربية، فإن هذه الظاهرة هي ظاهرة حديثة، فقط لارتباطها بالتليفزيون. ذلك لأن السيدات الناشطات في حركات تحرير المرأة من منظور إسلامي كن يمارسن نشاطهن بالفعل قبل ما يقرب من قرن من الزمان جنبًا إلى جنب مع المفكرات العربيات اللاتي كن يسعين لخلع الحجاب.

كان ذلك في العقود الأولى من القرن العشرين، وأسماء بطلات هذه المعارك التاريخية خُلِّدت في ذاكرة المنطقة بأكملها مثل هدى شعراوي رمز حركات تحرير المرأة العربية بحياتها وموقفها التاريخى حال عودتها إلى القاهرة بعد مشاركتها في إحدى الندوات الدولية. بمجرد نزولها من القطار خلعت البيشة التي كانت تغطي وجهها فقط، إذ أنها لم تتخلَّ أبدًا عن الطرحة التي تغطي الرأس؛ وبعد ردود الفعل الأولى المليئة بالدهشة، اقتدت بها العديد من السيدات اللاتي كن في استقبالها في المحطة.

وإلى جانب هدى شعراوي كانت هناك امرأة أخرى لم تكشف وجهها، امرأة كانت عيناها تشبه عيني هدى كما يبدو من الصور النادرة التي تظهران فيها سويًا بالحجاب الذي يلتف حول وجوه تتسم بالذكاء والعزيمة الهادئة، كانت تُدعى زينب الغزالي. السيدة التي كانت حتى آخر يوم في حياتها (وافتها المنيَّة في القاهرة في أغسطس ٢٠٠٥ عن عمر يناهز الثمانين عامًا) تعتبر المناضلة المُتحجبة: يُحكي عنها أنها كان لها تأثيرٌ كبير أيضًا على حسن البنا مؤسس الإخوان المسلمين في مصر.

كانت زينب تُقَدِّر هدى، ولكن بقاءهما داخل المؤسسة نفسها لم يَدُم طويلاً. كانت هدى ناشطة نسائية على طراز النخبة إذ لم تكن تجيد العربية، ولذا فكانت علاقاتها بالنساء المصريات محدودة، أمَّا زينب فكان لها منظور مختلف تمامًا ألا هو المنظور الإسلامي. تزوجت زينب مرتين إذ أن الزواج كان شيئًا ذا أهمية كبيرة في حياتها أيضًا. وعندما تُوفى زوجها أصبحت تهتم فقط بمواضيع الإسلام والمرأة. اعتُقِلَت في الستينيات وتم تعذيبها وألَّفت عن هذه التجربة كتابًا صدَر عام ١٩٧٧ بعنوان "أيام من حياتي" حاولت فيه تصحيح ما كان يبدو للكثيرين ضربًا من التناقض: أن تكون الإنسانة امرأة وفي الوقت نفسه جندية من جنود الله. أن تمارس جهادًا سلميًا للوصول إلى الهدف وهو إقامة دولة إسلامية في سلام.

وهكذا تَحوَّلت زينب إلى أسطورة بالنسبة للفتيات الناشطات اللاتي تمكَّن ـ بعد مرور عقود على معارك زينب ـ من إعادة اكتشاف العمل في المجال السياسي؛ وارتدين ليس فقط الحجاب، ولكن ربما النقاب أيضًا ذلك الرداء

الأسود المتشدد الذي استوردته مصر من الوهّابيين في السعودية عن طريق العدد الهائل من المصريين الذين سافروا للعمل في الرياض والإمارات في السبعينيات والثمانينيات وعادوا إلى أرض الوطن بكم من التقاليد المُكتَسَبة بما فيها النقاب الذي تَعتَبِره أستاذات أمثال سعاد صالح "غير مقبول".

ولكن على الرغم من المعارضة القوية من جانب الدكتورة سعاد وغيرها، يزداد النقاب انتشارًا في القاهرة وفي غزة، فإنه لا يُبعد النساء اللاتي ترتدينه عن المشاركة السياسية وخير مثال على هذا ذلك الجيش الصغير من النساء المنتقبات اللاتي حاولن التصويت في انتخابات مجلس الشعب الأخيرة، اللاتي غمسن أصابعهن ربما من تحت القفازات في الحبر علامة أنهن قمن بالاقتراع. هناك الفلسطينيات العضوات في "الجهاد الإسلامية" أو "حماس" اللاتي ذهبن في حجابهن الأصولي إلى صناديق الاقتراع في يناير ٢٠٠٦ في المشاورات التي رجّحت بفضل أصوات تلك النساء على الأخص كفّة حركة المقاومة الإسلامية التي أسسها الشيخ أحمد ياسين.

باختصار، يمكن ربط الحجاب ـ حتى في أكثر صوره تشددًا ـ في هذه السنوات الأخيرة بمشاركة المرأة في الأنشطة العامة والاجتماعية. وهذه الحقيقة تفهمها جيدًا النساء العلمانيات، لأن هذا التعاون بين الفريقين له جذور في تاريخ مصر كما يُوضِّح لنا الجزء المشترك من مسيرة هدى شعرواي وزينب الغزالي، وكما تُوضِّح اليوم نتائج التلاحم بين الفريق النسائي العلماني والفريق الإسلامي في بعض الدول العربية كما حدث في الكويت العاصمة، في مايو ٢٠٠٥، عندما وافق بارلمان مُكَوَّن كله من نواب رجال على حق الاقتراع للسيدات بعد العديد من المحاولات التي دامت عقود تخللتها مفاجآت ومشاريع قوانين قوبلت بالرفض وجمود كان يبدو كما لو أنه لن ينفك أبدًا. ثم أتت إلى ساحة المعركة الناشطات الإسلاميات اللاتي انضممن إلى العلمانيات منذ سنين في محاولة لتقويض المقاومة غير المباشرة التي يمارسها الرجال والضغط على الأحزاب المعنية (أو على الأقل الجانب الأقل تشددًا منها) كي يعيدوا النظر في موقفهم و يغيروا رأيهم وأخيرًا لتوفير تلك الأغلبية البرلمانية اللازمة لإعطاء السيدات الكويتيات حقوقهن السياسية التي مكّنَتهن من التصويت في صيف ٢٠٠٦ عندما تم تقديم الانتخابات التي لم تفز فيها ولا واحدة من المرشحات اللاتي نزلن الساحة بكثرة.

وإذا كان غياب التمثيل النيابي النسائي في الكويت يمكن أن يُعتَبَر ـ ومما لا شك فيه أنه كذلك ـ يعتبر مُخَيبًا للآمال فيكفي توسيع نطاق الرؤية حتى نلحظ كيف أن تحرير المرأة في شبه الجزيرة يلجأ إلى قنوات أخرى غير السياسية ليُتيح للسيدات فرص مناصب قيادية في مؤسسات ربما على درجة من الأهمية نفسها. إن تحرير المرأة على الطريقة الإماراتية يتحقق بالأحرى من خلال مجالين مهمَّين في بناء المستقبل وهما الاقتصاد والتعليم، وهكذا لم يعد غريبًا دخول السيدات اللاتي لا يُسمَح لهن بالتصويت بشكل مباشر أو غير مباشر في السعودية، في أبرز هيئة تمثل عالم الأعمال الحرة في البلاد، وهي الغرفة التجارية بجدة حيث تم انتخاب ـ في نهاية نوفمبر ٢٠٠٥ ـ اثنتين من سيدات الأعمال في مجلس الإدارة بأكثر من ألف صوت لكلٍّ على حدة: لقد نجحت لما السليمان ونشوى طاهر في كسب تأييد زملائهن الرجال كي تُصبحا جزءًا من مؤسسة مقصورة على النخبة، لأنهما ـ على حد قول من انتخبهما ـ تستحقان ذلك.

وليس غريبًا أن جامعة قطر أصبحت نموذجًا في المنطقة، حيث إن معظم قياداتها من النساء، بدءًا من رئيس الجامعة نفسها إلى واحد من نُوَّابه إلى نصف عمداء الكليات من بينهم عميدة كلية الفنون والعلوم، وهي سهام القرضاوي ابنة أكبر مشايخ التليفزيون يوسف القرضاوي زعيم الأسلَمَة السُنِّية الحديثة بلا منازع. امرأة أيضًا تلك التي تشغل منصب عميدة كلية مهمة مثل كلية الشريعة والدراسات الإسلامية، وهي عائشة يوسف المنَّاع الحاصلة على الدكتوراه من جامعة الأزهر. باختصار، النساء بمساندة الرجال لهن، بعيدًا عن الهيئات السياسية لهن حضور كبير في مؤسسات المجتمعات العربية، التقليدية منها أيضًا فمثلاً في المملكة العربية السعودية يتركز هذا الحضور في عالم العقارات وفي قَطَر في مجال التعليم أي مجال بناء مواطني المستقبل والنساء في مصر بصدد محاولة توسيع حضورهن في الأزهر أي في المكان الذي تُدار فيه فعليا حياة المسلمين اليومية.

حفيدات أم كلثوم

لم يعرف تاريخ الأغنية العربية مطربة مثل أم كلثوم، خاصة ممن أتين بعدها من المطربات اللاتي يغمرن الشاشة الصغيرة بفيديو كليبات جيدة الصُنع ولكن

دون حرفية فنية عالية. لم تكن أم كلثوم "كوكب الشرق" ترتدي الحجاب وكانت واحدة من أكثر السيدات وقارًا في العالم العربي: إنها أم كلثوم، المطربة الأشهر في المنطقة، القمة التي لا يختلف عليها اثنان في الغناء الشرقي، النجمة التي احتشد لجنازتها أكثر من مليون شخص في شوارع القاهرة في فبراير ١٩٧٥، أكثر من عدد الذين شاركوا في تشييع جثمان عبد الناصر. كانت أم كلثوم تمتلك صوتًا مُتَمَيِّزًا، ذا طابعٍ خاص دام سحره ثلاثين عامًا مرت على رحليها.

كل العرب يتذكرون أم كلثوم حتى من وُلِد بعد رحيلها: يعشقها الكثيرون، البعض ـ وهم قليلون حقًا ـ يخشون الكلام عنها، وهي الأسطورة التي لا يجب المساس بها. ولكن الأكيد هو أن أم كلثوم هي صوت العالم العربي: فمثلاً أغنيتها "أنت عمري" هي آخر ما يُعزف في حفل الزفاف الفلسطيني، إذ أنها الوحيدة القادرة على التعبير عن العاطفة الجيَّاشة لحب في بدايته. رنَّات الهواتف المحمولة بأغنية "ألف ليلة" تملأ أثير الشوارع. بينما تدرس نصوص هذه الأغاني لكونها قصائد لبعض أشهر الشعراء العرب المعاصرين.

تأتي أم كلثوم من ثقافة متشددة، كانت في بداياتها تغني أغاني دينية في حفلات الزفاف، أتت إلى القاهرة بصحبة بعض من أقربائها، إذ لم يكن من الممكن آنذاك أن تُترك فتاة بمفردها في مكان غريب. كانت قد عُرفت لصوتها وشخصيتها اللذين أكسباها حب الجمهور واحترامه وصداقة أشخاص ذوي نفوذ. حظت بتقديرهم طيلة حياتها،قدموا لها ميزات وتسهيلات لا يحلم بها آخرون من عالم الفن: فنجد في متحف الروضة الصغير المخصص لأم كلثوم، جوازات سفر دبلوماسية وصورًا لها بجانب رؤساء وملوك وخطابات تحمل توقيع أشخاص ذوي نفوذ وكل المقتنيات التي كانت تخدم حياة نجمة يصعب مقارنتها بأية مطربة أخرى اللهم إلا ماريا كالاس.

لم تكن أم كلثوم ترتدي الحجاب، كانت تفضل ارتداء فساتين طويلة تكشف عن العنق دون أن يفقدها ذلك شعرة من هيبتها. في وقت كانت فيه السيدات العرب في عاصمة كبيرة كالقاهرة تتبعن موضة تشبه الموضة في باريس أو روما أو لندن: كان الحجاب قليلاً جدًا، والجونلات فوق الركبة بكثرة. لقد عرفت "كوكب الشرق" كيف تحتفظ بالاحترام الكامل لدى معجبيها على الرغم من

الشائعات التي تتردد إلى الآن عنها؛ عن أنها كانت عشيقة لرؤساء وشخصيات ذات نفوذ. لم ينسق جمهورها أبدًا وراء مغريات الصحافة وبقيت أم كلثوم القمة كما كانت دائمًا في حياتها وبعد مماتها: ظلت المرأة العربية الأكثر أهمية في عالمنا المعاصر. يسمعها علمانيون وإسلاميون، شيوخ يبكون عهدها ومراهقون عرفوها من حكايات العائلة: ذكريات تحكي عن أمسيات أيام الخميس التي لا تُنسى حينما كان يلتف الجميع حول الراديو للاستماع إلى حفلات أم كلثوم التي كان يذيعها أسطورة أخرى لا تقل أهمية عن أسطورة أم كلثوم: راديو "صوت العرب" الناصري. لا تزال هذه الحفلات تمثل الأسطوانات الأكثر مبيعًا وتمثل نسبة كبيرة من إيرادات شركة الإنتاج المصرية التي مازالت تحتكر حقوق طبع أغاني أم كلثوم.

ومن بعدها ربما كانت المطربة اللبنانية فيروز هي الوحيدة التي استطاعت أن تضاهي بصوتها "صوت مصر" الباقي في الذكرى. إلا أنها لا تقوم منذ عدة عقود إلا بعمل "أغنيات قصيرة"، كتلك التي اشتهرت بها فتيات آخر صيحة: نانسي عجرم، هيفاء وهبي، روبي وكثيرات غيرهن، مشهورات بعدد عمليات التجميل اللاتي يخضعن لها واستعراضهن لأجسادهن أكثر من أصواتهن خلال أغنياتهن المصورة. هؤلاء هن بطلات آخر صيحة في الأغنية العربية الشعبية، صيحة عن حق غير مُشجِّعة من وجهة النظر الموسيقية إلا أنها مهمة ومؤثرة لما لهؤلاء النجمات من تأثير على الذوق العام في المنطقة.

إلى جانب جهود المهتمين بالموسيقى فإن الظاهرة الاجتماعية هي الجانب الأكثر أهمية في هذه الصيحة الأخيرة من الأغاني العربية، إذ أن هذه الأغاني الخفيفة وخاصةً التصوير الخاص بها هي الرباط الذي يُوحِّد بلا استثناء جميع عواصم المنطقة؛ يكفي توجيه الدِش إلى اختصارات معروفة لدى الجمهور: Mtv، Melody ، Mazzika،Rotana أي أهم الشبكات العربية التي تبث الفيديو كليب. وهي في الغالب من كماليات الإمبراطوريات الاقتصادية في المنطقة. هنا تبدأ اللعبة، لعبة قوامها الفيديو كليب ورسائل الـ SMS التي يرسلها المشاهدون إلى الشبكة ولاسيما عن طريق قناة محايدة مثل التليفزيون. لقد أصبحت قنوات الأغاني وسيلة مهمة للوساطة، لأنها (خاصةً في منطقة الخليج حيث العادات

الاجتماعية الأكثر تشددًا) تسمح للجمهور بإرسال رسائل مُشفَّرة يتراوح مضمونها بين ملامح آخر فتاة قابلها الراسل إلى وعود الحب بين الخُطَّاب.

أصبح الفيديو كليب لا غنى عنه بالنسبة للأجيال الشابة من الفتيات ـ سواء متحجبات أم لا ـ فهن على استعداد لمتابعة ليس فقط النجمات من النساء، ولكن أيضًا النجوم الرجال بدءًا من عمرو دياب إلى إيهاب توفيق، مرورًا براغب علامة وكاظم الساهر في أغان مصوَّرة مغالى فيها وغالبًا ما تعرض أسلوب حياة يبعد سنوات ضوئية عن الحياة العادية لغالبية العرب، ولكنه قريب من أسلوب حياة النخبة المرتبطة بعالم السياسة والأعمال الحرة والعائلات الملكية والبرجوازية العليا في المدن، وليس فقط نخبة ملوك البترول التي تظهر كل صيف على شواطئ كوستا زميرالدا، ولكن أيضًا صفوة الأثرياء الذين يعيشون على أطراف القاهرة وعمَّان والدوحة والرياض وفي أحياء بيروت الراقية، لاسيما قبل الحرب المأساوية في صيف ٢٠٠٦.

إنها الصفوة التي تفرد شراعها نحو البحر بالجُونة و"بورتوفينو مصر" التي نشأت من لا شيء بالقرب من الغردقة بناء على رغبة سامح ساويرس شقيق نجيب ساويرس صاحب إمبراطورية الاتصالات العربية "أوراسكوم" التي وصلت إلى إيطاليا بعد شرائها شركة "ويند". الصفوة التي تذهب للتسوق في دبي حيث توجد أحدث محطة إذاعة فضائية، أو جهاز PDA آخر صَيحة أو هواتف المحمول متعددة الكماليات وأرفعها مستوى. أو تلك الصفوة التي تتنزه في السيارات الأوروبية الفخمة المكشوفة، والتي كانت تذهب ـ قبل تفجيرات إسرائيل ـ لتناول المشروبات في بيروت بعد إعادة بنائها من قبل مشروعات Soli-olair. إنه واقع يَبعُد كثيرًا عن واقع الضواحي التي على الرغم من الفقر المتزايد، تعج بأطباق الدش محلية الصنع لاستقبال بث القنوات الفضائية التي تتقيأ كليبات ليلاً نهارًا.

إذا كان الفيديو كليب هي الصيغة العربية لما هو لدينا من عروض نعرفها باسم "هارموني"، وما لها من تأثير، فلابد أيضًا من وجود البطلة التي تمثل حلم الحياة المُنَعَّمَة، وهذه البطلة هي من يصيبها الدور في قائمة نجمات الغناء في الوقت الراهن، اللاتي يتحولن إلى الظاهرة الإعلامية الأكثر انتشارًا. تنحصر

المنافسة في الآونة الأخيرة بين ثلاث فتيات: المصرية روبي والمطربتان الأكثر شُهرة في طابور المغنيات اللبنانيات المعروفات: نانسي عجرم وهيفاء وهبي.

مما لا شك فيه أن روبي هي التي أثارت أخبارها أكبر ضجة، لفترة من الوقت (انقضت الآن بعد نتائج أسطواناتها الأخيرة غير المرضية). روبي شابة جميلة في العشرينيات من عمرها. شعرها أسود كالبترول، طويل ومموج، عيناها مسحوبتان وأنفها صغير. هذه هي المعطيات الواضحة للجمهور، الأكثر أهمية بكثير من صوتها الذي لم يكن أبدًا ذا شأن كبير ومن أغنياتها السريعة التي لا تضيف الكثير لتاريخ الموسيقى العربية. فمع كل كليب جديد لروبي يصبح الجدال مؤكدًا لا محالة. ليس فقط من نب أصحاب الرأي الإسلاميين والمشايخ الذين يشنون هذا الجدال بغض النظر عن عدد معجبات روبي المتحجبات، فالنجمة المصرية الشابة تهاجمها شريحة كبيرة أيضًا من المفكرين الذين لا علاقة لهم بالتيار الديني وتعود جذور انتماءاتهم إلى الاشتراكية العربية في السبعينيات، يتهمون روبي بأنها مثال نمطي للانحدار الثقافي للجمهور العربي.

يهاجم التيار العلماني الثقافة الجماهيرية التي تسمح بتسلل الفكر الاستعماري الغربي من خلال أساليب جذب رفيعة التركيب، وذلك بناء على أن تلك الثقافة أصبحت تمثل الجانب الأكثر تخلفًا من العولمة الذي يجمع بين الجنس والاستهلاك. فهناك في إيماءات روبي الحسية التي تجعل من الرقص الشرقي وسيلتها لجذب الجمهور، وهناك أيضًا حُمّى الاستهلاك في عالم الاتصالات لصالح شبكات المنطقة التي تغمر شبكات المحمول برنّات آخر صيحة أو باستقبال رسائل قصيرة كي تذيعها على قنوات التليفزيون أسفل الشاشة التي تقوم بدور القطب السالب.

وليست هذه الاتهامات التي يوجهها القطاع العلماني للمغنين العرب بالجديدة بالنسبة للغرب، بل إنها من ناحية ما تساعد على فهم بُعد آخر من عالم الأغاني الخفيفة ألا وهو جانب الإدارة المالية، التي أصبحت في السنوات الأخيرة في أيدي عدد من رجال الأعمال في المنطقة أمثال أصحاب أهم شركات الإنتاج بدءًا من "روتانا" وصاحبها الأمير وليد بن طلال (وإمبراطوريته التي تشمل أيضًا فنادق ومراكز ترفيه واستثمارات في الولايات المتحدة) إلى عالم الفن المملوكة

لشبكة "مزّيكا" وصولاً إلى الشركة الأحدث عهدًا تلك المملوكة لعائلة ساويرس. كلها شركات مستعدة للصراع المضني كي تضع اسمها على أفيشات الأغنية التي ستجلب لها دخلاً معتبرًا ليس فقط من عائد آخر أسطوانات صدرت للنجم أو النجمة، ولكن مما هو أكثر من ذلك من كسب هائل تدره شبكات الاتصالات.

وإذا ما نحينا الجوانب الاقتصادية فإن الفيديو كليب أصبح اليوم يحتل النصيب الأكبر من ثقافة الشباب في العالم العربي. ومن ناحية أخرى فإنه يكشف بين طياته ما يحدث في عالم الشباب فيما وراء الزوارق والسيارات الفارهة التي تظهر بكمية كبيرة بين الحين والآخر في هذه الكليبات: فما يثير فضول المُشاهد الغربي هو ما يستشفه من النص: التغيرات الاجتماعية الدقيقة في قصص الأغاني التي كثيرًا ما تكون بطلاتُها من النساء.

وخير مثال على هذا نانسي عجرم: لبنانية، مسيحية أصبحت تُعتبَر النموذج الجديد للفتاة الجميلة. أصبحت نانسي من الشهرة لدرجة أنه تم اختيارها لإعلانات كوكا كولا في العالم العربي. ولا يقتصر تأثيرها في عالم البوب على الملصقات العملاقة في الطرق السريعة، الشوارع والبنايات فقط، بل إنها تستطيع أن تسخر أيضًا من النزعة الذكورية المعهودة بالمجتمع العربي سواء من خلال الهجوم المباشر أو تمثيلها الشخصيات التي تظهر في الفيديو كليبات الخاصة بها مثل مصففة الشعر التي تعيش قصة حب في "ما أدري كيف" وتبوح لأمها التي تتعاطف معها "ثم لصديقها المفضل الشاذ، والذي لا يتم تقديمه بشيء من التهكم وهذه هي المفاجأة، وفي النهاية تساعدها الأم والصديق ويفعلان قصارى جهدهما حتى تنتهي القصة نهاية سعيدة" على حد تعليق هامفري دابيز، المترجم والخبير الكبير في الشئون العربية ومؤلِّف كتاب يدافع فيه دفاعًا مريرًا عن الفيديو كليب الذي يرى فيه تعبيرًا جيدًا عن الثقافة الجماهيرية في المنطقة.

واقع الأمر، إن قصة مصففة الشعر التي تعيش قصة حب وتحكيها لنا نانسي عجرم هي مما يصيب في الصميم بعض السلوكيات التي نجدها أيضًا في مجتمعات الحضر من انتشار زواج الصالونات حتى الآن والتعامل مع المثلية الجنسية على أنها "تابو" يستحيل الحديث عنه علانيةً. يخلُص دابيز إلى أن نانسي " ظريفة، ذكية وفي لطف لديها لمسة تمرد ـ بطريقة خفيفة، وهذا هو

السبب الحقيقي في أنها لا تحوز على إعجاب من ينصبون أنفسهم حُماة الأخلاق لدينا. إنها تستخدم شخصيتها أكثر بكثير من جسدها".

إن الواقع شديد التركيب الذي تعيشه المجتمعات العربية في مرحلة انتقالية يطفو على السطح من خلال مُنتَج يبدو للوهلة الأولى أنه سطحي مثل الفيديو كليب، حيث نجد الشخصية النسائية لا تمثل النمط الغربي ولا نمط المرأة المسلمة الملتزمة المتحجبة. أكثر من ذلك أنه من خلال المواقف السريعة المعروضة في الفيديو تظهر لنا (في الخلفية) لمحات من حياة أكثر ثراءً وأقل جمودًا في خيوط هذا النسيج الاجتماعي المتشدد في ظاهره فقط. إن الفيديو كليبات تتحدث عن مجتمع يزخر بالملامح ولا يهدد هذا المجتمع غياب الفهم الغربي له وحسب، ولكن يهدده أيضًا تقوقع من كان حريٍّ به من العرب أن يقرأ ويفهم جيدًا ديناميكية تغيراته.

هذا وقد بينت الحرب الإسرائيلية اللبنانية التي دارت في صيف ٢٠٠٦ أن ثقافة البوب بالنسبة للعرب ليست بمعزل عن الواقع ومتصورة على الفيديو كليب، السهرات الخيرية وحياة المتع، فكانت بمثابة ورقة عباد الشمس التي قسَّمت النجوم بين من هرب ومن بقي: بين من قاوم ومن لم يتخل عن نجوميته ولم ينزل من برجه العاجي. فعلى سبيل المثال كانت نانسي عجرم من الفنانات اللاتي لم تتركن بيروت مثلما فعلت منافستها هيفاء وهبي في اليوم التالي لبدء الغارات الإسرائيلية. بل والأكثر من ذلك قامت نانسي، في غضون أيام قليلة، بتسجيل أغنيتها الوطنية "لبنان يا حبيب العمر" لرفع الروح المعنوية لأهل بلدها ثم نزلت من ضاحية جونيه التي تعيش فيها لزيارة مراكز الإيواء في أحياء بيروت، مثلما تفعل ملكة تضع نفسها في خدمة شعبها المشرَّد: تترك القصر لتقطع طريق آلام البسطاء وسط الأنقاض والخراب.

وهكذا، وفي تناقض ظاهري فقط، أصبحت نانسي "ملكة الأغنية" سفيرة سياسية كما حدث كثيرًا من ذي قبل في الوسط الفني العربي. إن أم كلثوم بالنسبة للفلسطينيين، حتى بالنسبة لمن وُلِدَ منهم بعد وفاتها، ما زالت هي من تغنت بنضال "الإخوة الفلسطينيين". ذلك ما صنع منها في أوج العصر الناصري مُلهِمة الوطن العربي الكبير. كون أن نانسي مسيحية ولا ترتدي الحجاب كما

كانت تفعل القبطيات المصريات منذ قرن من الزمان، حينما كن يضعن الطرحة فهذا أمر لا يهم كثيرا. والوطنية العربية ولاسيما اللبنانية لم تفرق في أوقات الأزمات بين الأديان.

ولهذا فليس من الغريب ولا من المفاجئ أن تكون هناك مغنية لبنانية مسيحية (من أصل فلسطيني)، تعتبر ـ إلى حدٍ ما ـ وريثة فيروز التي كانت تغنّي للقدس، لبيروت وللدفاع المستميت عن الأمة العربية، لتقوم هي الأخرى بوخز الأنظمة العربية التي تقاعست عن الدفاع عن لبنان أثناء الحرب عليه: كانت "وين الملايين" لجوليا بطرس، عام ٢٠٠١، هي الأغنية التي أصبحت اللحن المميز خلال تلك الحرب لاسيما بسبب الكلمات التي تتساءل في إيقاع مثير للشفقة: "الشعب العربي وين، الشباب العربي وين، الدم العربي وين، الشرف العربي وين، كرامة العرب وين؟ وين؟ وين؟".

وبعيدًا عن مساحيق التجميل بالفيديو كليب وبريقها، وبعد عشرة أيام من بدء الغارات الجوية على لبنان وعدّ الضحايا تحت الأنقاض، ظهرت جوليا بطرس بطلة لعرض سياسي على شاشة الجزيرة، حيث خرجت المطربة اللبنانية الفلسطينية الأصل دون مساحيق في كنزة زرقاء بسيطة وبلوزة بيضاء على الهواء مباشرةً من بيروت المحاصرة، وهي توجه للجماهير والأنظمة العربية التساؤل نفسه التي كانت قد طرحته في "وين الملايين": أين كانت الأنظمة العربية عندما كانت تهبط القنابل على لبنان؟ إن اتهام جوليا بطرس الذي انتشر انتشارًا واسعًا وقد سجلته بعد الحرب في فيديو، أصبح إعلان دخولها في المعترك الفكري والسياسي الذي لم يعارضه إلا أقل القليل. كان هناك واجب أساسي يقوم به الفنانون ـ كما جرت العادة في تاريخ الأمة العربية ـ من خلال العديد من المواقف والاجتماعات والنداءات والمظاهرات. وقد قام بذلك الفنانون العرب حينما ألغوا لمدة أسابيع حفلات وعروض وتوزيع أسطوانات لهم، حزنًا على ما يجري.

بهذه الطريقة السيريالية، وعلى إثر صراعٍ مرير أسماه سكان المنطقة بالحرب العربية الإسرائيلية السادسة، أثبتت ملكات الأغنية الخفيفة الفيديو كليب وجودهن واستعادت دورهن الأصيل الذي سبق وقامت به شقيقاتهن الكبريات أم

كلثوم وفيروز، فعلاوة على عمليات التجميل والأغاني المصوَّرة والأخبار الشخصية، كان الدفاع عن الكرامة العربية هو ما وجَّه سلوكياتهن. يوجد الآن في سماء القومية العربية من نجمات الألفية الثالثة من يكملن المسيرة التي بدأتها نجمات الزمن الجميل.

- ٢ -

أبطال الهلال العظماء

"ليست هناك أبطال في تلك الناحية من العالم التي أعيش فيها" هكذا يقول نايف المطوع رجل الأعمال الكويتي ذو الخمسة والثلاثين ربيعًا. والذي تعلّم في جامعات أمريكية و يعمل الآن في مجال الروايات المصوّرة. من الواضح أنه يتحدث عن أبطال هذه الأيام، حيث إن الأبطال القادرين على مقاومة صدأ الزمان في قلوب العرب غالبًا ما يكونون أبطال زمان العزة، أبطال العصور الذهبية التي مازال أثرها باقيًا في المسلسلات التاريخية التي تملأ ليالي رمضان بعد الإفطار عندما تنغمس الأسرة في مشاهدة المسلسلات. تلك التي تنتج خصيصًا لهذه الفترة الأكثر حميمية وترابطًا عائليًا في السنة الهجرية. ذلك لأن المسلسلات التليفزيونية التي تملأ شهر رمضان، كما كانت تملأ ليالي الإيطاليين في بداية عهدهم بالشاشة الصغيرة في الستينيات. ليست كلها مسلسلات عاطفية فقط، وإنما هي بمثابة الامتداد المباشر لرواة البطولات. تحكي العصر الذهبي الذي تغنى به الرواة. زمن الأساطير الخالدة: مثل صلاح الدين الأسطورة الخالدة التي لا تصدأ. صلاح الدين في عيون الإيطاليين هو رجلٌ نبيل كما وصلت إليهم صورته منذ العصور الوسطى ورسخت هذه الصورة ما كتبه دانتي وبوكّاتشو إلى أن تحولت في هذا العصر الحديث إلى ملامح شرسة في الصور التي رسمها أنجيلو بيوليتّو فضلاً عن حكاية عرائس صقلية طبعًا. في المسلسلات الرمضانية التي تقدم صلاح الدين وهو يحارب الصليبيين، يترك اللّبس الإيطالي (والأوروبي) في تصوير صلاح الدين المجال لتصويره بطلاً جَسورًا لا يُقهر، ولكنه كريمٌ أيضًا وعطوف.

في رمضان ٢٠٠١، بعد الحادي عشر من سبتمبر بقليل، كان مسلسل "صلاح الدين الأيوبي" للمخرج السوري حاتم علي، وكان من أكثر المسلسلات مشاهدة وحصدًا للجوائز في ذلك العام. وعن المحارب الكردي الأسطوري، سيد دمشق والقاهرة، القائد الذي استعاد القدس دون قطرة دم واحدة، كان للمخرج الكبير يوسف شاهين تجربة سينمائية .وودّ أيضًا أن يقوم بهذه التجربة مخرج آخر كبير وهو مصطفى العقاد، مخرج "أسد الصحراء" الذي ظل يبحث طيلة عشرين عامًا عن تمويل فيلم عن صلاح الدين نجح خلالها في إقناع شون كونري بلعب دور القائد الذي هزم الصليبيين. أراد العقاد، مثل نايف المطوع، أن يكونَ للعرب بطلاً ووجد في عظمة صلاح الدين الأسطورية وسيلة لإيقاظ العقول. إذ قال في مقابلة له في ٢٠٠٤ إن حال العرب الآن يشبه حالهم آنذاك: "كانوا قلّة، منقسمين فيما بينهم يقاتلون بعضهم بعضًا. كان صلاح الدين هو من وحّدهم وطهّر أنظمتهم وهزم الصليبيين." هكذا قال مصطفى العقاد دون أن يخشى أن يُساء فهمه. مصطفى العقاد الذي اختار أن يعيش في الولايات المتحدة كان مهاجرًا اندمج تمامًا في المجتمع الجديد دون أن ينسى أنه عربي.

على النقيض من صلاح الدين فإن الذين أتوا بعده لم يكونوا إلا صورًا باهتة أو لنقل شخصيات نالت حظها من التقدير والتكريم، ولكنها لم تحظ بتلك الهالة الأسطورية مثله. أقرب مثال يتبادر إلى ذهني هو جمال عبد الناصر. ربما كان الشخصية العربية الأكثر شعبية في القرن العشرين، كما بعث غيابه على أكبر حسرة على فقدانه في مطلع القرن الحادي والعشرين الصعب هذا، ولكنه ظلّ في عداد الرجال ولم يتحول مثل أسطورة صلاح الدين إلى أسطورة تمتد إلى الآن.

ولكن حتى صلاح الدين لا يستطيع منافسة "سوبر أبطال" الأقلام في قلوب الأطفال والصبية العرب أو الأبطال ذوي القوى الخارقة الذين يملؤون القصص المصورة والأجهزة الذكية المحمولة، الذين يحبهم الأطفال في نيويورك كما في فاس أمثال الرجل العنكبوت، هولك، هو - چي - هو وپوكمان. الرجل التنين والرجل الوطواط. إن أبطال الأطفال العرب هم أنفسهم أبطال الأطفال الإيطاليين والأمريكان واليابانيين، لأن العولمة وصلت أيضًا إلى الروايات المصورة وأبطالها الذين تحولوا فيما بعد إلى شخصيات كرتون مشهورة عالميًا، بل إن

الشخصيات أصبحت جزءًا لا يتجزأ في الحصول على ثقة العملاء في الماركات العالمية التي لا تشعرك بالغربة أينما كنت. ومع ذلك ففي عصرنا هذا لا تكفي السوبر أبطال الأمريكية واليابانية، ولاسيما في مرحلة بهذه الصعوبة من العلاقات بين العرب والغرب. سوبرمان لا يكفي. لا بد إذن من بديل لصلاح الدين. هناك حاجة إلى شخصية تجسد قيمًا وثقافة وذوقًا وقوى خارقة يشعر العرب أنها خاصة بهم، وليست كالأجهزة الذكية التي تهبط عليهم من وراء البحر المتوسط أو ـ في أحيان كثيرة ـ من وراء الأطلنطي.

نايف المطوع هو خير تجسيد لهذه الثنائية التي تعيش بداخله، والتي يشاركه فيها العديد من الشباب العربي. دراسته كلها أمريكية بدءًا من الليسانس إلى الماجستير في إدارة الأعمال إلى الدكتوراه في علم النفس. قيمة عمله لا يستهان بها وقدرته يُحسد عليها، إذ أن شركته "تشكيل" حظت بحقوق توزيع سوبر أبطال الـ Marvel والـ Dc في العالم العربي. يكفينا النظر إلى قائمة واحدة لندرك حجم عمل الشركة: Marvel تعني الرجل العنكبوت، Hulk، العظماء الأربعة و x-Men. وشخصيات الـ Dc ليست أقل من هذا فقوائمها تحوي Superman، Batman و Looney Tunes.

إلا أن نايف لا يكتفي بالرجل العنكبوت وأعوانه حتى وإن كان يهتم بتوضيح أن أبطال الـ Marvel لا يتعارضون مع الإسلام. إن نايف ـ ويفوقه في ذلك أبناؤه ـ بحاجة أيضًا إلى غير هذه الشخصيات ليتفاعل معها خيالهم. إنهم بحاجة إلى بطل عربي صرف أو، كما يوضح رجل الأعمال الكويتي الشاب، بطل إسلامي. وهذا التحديد ليس بالهين، لأن نايف يفكر في جمهور يبلغ عدده حوالي المليار ومائتي مليون شخص أي خُمس سكان العالم تقريبًا، ما بين العالم العربي (الذي يمثل بدوره "فقط" سدس المسلمين في العالم) وجنوب شرق آسيا، بتفريعاته في إفريقيا والشتات الأوروأمريكي.

"لماذا إذن لا نقوم بخلق "سوبر" أبطال مسلمين لأطفالنا العرب؟ "سوبر" أبطال يمثلون النمط الإسلامي؟" يتساءل نايف الذي يتحدث الأمريكية بطلاقة وبإيقاع سريع لدرجة تذكّر بمَشاهد Tom & Jerry. ويستطرد رجل الأعمال الشاب "لو نظرتي، سيادتك، إلى الروايات المصوَّرة حتى عام ١٩٩٩ فستجدينها تنقسم إلى

مجموعتين كبيرتين: مجموعة شمال أمريكا ومجموعة اليابان. يعتمد النوع الأول منها على نمط التراث اليهودي ـ المسيحي والإغريقي. هؤلاء "السوبر" أبطال من أمثالSuperman و Batman و Spiderman يتامى مثل العديد من الأنبياء، ومثل الأنبياء أيضًا وصلت إليهم رسالة توضح لهم مُهِمَّتهم. من كوكب كريبتون الذي يأتي منه Superman إلى لدغة العنكبوت للرجل العنكبوت. وعلى نموذج الله الذي خلق العالم في ستة أيام ثم استراح اليوم السابع، هناك دائمًا شيءٌ ما ينقص "سوبر" أبطال الغرب." رغم كل ما لهم من صفات. حقًا، فالبطل الغربي له دائمًا نقطة ضعف تهدد بشكل مستمر عدم قدرة الآخرين على قهره: بدءًا من كعب أخيليس وانتهاء بشعر "شمشون". ويكمل المطوع: "أما بالنسبة للأبطال اليابانيين فالأمر مختلف: لننظر مثلاً إلى Pokemon أو Digimon فالأول مُكون من ثلاثمائة شخصية كلٌّ منهم يحمل صفة واحدة فقط: الماء، الكهرباء، الأرض، النار. وحسب الحاجة يُقرر بأي واحدة فقط من هذه الـ "قوى" يقاتل. فهو يقوم في واقع الأمر على مفهوم الأسرة، وهو مفهوم أكثر آسيوية.".

خلاصة الكلام واضحة. تكاد تكون معروفة. حان الوقت لابتكار "سوبر" بطل مسلم. ولكن كيف؟ يوضح نايف: "بالنسبة لنا، القدرة لله والله له من الصفات تسع وتسعون فهو الحكم، القوي، ... وهكذا." من هنا إذن تُولد فكرة ابتكار لا بطلاً واحدًا، وإنما تسعة وتسعون بعدد أسماء وصفات الله. "بإمكان أبطالنا أن يكونوا حكماء وأقوياء مع الآخرين، ولكن لن يكونوا أبدًا الأكثر حكمة والأكثر قوة مثلما هو الله.". إن قصة التسعة وتسعين بطلاً، التي خرج منها أول عينة في صيف ٢٠٠٦ معقدة إلى حد كبير. ومع ذلك هؤلاء التسعة والتسعون يتميزون بأنهم في جميع أنحاء العالمٍ أو لنقل في تسعة وتسعين بلدًا وبأن نِصفهم من الرجال والنصف الآخر من النساء، البعض منهن فقط مُتحجبات. إلا أن القصة تضرب بجذورها في قلب العالم العربي وفي ذروة العصر الذهبي للإسلام في الشرق الأوسط وقعت في سنة ١٢٥٨ عندما غزا هولاكو، حفيد جنكيزخان، العراق وجلب الدمار لبغداد ومكتبتها الثمينة وقَتَل ثمانية آلاف من سكانها، إن الربط (لعله غير مقصود؟) في آلية البداية اللازمة لـ "شحذ" "سوبر" أبطال المطوع والأحداث التي حُفِرَت في الوعي الجماعي العربي بعد الحادي عشر من سبتمبر واضح: في تاريخ بغداد، التهمت الحرائق المكتبة مرتين، مرة على يد

قوات هولاكو، ومرة أخرى على يد المخربين الذين تركت لهم الفرصة لتدمير وزارات، وهيئات، ومستشفيات ومدارس لاسيما في الأسبوع الأول من وصول مارينز بوش الابن إلى العاصمة العراقية الذين جاءوا لـ "تحرير" (لكن العرب يفضلون استخدام تعبيرين آخرين، وهما غزو واحتلال) العراق من صدام حسين.

في القصة التي ألّفها نايف، ينجح أمين المكتبة في إنقاذ المعرفة المتراكمة على مر العصور في مكتبة بغداد بتجميع تسعة وتسعين حجرًا كريمًا وإخفائهم بعد ذلك في النهر ليُخرجهم من المدينة في ثلاثة حوامل للمصاحف إلى الأندلس، وتظل الأحجار مختبئة هناك لمدة مائة وخمسين عامًا، وفي عام ١٤٩٢ يصل ثلاثة وثلاثون منها إلى الأمريكتين مع حملة كولومبو بينما تصل ثلاثة وثلاثون أخرى إلى آسيا عبر طريق الحرير، أمّا الثلاثة والثلاثون الأخيرة فتبقى متناثرة بين أوروبا والشرق الأوسط وإفريقيا. في ٢٠٠٦ يحاول أستاذ من باريس أن يبحث عن هذه الأحجار. وهاجر "السوبر" أبطال، يكتسبون عبر طرق غير متوقعة قواهم الخارقة. وخير مثال لهم "جبّار" السعودي الذي يقفز على لغم وبدلاً من أن يلقى مصرعه يصطدم بالجوهرة التي تتغلل بداخله وتُحَوّله حقًا إلى جبّار أي "الرجل القوي".

رغم محاولة نايف التخلص من الشكل الأمريكي وابتكار مُنتج يستسيغه المسلمون إلا أن ثقافة نايف في مجال القصص المصورة مشبعة بالمدرسة الأمريكية، ويتضح ذلك على وجه الخصوص في حركات شخصياته. أيمن قنديل متأثر آخر بالمدرسة الأمريكية، إن لم يكن لسببٍ آخر إلا لكونه قارئًا وعاشقًا لمغامرات الرجل الوطواط، وهو في سن نايف نفسها تقريبًا؛ أيمن يحمل جواز سفر مصري وآخر أمريكي ويدرّس الاقتصاد في جامعة القاهرة. كان أيمن أول مَن فكّر، في السنوات الأخيرة، في ابتكار "سوبر" بطل ليس مصنوعًا في أمريكا. وبالفعل ابتكر أربعة "سوبر" أبطال وقام بطباعة مغامراتهم وتوزيعها من خلال شركته الصغيرة التي أسسها في القاهرة الـ AK Comics المكونة بأكملها من عناصر شابّة.

وكما هو الحال بالنسبة للتسعة والتسعين بطلاً الذين صممهم المطوع، فالتأثير الأمريكي على "العظماء الأربعة" جَلِي، ولاسيما في الحركات التي تم تصميمهم

بها وهم "زين"، و "راكان"، و "آية" و"جليلة" على خلفيات ذات أجواء قاتمة مثل Gothman City التي يعيش فيها الرجل الوطواط الذي يحبه قنديل كثيرًا. حقيقة ملامح الشخصيات لا علاقة لها بالعرب، فهي تحديدًا برازيلية. وذلك لأن المصممون يؤدّون عملهم في الناحية الأخرى من المحيط ثم يرسلونه إلى القاهرة. حيث يتعين على الـ AK Comics سد النقص الموجود في صناعة القصص المصورة في مصر، وذلك بعقد دورات تدريبية سريعة في مكاتبها في حي المهندسين، وهو أحد الأحياء السكنية الراقية في القاهرة.

"العظماء الأربعة" الذين أطلقهم قنديل يتميزون بالقوة والتفاؤل والطبيعة، ولهم بالطبع قدرات خاصة وهم في صراع دائم مع الشر. ومثل أبناء عمومتهم التسعة والتسعين الكويتيين من ابتكار نايف المطوع، فإن هؤلاء الأربعة هم النقيض من نمط الشخص العربي السلبي، الشائع الآن في الغرب. إنهم على العكس يحققون على طريقتهم الخاصة، حالة التمرد على الشعور بالدونية الذي يُسيطر على شباب الشرق الأوسط وشمال إفريقيا. الشباب الذين يحبون بريق الغرب بدءًا من السيارات الفيراري إلى منتجات Giorgio Armani مرورًا بمنتجات الـ Nike وأسطورة فرانشيسكو توتّي. لكنهم ملّوا في الوقت ذاته من ضرورة إظهار أنهم ليسوا من سكان الكهوف ولا من بدو الصحراء فحتى كثيرًا من البدو الرحل صاروا مستقرين، بكل ما جلبه استقرارهم هذا من حسن وسيئ.

ربما كانت الآراء الأكثر انتقادًا ترى في مغامرتي المطوع وقنديل اتجاهًا نحو الاكتفاء الذاتي، ضربًا من الانعزال الثقافي الذي يمتص النماذج الغربية ويحولها إلى أشياء عربية أو إسلامية، كما هو الحال بالنسبة للتسعة والتسعين، أبطال الكويتي. أما النقاد الأكثر تأييدًا لتجربتي نايف والمطوع فيعتبرونهما مرحلة انتقالية تجاه ثقافة أصيلة أكثر رسوخًا. أما نايف والمطوع فلا يريان فيما يفعلانه تجارة محضة.

يقول مروان النشار المدير الشاب لشركة AK Comics: "إن ما نقوم به يعتبر ـ إلى حد ما ـ مهمة وطنية: يجب أن نعيد شيئًا إلى مجتمعنا، إلى بلادنا". يبلغ مروان من العمر واحدًا وثلاثين عامًا ويحمل جواز سفر مصري وآخر كندي. كان بإمكانه أن يهاجر كما يحلم كثير من أقرانه من الشباب في القاهرة أو الدار

البيضاء. كما أن أيمن قنديل كان يستطيع الهجرة أيضًا إلا أن الاثنين بقيا في القاهرة مثل غيرهم من رجال الأعمال الشباب الذين تلقوا تعليمهم في مدارس البزنس الأمريكية.

إن تجربة مطوع وقنديل هي الوجه المتآمرك للقصص المصورة في العالم العربي، حيث ينهل الأطفال والشباب من نفس المنبع الذي ينهل منه أقرانهم في الغرب من القصص المصورة المُعَولَمَة. إن أطباق الاستقبال التليفزيوني المنتشرة أكثر منها في إيطاليا تُوصل شبكة الرسوم المتحركة إلى أفقر البيوت، وذلك بفضل سوق البطاقات المقلدة الراتجة. تفضل برامج شبكات التليفزيون العربية الرسوم المتحركة الأمريكية الصنع أو اليابانية وأسطوانات الفيديو الأكثر مبيعًا. هي أفلام ديزني الكلاسيكية المقلدة أيضًا مثلها مثل شرائط Pokeman، Drag-on Ball و Power Rangers التي تجدها في كل محلات الفيديو كاسيت بجانب أسطوانات فيروز وابن بلدها مارسيل خليفة.

وحتى في المملكة العربية السعودية أصبح الآن من الممكن مشاهدة على الملأ ما كان يشاهده الأطفال داخل منازلهم. فمنذ ٢٠٠٥ يمكن على الأقل مشاهدة الرسوم المتحركة في الأماكن العامة، ولكن لا يمكن بعد مشاهدة الأفلام التي يذهب السعوديون لمشاهدتها في البحرين في عطلة نهاية الأسبوع. كانت الرسوم المتحركة ممنوعة من العرض في مملكة آل سعود، حيث كانت الوهَّابية تمنع أي تصوير للأشخاص، وذلك في تعميم متشدد يتجاوز تحريم تصوير الرسول وكل الأنبياء الذين ذكروا في القرآن.

ولكن التأثير الأمريكي الذي كثيرًا ما يوصف بأنه إمبريالي، والذي يصل إلى جميع العائلات العربية دون تمييز طبقي، لا يهيمن على الساحة العربية كلها، إذ يصمد أمام هذا التأثير بصفة خاصة تلك الرسوم المتحركة المُوجَّه لا للأطفال والصغار، وإنما لأشقائهم الكبار.

ريشة المعارضين

لازالت رسوم الكاريكاتير تحتفظ بمكانتها رغم الصعوبات الكثيرة التي تواجهها منذ أكثر من خمسين عامًا، ولازالت قادرة على الصمود طالما أتاح

التمويل ذلك، وطالما سمحت به الرقابة. صحف الكاريكاتير. يعرف عالم الكاريكاتير العربي حدودًا تتطابق أحيانًا مع الحدود التي رسمها المستعمر قديمًا عندما تقاسم الشرق الأوسط وشمال إفريقيا، وكما هو متوقع فإن رسامي الكاريكاتير الفرنسيين كانوا من أثر على أسلوب فناني الكاريكاتير في الجزائر والمغرب وحتى بعد خروج الفرنسيين (الدموي بشكلٍ أو بآخر) من المغرب. ويبقى غير متوقع أن تبقى العلاقات بين فرنسا ومصمِّمي الكاريكاتير في شمال إفريقيا وثيقة حتى يومنا هذا، ذلك ما توضحه لنا أحداث الحرب الأهلية المؤلمة التي عانت من ويلاتها الجزائر في التسعينيات، عندما قام العديد من فنّاني الكاريكاتير، بعد تهديدات الأصوليين الإسلاميين لهم باللجوء إلى فرنسا كي تنقذهم من المصير المحتوم الذي لقيه ثلاثة على الأقل من زملائهم الكبار أمثال إبراهيم جورّوني، وسعيد مقبل ودوربان الذين اغتيلوا بأبشع الطرق.

من بين الكثيرين الذين قرروا الفرار إلى فرنسا، هناك عدد من أكبر فنّاني الكاريكاتير الجزائريين، وعلى رأسهم سيدي علي ميلوّاه الذي حذا حذوه آخرون أمثال عساري، وجيبس وسليم، الفنان الأشهر، صاحب شخصية الكرتون "بوزيد"، الشهيرة في الجزائر، وهو أحد سكان قرية "قيد بسبس" حيث يعيش تسعة عشر شخصًا، ثمانية عشر منهم فقراء والغني الوحيد متطرف، وهو "سيد صادق" الرجل الفاسد الذي يريد أن يسلب "بوزيد" حبيبته "زينة". إن شخصية سليم تمثل الجانب العلماني من المجتمع الجزائري وجزءًا من التيار الاشتراكي الذي غمر البلاد في أول سنوات الاستقلال. ومن هذه المدرسة نهل أيضًا الجيل التالي لهؤلاء مثل علي ديليم المولود عام ١٩٦٧ من أصلٍ قبلي، هدده الإسلاميون وتم اتهامه أكثر من مرة بالتشهير بسبب الكاريكاتير الذي قام بنشره في الصفحة الأخيرة من الصحيفة الناطقة بالفرنسية Liberté، كانت انتقاداته ضد السلطة شديدة لاذعة لدرجة أنه أصبح المثال الجزائري لحرية التعبير بفن الكاريكاتير. ليس من قبيل الصدفة أن يطلق اسم "تعديلات ديليم" على القواعد الرقابية التي أرساها البرلمان الجزائري في ٢٠٠١ كي يضع حدودًا لعمل الصحافيين ومصمِّمي الكاريكاتير ـ بعد انتهاء الحرب الأهلية وتنصيب عبد العزيز بوتفليقة ـ وكانت هذه التعديلات هي ذاتها التي حُكِم بموجبها على ديليم في ٢٠٠٢ و ٢٠٠٣ بغرامات مالية وأشهُر سجن.

لازالت الجزائر إذن تحمل راية الكاريكاتير السياسي في العالم العربي إلى اليوم، دون أن تَحيد عن الطريق التي بدأتها حتى قبل إعلان الاستقلال في ١٩٦٢. ولقد أثَّر الكاريكاتير السياسي الجزائري ببعض من ملامحه على فناني المغرب، وخير دليل على ذلك تجارب "كاريكاتير من وراء القضبان" المتفردة التي تحكي القمع الشديد للمعارضة الموجهة ضد الملك الحسن الثاني من خلال رسوم فنانين قضوا أعوامًا كثيرة في سجون النظام، أمثال عبد العزيز مُريد ومحمد نادراني.

لقد قضى مُريد في السجن عشر سنوات بالتحديد، نجح خلالها في عمل رسوم كاريكاتيرية تشجب انتهاك حقوق الإنسان وسنوات العنف في الرباط وقام بجمعها بعد ذلك في جزأين "يحسنون تجويع الفئران" و"مصفف الشعر"، أما محمد نادراني فقضى تسع سنوات في مُعتَقل سرِّي وتسع سنوات أخرى في السبعينيات. كان نادراني يبلغ من العمر اثنين وعشرين عامًا عندما أُلقي القبض عليه لأنه يساري متطرف وكان لايزال طالبًا. وضعوه عامًا ونصف العام في عزلة تامة، وكانت تجربة سردها بعد ذلك في رواية "توابيت المجمَّع" المصورة المنشورة في الدار البيضاء في إبريل ٢٠٠٥" .المجمَّع" هو السجن السرِّي في الرباط حيث كان يتم اعتقال رجال المعارضة. إن قص السياسة بالصور كما وردت لدى مُريد ونادراني أصبحت طريقة فريدة في إعادة التفكير في الفترة الأكثر صعوبة في تاريخ الاستقلال المغربي. والتي بدأ الملك الحسن الثاني نفسه في التحرك لعمل شيء حيالها وتابع ابنه الملك محمد السادس خطاه لتسويتها. إلا أن الضحايا وأسرهم يقولون إن ما فعله الملك لم يكن كافيًا، وينتقدون الخطة الموضوعة لتجاوز هذه الفترة، واتهموا الرباط بأنها لم تتخذ مسارًا يرضي الجميع على المستوى القومي لتحقيق الوفاق، مثلما حدث في جنوب إفريقيا.

على أية حال، التجارب الجزائرية والمغربية التي تحدثنا عنها تحكي عما هو أكثر بكثير من مجرد تاريخ قومي. إنها تشير إلى أين كانت ومازالت تتجه بوصلة الكاريكاتير في الوطن العربي. إنها لا تعول على الروايات المصورة التي تتحول إلى أفلام وحلقات تليفزيونية أو على ابتكار أساطير شعبية على غرار Tex و Dylan dog أو"مانجو" وأبطال اليانكي بقدر ما ترتكز على فن الكاريكاتير في

حد ذاته وعلى الإدانة والتهكم السياسي. لقد ظل الكاريكاتير يمثل بالنسبة للعرب القناة التي يتم من خلالها تفريغ غضب الشارع والحنق الشعبي تجاه العدو الخارجي. وأول الأعداء إسرائيل وأمريكا. كانت رسوم الكاريكاتير في الصحف العربية، قبل ظهور "الجزيرة"، هي الوسيلة لجمع التأييد العربي للقضية الفلسطينية، وربما ليس من محض الصدفة أن يكون من أبناء فلسطين مجموعة من أفضل فناني الكاريكاتير العرب الذين تستمر ذكراهم حتى اليوم. يكفي ذكر اسم ناجي العلي الذي يعتبره البعض أفضل فنان كاريكاتير في العالم العربي. إنه صاحب شخصية "حنظلة" (مرارة)[١]، الطفل الفلسطيني اللاجئ الذي لم ير أحد وجهه الذي يديره للناحية الأخرى ويداه متشابكتان وراء ظهره ليشاهد ما يحدث في وطنه دون أن يكون بإمكانه أن يفعل شيئًا. عُرف ناجي العلي بريشته اللاذعة التي كانت تتناول أيضًا - إن لم يكن على الأخص - حكام المنطقة. قُتل ناجي في لندن في يونيو ١٩٨٧ قبل الانتفاضة الأولى، برصاصة في وجهه صوبها إليه شخصٌ مجهول أمام مكتبه في تشيلسي. ولم يتم حتى الآن العثور على الجاني في هذا الاغتيال الذي يعتبر اغتيالاً سياسيًا. إلا أن "حنظلة" استمر حتى بعد موت مبدعه، كما أنه ما زال ينظر إلى ما يحدث في وطنه مع عجزه عن فعل أي شيء.

وفي أرض ناجي العلي ولد آخرون من رسامي الكاريكاتير الفلسطينيين يغلب على أعمالهم الحزن والمرارة، ولكن ربما كانت خليفته الحقيقية سيدة وهي أُميَّة جحا الشهيرة بأُميَّة. إنها رسامة كاريكاتير شابة من غزة، وهي أشهر مصممة كاريكاتير من دمشق إلى الدار البيضاء، تحبها الجماهير العربية بقدر ما تكرهها الجماهير الإسرائيلية. إن اسم أمية هو الذي يربطها بناجي العلي، فاسمها هو مفتاح الدخول إلى عالم اللاجئين الفلسطينيين وإلى حياتها هي أيضًا باعتبارها ابنة أحد هؤلاء اللاجئين. تتسم رسوم أمية بالظرف، ألوان الباستيل التي تفضلها، ولكنها في الوقت نفسه لاذعة، قاسية المضمون، كما كانت الحياة قاسية على أمية، إذ قام الجيش الإسرائيلي بقتل زوجها رامي سعد الناشط في حماس في ٢٠٠٣، وأصبحت أرملة وعمرها واحد وثلاثون ربيعًا فقط، وتعول طفلة لم

(١) لقد اتبعت المؤلفة في النص الأصلي الكلمة العربية بالمعنى الإيطالي لها ألا وهو مرارة.

تبلغ سوى عامها الأول. وتزوجت أمية ثانية، أكملت دراستها الجامعية، وعملت كمدرسة رياضيات قبل احتراف الكاريكاتير. غير أن الزواج والأعباء الأسرية والتزام أمية الدقيق بتعاليم الدين الإسلامي أبدًا لم يبعدها عن ريشتها، فهي مستمرة في تصميم الرسوم المعارضة مثلها مثل زملاء لها يرسمون عن مأساة العراق ومن بعدها مأساة لبنان.

إن رسوم الكاريكاتير كانت ولا تزال اليوم، مثلما كانت في زمن ناجي العلي الوسيلة الأقرب للناس، وهي وسيلة ساخرة ومحببة في الوقت ذاته للتعبير عن رأي الشارع العربي في السياسة الدولية وفي الأنظمة الداخلية. كان ذلك طبعًا قبل أن تولد القنوات الفضائية، والتي أظهرت الغضب العام من خلال البرامج الحوارية والمكالمات "على الهواء" ولكنها، بدلاً من أن تلغي دور الكاريكاتير، ساهمت في زيادة نشره ببث رسوم فناني الكاريكاتير الأكثر شهرة ولذوعة على شاشات التليفزيون في توسيع لمساحة التهكم لم يكن يخطر على بال منذ سنوات قليلة مضت. إن رسوم الكاريكاتير التي تُعرض على شاشات "الجزيرة" تغلق الدائرة: إن الغضب العربي يستخدم في واقع الأمر نفس الأدوات، إلا أنه يبحث فقط عن قنوات جديدة حتى يكون أوسع انتشارًا ووصولاً للجماهير.

خلاص العرب فى الفن

إذا كانت رسوم الكاريكاتير تعبر عن الكثير من فكر العامة من العرب، فلعل السبب في ذلك هو أن وسائل الإعلام التقليدية الأخرى لا تصل أحيانًا لذلك. في بلاد تزداد فيها الفجوة بين المجتمع والأنظمة بشكلٍ مضطرد. ولا يطلق الفنانونً أصوات المعاناة فقط، وإنما يعبرون عن التغيرات الثقافية أيضًا لأنه كما يبدو من الأحداث في السنوات الأخيرة. سيأتي خلاص العرب تحديدًا على أيدي الفنانين. هذا ما صرح به بالفعل الكاتب الأردني إبراهيم نصرالله في أحد أبياته: "إذا خَسِرَ الشعراء لن يكسب العالم". والدليل على هذا أيضًا يتمثل أيضًا في النجاح الكبير لـ "عودة" أكبر شاعر عامية مصري وهو أحمد فؤاد نجم. المعروف بمعارضته اللاذعة الفاضحة. نجح نجم دائمًا في استعداء السلطة من جمال عبد الناصر إلى أنور السادات اللذين اعتقلاه أكثر من مرة إلى حسني مبارك الذي استخدم تجاهه أسلوبًا أكثر مرونة، وليس لأن نجم ـ المولود في ١٩٢٩ ـ قد

استخدم تجاهه أسلوبًا أكثر ليونة من الذي استخدمه مع سابقيه، ولكنه على العكس، تخلى في السنوات الأخيرة عن جلسته في شرفة منزله المطلة على حي المقطم الشعبي في القاهرة كي ينزل إلى الشارع من جديد. حتى إنه ـ في شيء من تقبله الحداثة ـ ظهر مؤخرًا على شاشات الفضائيات العربية.

والسبب واضح؛ إن نجم يمثل التمرد على الأزْمة، يمثل احتياج المصريين (في الخارج أيضًا) إلى دفعة إفاقة لاستعادة حريتهم وكرامتهم. يمثل نجم التمرد على الفساد، على اللاديموقراطية لحماية ذلك الشعب البسيط الذي تحدث عنه على مر سنوات طويلة ـ منذ ١٩٢٦ ـ مع الشيخ إمام، المطرب الكفيف. ينظر نجم من شرفته من قلب الحي الذي يعيش فيه، بجوار منطقة "الزبّالين" حيث يعيش مجتمع صغير من الأقباط، وسط القمامة التي يعملون بجمعها وإعادة تصنيعها. من هناك يطل نجم على شعب القاهرة الذي يزداد فقرًا يومًا بعد يوم، ينظر إلى العالم وسط أصدقائه المستعدين دائمًا لوضع المقاعد البلاستيكية على شكل دائرة لاحتساء القهوة والاستماع إلى شاعرهم، يغمره حب آخر زوجاته وأبنائه. وأخيرًا عاد نجم في ربيع ٢٠٠٥ العربي إلى الساحة من جديد بجرأته المعهودة.

وكما هو الحال بالنسبة لمؤلفي القصص المصورة والشعراء، فالالتزام ذاته يشمل المخرجين أيضًا. هل سينجح المخرجون في إخراج العرب من التنميط وعدم رؤيتنا لهم؟ ربما. وربما سيكون المخرجون أنفسهم هم من يحكون للعرب ما هو كامن تحت رماد مجتمعات تعج بشباب تعصف بهم رياح أوقات عصيبة. ربما استطاعوا ـ إحقاقًا للحق هم يفعلون ذلك بالفعل ـ أن يصفوا ما يكمن وراء المفاهيم المُلتَبَسَة والمشاعر المُنتَهكة والتواصل المفقود. عالم بأكمله لا تتسنى رؤيته على ما هو متاح من صفحات الجرائد أو شاشات التليفزيون.

بدأت الظاهرة تحدث دويًا ووصلت إلى العالمية مع فيلم "Paradise Now- الجنة الآن" للمخرج الفلسطيني هاني أبو أسد الذي حصد جميع جوائز عام ٢٠٠٥ بما فيها الـ Golden Globe Award والترشيح لجائزة أفضل فيلم أجنبي لـ "أوسكار" ٢٠٠٦. بعد سنوات من الأفلام الفلسطينية التي لا تتعدى حدود الدعاية، أحدث أبو أسد طفرة في سينما بلاده بإخراج فيلم جدير بأن يوصف، قبل كل شيء، بأنه فني. بعيدًا عن مستوى الهواة وعن الأساليب اللاذعة، تبرز

قيمة Paradise Now في تناول موضوع غاية في الصعوبة ـ قصة شابين قد يصبحان انتحاريين ـ وذلك في أسلوب هادئ ومرهف الحس. نجح الفيلم ـ كما لم ينجح الكثيرون ـ في وصف أرض فلسطين، ليجعل منها ومن نابلس تحديدًا مسرحًا للأحداث. نابلس هي إحدى مدن الضفة الغربية الأكثر مشاركةً في الانتفاضة الثانية التي هزّت الأراضي الفلسطينية بين ٢٠٠٠ و ٢٠٠٥ .هذه الانتفاضة هي "وليمة الحجارة"، ذلك "الشيء" الذي ابتلعه وهضمه البطلان الشابان سيد وخالد (قاما بدورهما ببراعة قيس ناشف وعلي سليمان) اللذان تربطهما علاقة صداقة قديمة ويقرران أن يكونا انتحاريين. يحكي Paradise Now الثماني وأربعين ساعة (الأخيرة بالنسبة لأحد البطلين) بحيادية تتسم بالشدة، دون الإغراق في استدرار عطف المشاهد وفي الوقت ذاته، دون إطلاق أي نوع من أنواع الإدانة. الفيلم تسجيل دون تكلف للقصة المأساوية سواءً في الطقوس التي تم تناولها بشيء من السخرية غير المألوفة أم في تنفجّر المشاعر في داخل أحد الشابين، إلا أن هناك خطأ واحدًا يجمع بين المَشاهد والنظرات وحوار هذا الفيلم الذي يستحق المشاهدة: إنها المهانة. هكذا من خلال هذا الشعور بالمهانة، يوضح كل من سيد وخالد اختيارهم الخروج من السجن الذي تحولت إليه منذ سنوات عديدة مدينة نابلس والذهاب إلى تل أبيب حيث ناطحات السحاب الشاهقة ونسمات البحر العليلة. لن ينجح أحد البطلين في التخلص من هذا الإحساس بالتهميش واليأس، بينما ينجو منه الآخر. وينجح في حقن آلام أخرى ومآتم أخرى.

إن (هاني أبو أسد) الذي سبق وأخرج "زواج رنا" بالأسلوب نفسه تصل رؤيته حيث لا تستطيع أن تصل نظرتنا كصحافيين، أي قراءة ما وراء الأحداث والتوقف عند ملامح اليأس الذي أصبح طبقًا يوميًا في فلسطين. وهو فتح بذلك الطريق للواقعية الجديدة في صيغة عربية. هذا ومن الجدير بالذكر أن تجربة (أبو أسد) ليست استثنائية في السينما الفلسطينية التي تمتلك على الأقل اثنين من المخرجين على خط (أبو أسد) نفسه، وهما إيليا سليمان وميشيل خليفي المولودان في الناصرة مثل (أبو أسد).

بالنسبة للثلاثة، فإن الصراع ـ كما كان الحال في العقود الماضية ـ هو الخلفية الكبيرة التي ينقشون عليها الواقع، لكن طريقة التناول هي التي يجب أن

تختلف لأن: "إطلاق الشعارات من خلال السينما لا معنى له" كما قال خليفي الذي شارك المخرج الإسرائيلي إيال سيان كتابة الفيلم الذي أثار الجدل الكثير وهو "الطريق ١٨١(road movie)" ومدته أربع ساعات وتم تصويره من الحدود مع غزة إلى الحدود مع لبنان في ٢٠٠٢ السنة الأسوأ في الانتفاضة الثانية. يكمل خليفي: "فإن الصراخ الجماعي ليس جميلاً، الجميل هو أن تتحول التجربة الإنسانية إلى إحساس يتحول بدوره إلى شعار." ما يسعى له خليفي وغيره من أبناء جيله وأبناء بلده هو التوقف مليًا أمام "الجانب الإنساني للتجربة الفلسطينية والعربية".

إلا أن أفلام المخرجين الفلسطينيين الثلاثة من أبناء الناصرة تمثل إلى حدٍ ما الجانب المتوقع للسينما العربية. أما الوجه الجاد الذي يروق كثيرًا للمهرجانات الأوروبية وسينمتنا التجريبية فهو الوجه القديم الذي يتهكم عليه البعض وهو المخرج/ المؤلف يوسف شاهين،العلامة البارزة في الفن السابع في المنطقة وهو من أبناء مدينة الإسكندرية التي لم تَعُد بعد متعددة الثقافات والجنسيات كما كانت ذات مرة، والتي مازال يتحسر شاهين على الفتيات الإيطاليات الجميلات اللاتي كن يعشن فيها. السينما العربية التي تروق للأوروبيين هي إذن سينما ورثة يوسف شاهين، المخرجين في منتصف العمر في جميع أنحاء العالم العربي الذين نهلوا من أفلامه بالإضافة إلى الأفلام الإيرانية والفرنسية والإيطالية.

ربما يصعب القول بأن هناك "تيار جديد" عربي في أعمال هؤلاء، وذلك لأنه يصعب إيجاد تسمية واحدة تجمع المخرج المغربي إسماعيل فيرّوكي والفلسطيني إيليا سليمان. على كل حال كان المنتج Humbert Balsan هو من جمع عددًا كبيرًا من المخرجين كالمصري يسري نصرالله (الذي قام بإخراج "باب الشمس" عن رواية إلياس خوري عن التشرد الفلسطيني) واللبنانية راندا شحال ويعود الفضل إلى Humbert في تعريف أوروبا والعديد من المهرجانات خارج العالم العربي بهذا الجانب من العالم العربي الذي نجح في عبور المتوسط في السنوات الأخيرة. كان Humbert رجلاً مقدامًا، دءوبًا ومرحًا، قام بإنتاج جميع أفلام شاهين منذ عام ١٩٨٦ وراهن، خاصةً في السنوات الأربع الأخيرة من حياته، على المخرجين الشباب في المنطقة. كما أنتج في الفترة ما بين ٢٠٠١ و٢٠٠٤ ستة أفلام تتمتع

جميعها بمؤهلات الأفلام فوق المتوسطة بما فيها Le Grand Voyage ـ الرحلة الكبيرة" للمخرج المغربي فيروكي الذي حاز عنه جائزة أفضل عمل أول في مهرجان فينسيا لعام ٢٠٠٤ و Le Cerf - Volantـطيارة ورق" لراندا شحال التي حصلت في دورة ٢٠٠٢ على جائزة الأسد الفضي.

قليلون من تنبهوا إلى شعور راندا بالإحباط وعلى الرغم من ذلك فإنه كان يتعين عليها الحضور عندما فاز فرّوكي في مهرجان فينسيا عن فيلم جذاب يُصوِّر رحلة بين الغرب وجذور الإسلام العربي؛ إنه الطريق الذي يطلب رضا من والده أن يقطعه عبر أوروبا وصولاً إلى مكة ليقوم أحد أركان الإسلام ألا وهي الحج. ولكن Balsan كان قد هوى في أزمة نفسية لم يتنبه إليها من كانوا ينتظرونه في مهرجان برلين ٢٠٠٥ عندما وصل خبر انتحاره شنقًا في العاشرة من صباح العاشر من فبراير في مكتبه بباريس وبانتحاره فقدت السينما العربية فجأة راعيها الأكثر حبًا لها وشجاعة في أوروبا، وذلك ركز اهتمامه على سينما المخرج لا على الجانب الأقل جمالاً وقيمة من الناحية الفنية بالسينما العربية، ولكن الأكثر أهمية في تاريخ التقاليد الاجتماعية في المنطقة.

هناك تيار آخر يخفى علينا نحن في الغرب، ولكنه لا يخفى بالتأكيد على الجماهير التي تملأ دور العرض في العواصم العربية. إنه تيارٌ له ثقله بالنظر إلى عدد المتفرجين في جميع أنحاء العالم العربي الذين يبتاعون التذاكر ويخرجون من دور العرض راضين عمًّا شاهدوا؛ وهو التيار المجدد ـ بلا شك ـ ، وذلك الذي يبحث عن واقعية أخرى، تلك التي تصف معاناة الشباب اليومية ومشاكل الطبقة ذات الدخول المحدودة في المدينة وكذلك النخبة. وذلك في أجواء الحديث فيها عن المشاكل العاطفية والجنسية، يمكن أن يُعتَبَر في حد ذاته مجازفة ثقافية واجتماعية قبل أن تكون سياسية.

فيلم "طعم الملح "- Sapore di sale في ثوبه العربي يحمل اسم "سهر الليالي" للمخرج الشاب هاني خليفة الذي حقق إيرادات كبيرة جدًا في مصر في ٢٠٠٢. أجمع النقاد وقتها أنه ليس فيلمًا جيدًا، ولكن لابد وأن شيئًا ما يميز هذا الفيلم عن سابقيه حتى تحول إلى الظاهرة الأكثر أهمية في صيف ٢٠٠٣ بإيراداته التي بلغت المليون ونصف دولار في ثلاثة أشهر عرض. لم تقتصر حُمَّى فيلم خليفة

المخرج البالغ من العمر آنذاك أربعة وثلاثين عامًا، ويكاد يكون في بداية طريقه المهني والسيناريست تامر حبيب بأن تظل ظاهرة مصرية بل انتقلت إلى باقي العالم العربي.

طرح النجاح الجماهيري للفيلم تساؤلاً ملحًا على النقاد وغيرهم ألا وهو لماذا؟ لماذا حقق شباب الفنانين العرب نجاحًا مثل الذي حققه "سهر الليالي" دون الحاجة إلى ميزانية إعلان هائلة؟ كانت الحكومة المصرية أول من أجاب على هذا التساؤل عندما فوجئت بعدد مشاهدي الفيلم المذهل وقررت اختياره ليمثل مصر في اختيارات "أوسكار" لأفضل فيلم أجنبي، وهو "من نتاج الثقافة الشعبية الشبابية" على حد وصف مسئولي وزارة الثقافة له وقد نجحوا، في هذه الحالة، حقيقة، في وضع يدهم على مفتاح قراءة الظاهرة وألقوا الضوء على أسباب هذا النجاح الكبير.

إن "سهر الليالي" هو بكل المقاييس النسخة المصرية (الجادة) من فيلمنا الإيطالي "طعم الملح" Sapore di sale وغيره من التجارب الأولى للأخوين ڤانسينا بدءًا من العنوان الذي يستخدم أغنية تعبر عن فترة معينة طويلة كانت أم قصيرة. وفي حالة "سهر الليالي" جاء الاقتباس الرومانسي من أغنية شهيرة لفيروز المطربة الأسطورة في العالم العربي بأسره. نجح "سهر الليالي" في أن يكون cult movie دون أن يتحول إلى كوميديا تافهة، نظرًا لأنه فيلم يتحدث عن الحب، والإحباطات الجنسية والخيانة الزوجية بين زجاجات البيرة وسحابات الدخان في مكان مثل مصر يغلب عليه التمسك بالشكل الاجتماعي التقليدي ويكفي إنتاج فيلم كهذا لإثارة الدهشة، بل وإثارة امتعاض البعض على مشاهد يرونها تخدش الحياء العام. تدور قصة الفيلم ـ البسيطة جدًا في بنيتها ـ حول أربع قصص شباب في أزمة: بسبب مشاكل جنسية، أو بسبب الضغط الأسري، أو البحث المستمر، بلا جدوى، عن الحبيب المناسب أو عن مركز اجتماعي مرموق. كل هذا من خلال وصف دقيق جدًا لواقع الطبقة المتوسطة: صورة للقاهرة بين الانجذاب لغربٍ يحمل ملامح كلها أمريكية من جهة ومسايرة القوالب الواردة بين تليفونات محمولة، وملابس الماركات العالمية و منتجات الـ High tech وفتيات ترتدين الحجاب من الجهة الأخرى. لم يواجه هاني خليفة صعوبة كبيرة عندما

مزج صورة أبناء جيله من شباب في الثلاثينيات من عمرهم يعيشون حالة من التخبط مع صورة ما يكمن تحت الرماد من غياب التواصل بين الرجل والمرأة ولاسيما عدم القدرة على الجمع بين نموذجين حضاريين أصبحا في تناقضٍ فيما بينهم مثل النموذج الغربي والنموذج المصري شديد التمسك بالتقاليد.

وهكذا أجبرت مشاهد "سهر الليالي" البلد العربي الأكثر سكانًا على التحدث عن مواضيع كانت تعتبر "تابو" سواء داخل الأسرة أم خارجها، وذلك بفتح مناقشات علنية في مواضيع من الممنوع الحديث عنها ـ مثل الجنس ـ خارج الدردشة الحميمية والاستشارات الفردية التي يطلبها الناس من إمام أقرب مسجد. الكلام في الجنس في مصر مقصور على دوائر مغلقة من الشباب الذين يتفاخرون بعلاقاتهم خارج الزواج أو بين السيدات اللاتي يبُحن لبعضهن بعضًا عن مشاكل مع أزواجهن أو عن اعتزامهن الانفصال. إن تقاليد الخطوبة والزواج في مصر ـ وهي المناسبات العامة الأكثر أهمية حتى الآن ـ تذكرنا بتقاليد الخطبة والزواج في جنوب إيطاليا منذ ثلاثين عامًا مضت، كما أن ثقافة الزيجات التي ينصح بها الأصل وكثيرًا ما تكون بين أبناء العمومة لازالت منتشرة حتى الآن انتشارًا كبيرًا. هذا فضلا عن أن التعبير عن المشاعر والأحاسيس بين خطاب الشباب، فهو غاية في البراءة، قد تزايدت صعوبة الإفصاح به نظرًا للتحفظ الأخلاقي الشديد. بالطبع، هناك وجود للتعبير عن المشاعر إلا أنه يحدث بعيدًا عن أعين الأهل والأقارب والجيران، على كورنيش النيل مثلاً أو على الكباري في وسط البلد أكثر منها في أماكن أخرى بعيدة و رومانسية مثل برج القاهرة ملجأ العشاق.

الثورة الوحيدة الملموسة في السنوات الأخيرة هي الحديث على شاشات التليفزيون عن مواضيع خاصة مثل الجنس والمسائل الزوجية في برامج يديرها دعاة تليفزيونيون أو باحثون في تعاليم الدين الإسلامي. أصبحت "موضة" الساعة التي تأكدت في السنوات الأخيرة توجيه الأسئلة لدعاة ورجال دين متخصصين لحل جميع أنواع المشاكل بدءًا من نظام الأكل إلى الأزمات العاطفية. بشكل مباشر على التليفزيون أو عن طريق شراء شرائط (كاسيت أو ڤيديو) تباع في كل مكان يتحدث فيها الشيخ صفوت حجازي عن الحب أو أكرم رضا عن المراهقين أو عن طريق الإنترنت كما يحدث على الموقع الملتزم الأكثر

تصفحًا islamonline.net، حيث يجود "المستشار الافتراضي" بنصائح عن كل شيء حتى عن المشاعر الخاصة والحياة الزوجية.

بعيدًا عن القيمة السينمائية، كان لـ "سهر الليالي" الفضل في رفع غطاء "القدر الكاتم" الضاغط على شباب الطبقة المتوسطة في سن الزواج في القاهرة والإسكندرية. ولكن ما يكمن وراء المرحلة الانتقالية المتسارعة، خاصةً في العشر سنوات الأخيرة، سواء في القاهرة أم في الإسكندرية ليس فقط الشعور بالحنق من تحكم المظاهر في المشاعر. ولكن أيضًا ـ إن لم يكن على الأخص ـ الشعور بالإحباط بسبب مجتمع لا يقدم أية فرص أو آمال للمستقبل فيما يتعلق بالحب مثل ما هو الحال بالنسبة للعمل وللمُثُل وللقيَم في بلد فسخت منذ سنوات عديدة ذلك "العَقد غير المعلن المُبرَم بين النظام والمواطنين" على حد قول علاء الأسواني الذي يمارس طب الأسنان مهنة والكتابة هواية.

الأسواني، مؤلف رواية "عمارة يعقوبيان" ليس من جيل هاني خليفة فهو من مواليد القاهرة ١٩٥٧ ينتمي إلى ذلك الجيل الذي حلُم ـ حتى بعد عهد جمال عبد الناصر ـ ببناء نظام سياسي واجتماعي من شأنه أن يطور الناصرية إلى الأحسن ويعبر بمصر إلى ديموقراطية كاملة. ولكن ذلك لم يحدث. وفكر علاء الأسواني في نقل خيبة الأمل هذه في رواية، على غرار روايات نجيب محفوظ، يستخدم فيها المدينة العربية الكبيرة كمسرح مكتظ وصاخب يقدم من خلاله علاقات اجتماعية وأنماط إنسانية مختلفة يعيش الزمن الحاضر. حاضر مصر المتشابك.

تحكي "عمارة يعقوبيان" عن مصر التي تعيش أزمة هُوية. المكان مكان معاناة وضعف ومهانة. نرى في ردهات العمارة الطويلة وجوه المرحلة الجديدة من تاريخ مصر: "بثينة"، الفتاة التي تقيم علاقة غير شرعية مع مديرها في العمل تاجر الملابس لتعول أسرتها، والتي ستتزوج بعد ذلك من رجلٍ مهذب، عجوز وأنيق: "زكي بيه" الوجيه الذي حنى عليه الدهر، العاشق لقاهرة الزمن الذي كان؛ "طه" خطيب "بثينة" فيما مضى، والذي سيتجه إلى التطرف الإسلامي ثم إلى الإرهاب بعد أن تحطم حلمه في أن يصبح رجل بوليس فقط، لأن والده بواب و"سعاد" التي تتزوج زواجًا عرفيًا من "الحاج عزام" مثال رجل الأعمال الفاسد الذي يصبح

نائبًا في مجلس الشعب ويدخل في أروقة النظام، وفي النهاية "حاتم" الصحفي الشاذ وقصة حبه المأساوية: وهي حقًا التجديد الاجتماعي ـ أكثر منه ثقافي ـ في الرواية فللمرة الأولى في الأدب المصري المعاصر، يحدث أن يضفي المؤلف شيئًا من الاعتبار على العلاقات بين المثليين ويتعاطف معها كما يتعاطف مع بقية الشخصيات.

جاء التصوير على درجة من الواقعية جعلت من "عمارة يعقوبيان" الرواية المصرية الوحيدة الأكثر مبيعًا في الخمس سنوات الأخيرة إلى أن وصلت إلى الطبعة الثانية عشرة. تمت على الفور ترجمتها وتوزيعها في الخارج بالإنجليزية والفرنسية والإيطالية. وعلى وجه السرعة تحولت "عمارة يعقوبيان" إلى فيلم سينمائي متفرِّد؛ فيلم ميزانيته أعلى ميزانية في تاريخ السينما المصرية: ٢٢ مليون جنيه مصري أي ما يعادل حوالي أربعة ملايين دولار. قام بإخراجه مخرج شاب من جيل يختلف تمامًا عن جيل علاء الأسواني وهو مروان حامد البالغ من العمر أقل من علاء الأسواني بثلاثين عامًا، وهو مخرج شاب صاعد معروف جيدًا في مهرجانات البحر المتوسط بأفلامه القصيرة. وَصَل الفيلم إلى دورة ٢٠٠٦ من مهرجان برلين بعد غياب ١٣ سنة للسينما المصرية وتوَّج بذلك آمال المنتج عادل أديب وهو بدوره مخرج، وواحد من أهم وأشهر عمالقة سوق الـ multimedia في القاهرة بمجموعته Good News Group التي تشمل بوابة إلكترونية يزورها الملايين من المستخدمين ودور عرض متعددة القاعات في القاهرة، والإسكندرية والساحل الشمالي ومحطتين إذاعيتين FM (واحدة بالعربية والأخرى بالإنجليزية، وهي أول محطات إذاعية خاصة في مصر) ودار إنتاج سينمائية بصدد إنتاج أفلام ذات ميزانية كبيرة إضافةً إلى محطة تليفزيونية سينتهي العمل فيها قريبًا. يقول عادل أديب، الأكثر إبداعًا بين أشقائه: "نحن نفكر في مد جسور بيننا وبين الاتحاد الأوروبي والولايات المتحدة والشرق الأقصى و"عمارة يعقوبيان" هي وسيلة من شأنها توصيل فكرنا للآخرين بطريقة مباشرة وواضحة دون تصنع".

ترى فيولا شفيق خبيرة السينما العربية في الجامعة الأمريكية بالقاهرة أن "مصر تعتمد على جمهورها داخل وخارج البلاد، وعليه فيجب أن تقدم أفلامًا

متنوعة، أيا كانت فكرتها أو شكلها أي أن الأفلام يجب أن تستجيب لطلب السوق وتعبر في الوقت ذاته عن مخاوف مشاهديها وأحلامهم. "سهر الليالي" مثال جيد لتوضيح معنى ما يسمّى بـ "أفلام المراكز التجارية"، وهو تيار نشأ منذ بداية الألفية الثالثة لخدمة شباب الطبقة المتوسطة الذين يرتادون سينمات المراكز التجارية في المدن الكبرى. وربط هذا النوع من الأفلام بشيء من الاهتمامات الاجتماعية ليست فكرة جديدة فهذا نتاج تاريخ طويل ينتمي إليه أيضًا أفلام مثل "أخيرًا وليس آخرًا" ليوسف شاهين، و "عمارة يعقوبيان" لمروان حامد؛ الواقعية والالتزام الاجتماعي كانا دائمًا معيار الجودة في السينما المصرية." إذن لا جديد تحت الشمس بالنسبة لڤيولا شفيق: الجديد هو النموذج الذي ينتظر أن يجسده الفنان والنموذج المطروح هذه المرة يتحدث عن أزمات وإحباطات وطاقات مُهدرة ومشاعر مكبوتة.

- ٣ -

أبناء "الجزيرة" الافتراضيون

الالتزام يجري على "الويب"

بمجرد الدخول تجد المُصلَّي قريبًا من الباب، يوجه انتباه ـ الزائر والمقيم ـ إلى أهمية الالتزام الديني في هذه الشقة العادية في الدور السادس من عمارة، مثل الأخريات، في حي المهندسين. خارج النافذة بانوراما مملة تشكلها كتل بنايات أخرى بلون الرمال، فيما يشبه كومة من العمائر الشاهقة التي تميز هذا الجزء الأول من ضواحي القاهرة حيث الأحياء السكنية الراقية، التجارية منها والبرجوازية، والتي تختلف كثيرًا عن الضواحي الشعبية حيث توجد معاقل الإخوان المسلمين في القاهرة، تلك المدينة التي تنفرد بعظمتها، وهي لا تزال المركز الثقافي والسياسي الأكثر أهمية في العالم العربي بأسره. المدينة الوحيدة التي يقول عنها العرب إن الأحداث تقع فيها أولاً ثم تنتشر في المنطقة، كما لو كانت مختبرًا اجتماعيًا ضخمًا.

إلى اليسار، بعد المصلَّى بقليل تجد المقر الصغير والأهم لموقع islamon-line.net في القاهرة على الرغم من أن المقر الرئيسي يقع في الدوحة بقطر. بالمكان حجرات قليلة مليئة بالصحافيين ـ رجالاً ونساءً ـ لا تتجاوز أعمارهم الثلاثين سنة على الأكثر ويختلفون كثيرًا عن الصورة النمطية لدى الغرب عن الإسلاميين: الجلباب واللحية والنظرة العبوس. حسام السيد على سبيل المثال ليس لديه شعرة واحدة على وجهه الممتلئ. إنه نائب رئيس islamonline.net ولولا شهرة الموقع لاختلط علينا الأمر نظرًا لخجله وصوته المنخفض. إلا أن حسام يعتبر، عن حق، واحدًا، من العرب غير المرئيين، مثل زملائه الذين يعملون

دن وراء الجدران الرقيقة بقسم التحرير في موقعٍ ـ على الرغم من مقره المتواضع ـ يعتبر قوة جبارة حقيقية في الكوكب الافتراضي العربي. مائة وخمسين مليون صفحة زارها مستخدمون من مائتين وثلاثة عشر بلدًا فقط في ٢٠٠٥ .إنه موقع يحتل موضع صدارة في أهم تصنيفات الـ World Wide Web تصنيف Alexa، والذي وضع islamonline.net في المرتبة رقم ٥١٢ فهو واحد من المواقع الأكثر تصفحًا عالميًا: الأول بين المواقع الدينية والثالث بين المواقع العربية. ومن الناحية العملية فإن islamonline.net هو الوجه التكنولوچي المتقدم للاتجاه الإسلامي الوسطي، الباب الذي ينفتح على الحياة والشكوك والآمال لدى قطاعات المجتمع العربي العريضة (وغيرها من المجتمعات) التي يمثل لها الدين جانبًا مهمًا في الحياة.

يتحدث حسام السيد عن عصره وعن تجارب أبناء جيله بوصفها تجارب "عصر جديد"؛ عصر ستكون المراهنة فيه هي تعريف الرجل العربي فيما وراء تنميط الغرب له والنماذج الجامدة السائدة في المجتمع العربي نفسه؛ islamon-line.net هو بالفعل واحد من الأماكن (الافتراضية طبعًا) التي يمكننا فيها رؤية نموذج للعرب الجدد أو على الأقل رؤية نموذج لتلك الشريحة منهم التي لم تتخلَّ عن الإسلام وحسب، وإنما تعيشه بصفة يومية. فالموقع ليس فقط وعاء يستوعب النوعية الجديدة من المسلمين، ولكنه وبالأحرى يعمل كجسر بين المتخصصين من الباحثين وعلماء النفس والاستشاريين ورجال الدين وبين الجمهور الإسلامي بتنوع عناصره، ما بين متصفحين يعيشون في العالم العربي وآخرين من جاليات المسلمين في أوروبا والولايات المتحدة وصولاً إلى المسلمين غير العرب الذين يعيشون بنسبةٍ كبيرة في آسيا و يتصفحون النسخة الإنجليزية من الموقع.

من الأخبار العاجلة إلى الفتاوى، أصبح islamonline.net عالمًا من التواصل العربي والإسلامي الشامل وهو مستقل بذاته ويفوق في مداه التليفزيون والصحف التي تتحكم فيها الحكومة إلى حدٍ كبير، بل ويفوق العلاقات الاجتماعية بنسقها القديم. المرجعيات الدينية للموقع شخصيات من وزن الشيخ يوسف القرضاوي الذي يعيش في قطر منذ ١٩٦٣ ويدير مركزًا للبحوث الإسلامية. يوسف القرضاوي واحد من المرجعيات الدينية الأكثر شهرة بعد أن

اكتسب شعبية كبيرة على شاشات "الجزيرة". على الرغم من سنه المتقدمة ـ وقد وُلِد في بلدة في دلتا النيل عام ١٩٢٦ ـ فإنه يحترم وسائل الإعلام الحديثة، بل ويستخدمها بطريقة ملحوظة كما يحدث في برنامجه الذي تبثه "الجزيرة": "الشريعة والحياة" وكما يحدث أيضًا في موقعه الشخصي qaradawi.net. في تلقائيته أمام الكاميرا ينجح القرضاوي، في دمج تعاليم الأزهر، مركز التيار السنِّي المحافظ مع لغة التليفزيون؛ يستطيع الجمع بين الرداء الأزهري التقليدي والعمّة بلونيها الأبيض والأحمر القاني والفتاوى التليفزيونية عن مواضيع غاية في التنوع بدءًا من الجنس وانتهاء بالعمليات الانتحارية.

إن القرضاوي، شيخ "الجزيرة"، هو أهم من يمثل الإسلام الوسطي أو الإسلام السنِّي الحديث كما يُعَرِّفه الباحثون. وكما يقول مفاز عبد الفتاح في كتابه "القيم الديموقراطية في العالم الإسلامي ـ Democratic Values in the Muslim World"، إنه التيار الذي "ينظر إلى الديموقراطية كامتداد حديث لمبدأ الشورى في الإسلام." ما يمكن أن يطلق عليه "الشوراقراطية" تعتمد على "التشاور" بين ممثلي (القبائل) الذي كان ينظم الحياة بين الناس فيما مضى. يرى العلماء أمثال القرضاوي أن نظام الشورى الموجود في صور مختلفة في كثير من الأنظمة العربية الحالية يُبرهن على أن الديموقراطية النيابية من روح الإسلام. بالطبع لا يَسلَم القرضاوي من انتقادات سواء من العلمانيين أم المتشددين، وذلك على قدرته على جعل رسالة الإسلام الروحية تطبيقًا حيًا لا يتعارض مع العصر بدليل جمهور الشباب الذي يتردد على islamonline.net والطابع الذي أضفاه عليه بعض الشباب منذ بدايته، مثل هبة رءوف عزت، وهي واحدة من المفكرات السياسيات الأكثر تجديدًا في مواضيع مثل وضع المرأة والديموقراطية في الدول العربية.

ويبقى القرضاوي، أكثر من غيره، هو من يترك بصمة على التيارات الدينية التي سادت المجتمع كله وأثرت في السلوكيات اليومية لأفراده؛ إنها التيارات التي تشمل ما يمكن أن نسميه في الغرب الأغلبية الصامتة التي تبحث في تحديد القواعد التي تنظم الحياة والزواج والأسرة والجنس والعلاقات بين أصحاب الديانات المختلفة أو مع زملاء العمل وتستعين ليس فقط بشيخ المسجد، ولكن

أيضًا بالمشايخ على الإنترنت. إن المسلمين الذين يتصفحون الإنترنت يسألون المشايخ عن مواضيع كثيرة بدءًا من شرعية استخدام أحذية مصنوعة من جلد الخنزير إلى سلوكيات الزوجين في إطار الزواج الإسلامي.

من يبحثون عن رشد أو وجهة يتجهون إليها هم في أغلب الأحيان من الشباب الذين يمثلون علامة الاستفهام الحقيقية في العالم العربي. إنهم خليط غير متمايز يضم أكثر من نصف سكان العالم العربي من الدار البيضاء إلى الرياض ومن دمشق إلى أسوان، تقول وكالة الأمم المتحدة للسكان إنه في هذه المنطقة من العالم يعيش ثلاثمائة مليون نسمة والمتوقع أن يتضاعف هذا العدد عام ٢٠٥٠. الشباب يمثلون إذن جيشًا مكونًا من أكثر من مائة مليون نسمة. ولا تستطيع أن تحدد لهؤلاء الشباب صورة مشتركة، ربما بسبب العدد الهائل، فالمسافة شاسعة بين المهاجرين المغاربة وأبناء العائلات الثرية في الخليج؛ بين عاطلي العشوائيات المترامية على أطراف القاهرة ومن يعملون (في المجال العسكري) في العراق وفلسطين. الاختلافات كبيرة لدرجة يصعب معها تحديد اتجاهاتهم بشكل معقول. إلا أنه يمكننا تأكيد أن هؤلاء الشباب ليس لديهم آمال عريضة في المستقبل، ولكن التشاؤم الذي يستحوذ على شبابنا لا يعرف طريقًا إلى قلبهم، فهم على النقيض من أقرانهم الأوروبيين، ما زال لديهم ما يسعون لتحقيقه أو ما يناضلون من أجله سواء كان الديموقراطية والحرية اللتان لاتزالان بعيدتين عن واقع كثير من البلاد في المنطقة أم احترام الآخرين لهُويتهم العربية التي كثيرًا ما يرون أن الغرب يسحقها ويطمسها.

هذا المزيج من التشاؤم والآمال قد يحولهم في الحالات الأكثر يأسا إلى قنابل بشرية: أي بتعبير آخر إلى أولئك الانتحاريين الذين يملؤون شاشاتنا، وإذا نظرنا إلى الإحصائيات وجدنا أن غالبيتهم من المراهقين والشباب، ما بين الثمانية عشر والخمسة وعشرين عامًا على الأكثر مثل خالد وسيد من أبناء نابلس اللذين يحكي قصتهما الفيلم الجميل الذي سبق وتحدثنا عنه Paradise Now. إنهم شباب يعيشون اليأس والذل، دون أي أمل في المستقبل إلا أنهم في الوقت ذاته متمسكون بوجودهم حتى أنهم ينظرون للعملية الانتحارية بطريقة سوريالية: "حيث أصبح الموت هو الطريقة الوحيدة للحياة".

أما الظواهر الغالبة، التي لا تثير مع ذلك أي ضجيج، فإنها تتمثل في بحث أولئك الشباب عن طرق ممكنة للتعبير، وسط مجتمع مساحة التعبير فيه ضيقة والإنترنت بالنسبة لهم ليس فقط مساحة يمكن فيها التعبير، بل ويمكن توسيعها أيضًا كما يتبين لنا من نجاح islamonline.net الذي اتسعت دائرته بعد الشعبية التي لازال يحققها بين الشباب الذي يخصص لهم الموقع مساحات كبيرة فضلاً عن فرص العمل التي يقدمها لهم.

الموقع الذي باركه يوسف القرضاوي هو فقط نقطة البداية في ساحة افتراضية أكبر من islamonline.net بمراحل، وهي التي شهدت نشاطًا كبيرًا في السنوات الأخيرة خاصة منذ أن ظهرت المُدوَّنات العربية التي لاتزال تشهد نموًا سريعًا. في بادئ الأمر لم تكن تسترعي انتباه أحد إلى أن طَفَت على السطح بين ٢٠٠٤ و ٢٠٠٥ خاصة في تلك البلاد التي شهدت ما عُرِف بـ "الربيع العربي" والمطالبة المُلِحة بإصلاح في المؤسسات السياسية التي أصابها الركود.

منذ ذلك الحين، أحرز المدونون العرب شهرة غير متوقعة يعود جانب كبير منها إلى دهشة كثيرين في الغرب حال اكتشافهم أنه في بلاد العرب التي لا يعرفونها هناك أيضًا ما هو أكثر من مجرد الصور النمطية المطبوعة من أيام لورنس والاستشراق الذي عفا عليه الزمن. تلخص كلمات هيثم صبَّاح التي قالها لي في صيف ٢٠٠٥ كل الغضب من الغرب الذي يوغر صدر الشباب في الشرق الأوسط: "الغربيون؟ إنهم مازالوا يعتقدون أن عربيًا يعني جِمَالاً، وخِيامًا وألف ليلة وليلة.".

وُلِد صبَّاح في الكويت في نهاية الستينيات، يحمل جواز سفر أردني وهو من أصول فلسطينية، يعمل مهندس كمبيوتر مثل كثير من شباب المنطقة، ولكنه قبل كل شيء مُدوِّن، إنه، تحديدًا، واحد من أشهر المُدوِّنين العرب. ربما يريد صبَّاح أن يصبح مثل ملايين المُدوِّنين الافتراضيين الذين غزوا الإنترنت في السنوات الأخيرة من كل أنحاء العالم، يريد أن يختبئ في فضاء الإنترنت؟ لا؛ هنا يجدر بنا الحديث عن الأرضية المشتركة التي تجمع بين الدار البيضاء والرياض، القاهرة ودمشق، والمنامة وطرابلس: يجب أن نعرف الآخرين أن الإنترنت باللغة العربية لا ينتمي فقط لمؤيدي القاعدة وللمواقع التي تتحدث عن الجهاد المُسلَّح ضد الغرب

والإسلام الأكثر تطرفًا؛ هناك أشياء أخرى غير المشاهد المُروِّعة على صفحات الإنترنت التي تعرضها النشرات الإخبارية في أوروبا وأمريكا: هناك عالمٌ بأكمله تحجبه عنا أستار كثيفة، قليلون فقط هم من يحاولون إزاحتها.

مُدونو بلاد العرب

عندما يُرفع الستار الأحمر الكبير تظهر لنا خشبة مسرح ثرية ومدهشة؛ عالمٌ بأسره يعيش، ويتنفس ويُبدع. ويتواصل وهو الشيء الأهم. لقد شَهدَت المدونات العربية نموًا كبيرًا في السنتين الأخيرتين مقارنة بمثيلاتها الأخرى بالمنطقة. هذا إذا ما أخذنا في الاعتبار نسبة الأُمِّية في كثير من الدول العربية وعدد الذين يستخدمون الكمبيوتر ومستوى دخل الفرد ونسبة البطالة. في واقع الأمر، الفجوة بين وسائل الاتصال ومعدل استخدام الشعب لها جعلت استخدام الإنترنت محصورًا في بادئ الأمر على الصفوة من أبناء طبقات اجتماعية محدودة للغاية، لديهم القدرة على شراء واستخدام أجهزة الكمبيوتر، ولكن مع مرور الوقت ومع ازدهار مقاهي الإنترنت وظهور المُدوَّنات تحولت الإنترنت تدريجيًا إلى الساحة الكبيرة التي ينزل إليها الشباب ليتحاور ويعبر عن الكثير من آرائه التي يودّ التعبير عنها في أماكن أخرى، ولكنه لا يستطيع لأسباب عدة ليس فقط بسبب الانغلاق الاجتماعي أو القيم الدينية السائدة.

أصبح بإمكان أي مستخدم للإنترنت إنشاء مدونات "يوميات افتراضية"، لأنها وسيلة سهلة، ومرنة، وقليلة التكلفة ومتاحة جدًا للمشاهدة؛ ما أسهل إنشاء مُدوَّنة لينشر المستخدم على الإنترنت كل ما يريد أن يوصله للآخرين بدءًا من الخواطر الشخصية إلى الأعمال الفنية من المواد السمعية البصرية إلى الصور الرقمية. هناك، غير ذلك روابط لمواقع أخرى على الإنترنت غالبًا ما تحتوي على معلومات. ولكن المُدوَّنات لم تنشأ من العدم؛ ربما نشأت على أرضية محدودة، ولكنها على أية حال، صلبة ونشطة مثل المنتديات وغرف الشات ومجموعات الأخبار؛ باختصار كل تلك المساحات التي أتاحت الفرصة أمام الشباب العرب ليتحدثوا. في البداية كان الأمر أشبه بخليَّة سرية معلوماتية، ظاهرة محصورة على مجموعة صغيرة من المحظوظين في برج عاجي: الأثرياء الذين يمتلكون جهاز كمبيوتر أو أولئك الذين كان في إمكانهم الوصول إلى جهاز كمبيوتر بسهولة ربما عن طريق برامج الأمم المتحدة لنشر الحداثة أو برامج تنموية قومية.

ثم كان الانتشار الهائل للمُدوَّنات بعد التسهيلات في إنشاء واستخدام اليوميات الافتراضية. إنه انتشارٌ سريع ملحوظ وكما يرى أحمد غربية، أحد المُدوِّنين من zamakan.gharbeia.org، فقد أصبح "النشر على الإنترنت سهلاً مثل إرسال البريد الإلكتروني". لم يتأثر هذا الانتشار الهائل حتى بالمشاكل الثقافية ولا الاقتصادية الاجتماعية أو التكنولوجية في المنطقة. تلك التي بدلاً من أن تخف قليلاً تزايدت في الآونة الأخيرة: ولذا فالسؤال يطرح نفسه: كيف أصبحت المدونات العربية مصادرًا للمعلومات، "للمنشورات" ومساحات للتجريب الفني؟

لأن الذين قاموا بتوسعة وتطوير اليوميات الافتراضية أرادوا الإعلان عن هويتهم والدفاع عنها؛ أرادوا أن يعبِّروا عن الهُوية العربية، الإسلامية، الشرق أوسطية، السياسية، المدنية وغير ذلك. أرادوا أن يتواصلوا خارج إطار الصور النمطية ليس فقط مع أقرانهم، ولكن أيضًا - إن لم يكن على الأخص - مع جمهور غالبيته من الغرب، ويتبين لنا ذلك من شيوع استخدام المدونين للغات أخرى غير العربية، لأغراض عديدة أهمها (وليس كلها) الخروج من الجيتّو.

الأهداف؟ قبل كل شيء عدم الشعور بالعزلة بل الشعور بالانتماء إلى مجتمعات حقيقية من المدونين الذين يسعون إلى الهدف نفسه فضلاً عن الرغبة في خلق "ثقافة المقهى الافتراضي" على حد تعبير "عليا" صاحب sndi-girl.blogspot.com المُدوِّن الذي تنكر في شخصية أنثى طيلة عام ونصف ثم كشف عن هويته: "سعودي شاذ" كان يريد خوض "تجربة أدبية". الهدف إذن كان خلق "ثقافة المقهى الافتراضي" كثقافة عامة بين الناس بعيدًا عن القنوات التقليدية، بعيدًا أيضًا في بعض الأحيان عن الحدود الفاصلة بين البلدان، ويذكرنا هذا بالمقاهي العربية الشهيرة التي لم تتأثر قط بالعولمة اللهم إلا تغيير لون دهانات الجدران والأثاث لتتحول إلى أماكن تحتفظ بنفس طبيعتها وتؤدي نفس الدور.

إلا أن المدونين ما كانوا ليظهروا لولا وجود "الجزيرة" التي أحدثت ثورة في عالم الاتصال العربي؛ فهم يعتبرون إلى حد ما الأبناء التكنولوجيين لقناة البث التليفزيونية "الجزيرة" أولاً بسبب أعمارهم الشابة، فمعظمهم لم يتجاوز الثلاثين

على النقيض مما يحدث في الغرب لاسيما في الولايات المتحدة الأمريكية، حيث ـ حينما يقول هيثم صباح: "كثير من المدونين صحافيون ذوو خبرة طويلة، معلقون ومحللون سياسيون. أما في العالم العربي فأناس كهؤلاء ليس لديهم في الغالب مُدوَّنات ربما، لأن المدونين الأصغر سنًا لا يشعرون بالحرج في خلط كتاباتهم السياسية مع بعض الأمور التي تتعلق بالحياة الشخصية."

ومنذ انتفاضة الأقصى على الأقل في ٢٠٠٠ يتلقى الشباب العربي الأخبار لا عن طريق نشرات أخبار القنوات الحكومية، ولكن إعلام له طابع الـ BBC التي يأتي منها عدد كبير من مذيعي "الجزيرة" كما أنه إعلام يبرز وجهة النظر العربية في اختيار وصياغة الخبر: لقد مهَّد الارتباط (اللاشعوري) بين الشباب وهذا النوع المختلف من الإعلام لاستخدام قنوات جديدة خلاف تلك التليفزيونية المقولبة المعتادة لتداول الأخبار؛ مثل المدونات تحديداً.

ونرى هذا حتى في أبسط الموضات في الشارع العربي مثل رنَّات الرسائل القصيرة على الهواتف المحمولة، حيث يستخدم الكثير من العرب نغمة نشرة أخبار "الجزيرة" ـ صوت الماء الناتج عن سقوط "اللوجو" أي شعار القناة الشهير في الماء وخروجه مرة أخرى كقطرة مليئة بالأخبار ـ كنغمة تنبئ برسالة أي أنه هناك "خبر". إلا أن المدونين العرب يرفضون أن يكونوا أبناء لـ "الجزيرة"؛ بالأحرى يرفضون أن يكون هناك علاقة سببية بين الثورة التي أحدثتها "الجزيرة" في مجال الإعلام العربي وثورة المُدوَّنات، لأنه ـ كما يقول العديد منهم ـ محطات التليفزيون ـ سواء المحلية منها أو الفضائية مثل "الجزيرة" ـ تُجبِر المُشاهِد على التلقي السلبي للأخبار التي تتحكم فيها القيادات العليا، أمّا الإنترنت فهي عن حق القاعدة العريضة التي يمكن أن يقام عليها بناء الديموقراطية العربية (وبالفعل يتم ذلك كما يزعم المدونون) على الأقل بالنسبة للطبقة الاجتماعية القادرة من الناحية الاقتصادية والتعليمية على الدخول على الإنترنت وفي هذا يتفق المدونون العرب مع أقرانهم وراء المحيط الأطلنطي الذين يلخصون سلطة "اليوميات الافتراضية" في قدرتها على تحدي الإعلام أو الإعلام المُسيَّس بشكل عام. بل وإن الكثير منهم ينوطون بالمدونين ليس فقط واجب تقديم معلومة بديلة خاصةً على المستوى المحلي، ولكن أيضا مراقبة التغطية الإعلامية المقدمة من وسائل الاتصال التي تستخدمها الأغلبية الصامتة.

مما لا شك فيه أن عددًا كبيرًا من أصحاب المدونات ذات الطابع السياسي يعترف بإسهام "الجزيرة" في الثورة الإعلامية في المنطقة. المُدوِّن التونسي سامي ابن غربية (الشهير بشمس الدين) وهو على مشارف الأربعين من العمر واللاجئ السياسي في هولندا منذ ١٩٩٨ ودخل عالم الإنترنت عام ٢٠٠٠ وصاحب مُدَوَّنة Fikr @ يقول: "لقد وضعت "الجزيرة" الشارع العربي أمام حقيقته، أي حقيقة الرقابة عليه سواء من قِبَل الجهات العليا أو تلك الذاتية التي يتقبلها. لقد حررت "الجزيرة" الكلمة العربية، وأحدثت ثورة في المشهد الإعلامي التقليدي".

وعلى الرغم من أن "الجزيرة" أحدثت ثورة في عالم الاتصالات العربي، فإنها لم تُعِر بعد اهتمامها للشباب. على الأقل هذا هو مأخذ شباب المدونين على "الجزيرة" وغيرها من القنوات الفضائية، وعليه فقد أوجد الشباب لنفسه مساحة له على الإنترنت التي كان لها الفضل في إخراج هذا الجيل إلى النور. هذا ما يراه إساندر العمراني، أحد أعضاء arabist.net وهي واحدة من المدونات الأكثر تصفحًا بين الصحافيين والباحثين المهتمين بالعالم العربي. يقول عمراني الذي يعمل مراسل لصحف عالمية: "هناك مئات المدونات لمراهقين يكتبون فيها عن حياتهم اليومية. ومن المفترض أن تكون لهم اهتمامات متباينة، وخلق متنفس لهم هو أمر في غاية الأهمية بالنسبة للمنطقة العربية، حيث يشكل الشباب تحت ٢٥ سنة حوالي نصف عدد السكان، هذه القنوات الجديدة تساعد على مواجهة أفكار وثقافات قديمة ترى أنه لا يجب الاستماع إلى الأطفال والمراهقين.".

وبعد فتح الطريق على الإنترنت بدر السؤال ماذا يمكن كتابته في المدونات وكيف يمكن توصيله إلى جمهور أعرض، وجاءت إجابته تلقائية والفضل في ذلك يعود أيضًا إلى الظروف السياسية التي أدَّت إلى "الصحوة[1] العربية" في ٢٠٠٥. فعلى سبيل المثال كان للمعلومات الواردة في "اليوميات الافتراضية" أثرها في ربط المُدونين ببعضهم، وبخاصة المجموعات القومية منهم في بادئ الأمر. بعد مرحلة أولى من التخبط، أعطت هذه المعلومات تغطية للواقع الاجتماعي والسياسي المحلي من منظور يختلف عن منظور الحكومة أو حتى منظور

---

(١) استخدمت المؤلفة لفظ Primavera الذي يعني بالإيطالية الربيع. (المترجمة).

الصحافة وقنوات التليفزيون بما فيها "الجزيرة" وغيرها من محطات allnews الفضائية العربية.

ولم تكن الأهداف المشتركة هي التي ألَّفت بين المدونين العرب، وإنما كان الواقع الملموس خارج عالم الكمبيوتر الافتراضي هو ما وحَّد صفوفهم. قرَّبت "الصحوة العربية" بين شباب المتصفحين ثم قاموا هم بتحقيق ما كان يمكن إنجازه في الإعلان عن التظاهرات ومبادرات الإصلاح الجارية في بلدان مختلفة في المنطقة.

مما لا شك فيه أن أقوى لحظات التضافر الافتراضي هذا كانت "ثورة الأرز" اللبنانية، لأنه تم إطلاقها أيضًا في الغرب إثر اغتيال رئيس الحكومة السابق رفيق الحريري يوم عيد الحب عام ٢٠٠٥ في انفجار سيارة مفخخة أودى بحياة الرئيس وتسعة عشر شخصًا آخرين مما أدَّى إلى اندلاع حركة تظاهرات استمرت عدة أسابيع حتى حملة الانتخابات وفوز زعماء المعارضة بكثير من المقاعد في البرلمان. وبالإضافة إلى التظاهرات الحاشدة، التى ازدهرت أثناء هذه الحركة، المُدَوَّنات التي تزعَّمت حراك معلوماتي غير مألوف قوامه "المعلومة المضادة" على غرار تلك المنتشرة في حركات الاحتجاج الغربية.

ولكن "ثورة الأرز" في بيروت لم تكن هي التي بدأت ثقافة المعلومة المضادة عن طريق المدونات. سبقتها التجربة التونسية التي تستحق عن جدارة لقب البلد الأم لهذه الظاهرة لاسيما أن المدونات في تونس أعطت لعالم الاعتراضات الإلكترونية العربية على الإنترنت شهيدها الأول: زهير يحياوي مؤسس مجلة "Tunezine" الإلكترونية الشهيرة. توفى يحياوي عن عمر يناهز السادسة والثلاثين إثر أزمة قلبية في مارس ٢٠٠٥، وكانت السلطات التونسية قد ألقت القبض عليه وظل بالسجن لمدة عام ونصف وخلال محاولات تحريره والدفاع عن حريته في التعبير، صنعت منه الكثير من الجمعيات الدولية للدفاع عن حقوق الإنسان رمزًا لحرية التعبير الإلكترونية، رمزًا تحول بعد وفاته إلى أسطورة أول شهيد إلكتروني تودعه الصلوات الافتراضية التي سرعان ما انتشرت من مُدونة إلى أخرى من المغرب إلى السعودية.

في حقيقة الأمر "Tunizine" ليس له علاقة وطيدة بصحوة ٢٠٠٥، ولكنه يمثل نموذجًا حقيقيًا لثقافة المعلومة المضادة داخل التجربة التونسية التي تمثل ثورة المعلومات الوحيدة من نوعها التي بدأت من الأعلى، حيث حلم بها الرئيس زين العابدين بن على لبلده الصغير الذي كان أول بلد إفريقي يدخل إلى شبكة الإنترنت في ١٩٩٦، كانت رؤية الرئيس زين العابدين تجاه مستقبل تونس الصغيرة ـ التي يبلغ عدد سكانها عشرة ملايين نسمة منحصرين بين بلدين عملاقين (على الأقل من ناحية المساحة) مثل الجزائر وليبيا ـ هي ضرورة بنائه على ثقافة الكمبيوتر، السوفت وير والبايت، لخلق أيدي عاملة جيدة التأهيل وقليلة التكلفة مما يؤدي إلى تغيير في اتجاه الهجرة: يرى أنه سوف يبقى الفنيون في تونس، بينما توفر لهم الشركات الأوروبية العمل عن بُعد؛ تحقيقًا لمشروعات التعاون مع دول البحر المتوسط التي تتوق أوروبا لتنفيذها.

من وجهة نظر ما فإن حلم الرئيس التونسي قد تحقق حتى وإن كانت تونس بعيدة حقًا عن أن تكون ـ كما كان يتمنَّى بن علي ـ معملاً لتفريغ المجتمع المعلوماتي في إفريقيا. لقد حرص الرئيس التونسي صاحب القرار في العشر سنوات الأخيرة على أن تكون تكنولوچيا المعلومات حصانَه الرابح حتى أنه أعطى لها الأولَوية جاعلاً منها سر سلطته وبطاقة التعريف به على المستوى الدولي. فكان أحد شعاراته المفضَّلة في الآونة الأخيرة هو "مليون كمبيوتر في البيوت التونسية قبل حلول ٢٠٠٩ من خلال مشروع "كمبيوتر الأسرة" بأسعار زهيدة وتيسيرات لا بأس بها للسداد: سبعمائة دينار لكمبيوتر المكتب، ألفين دينار للكمبيوتر المحمول" فيما يمكن أن نصفه بالنسخة التونسية من مشروع بيل جيتس الشهير "كمبيوتر في كل بيت".

وبعد عشر سنوات من سياسة الكمبيوتر أنجبت ثورة بن علي شبابًا تجري علوم الحاسب في دمه، ولذلك فلا يتحملون قيود نظام جامد مع من يريد الحرية منهم. حرية الإبحار مثلاً على الإنترنت. لقد تحول أبناء الثورة الإلكترونية لـ (بن علي) إلى أبناء متمردين بعد أن ذاقوا حرية الرأي الإلكترونية.

في بلدٍ تسيطر فيه الرقابة على الصحافة والتليفزيون وعلى كل شيء آخر، كانت الإنترنت، في بادئ الأمر، بمثابة الملاذ والمأوى. يقول مراد دريدي، مهندس

الكمبيوتر ومؤسس الجمعية التونسية للدفاع عن مساحات إبداء الرأي على الإنترنت، والذي يعيش الآن في باريس: "إن الرقابة التي يفرضها النظام على الآراء المغايرة قد دفعت المعارضين وكل التونسيين بشكل عام إلى أن "يكون لهم وجود" على الإنترنت"، لأن الرقابة في تونس امتدت أيضًا إلى العالم الافتراضي وقامت بإغلاق عدد كبير من مواقع المعارضة وسط شجب جميع الجمعيات الدولية للدفاع عن حرية التعبير. إلا أن الحكومة التونسية لا تلقي بالاً لهذه الأصوات وتواصل الرقابة الإلكترونية دورها في التفتيش على المواقع وإلغاء ما لا تستحسنه منها. وفي السجون يقبع العديد من مرتادي الإنترنت يغشاهم ظلام القمع مثل زوار "زارزيس" الذي حُكِم عليهم بثلاثة عشر عامًا أمام محكمة الاستئناف لكونهم قاموا بتحميل مواد يُشتَبَه في علاقتها بالقاعدة ثم تم الإفراج عنهم.آخر مايو ٢٠٠٦ إثر حملة دولية أدارتها والدة أحد المحتجزين وتدعى تيريزا شوبان، ومن الجدير بالذكر أنه تم تنظيم الحملة أيضًا عن طريق الإنترنت (وهل كان هناك طريقٌ آخر؟). وإلى جانب هذه القضية هناك حالات أقل شدة في أصدائها بالخارج، وليس داخل تونس طبعًا، مثل حالة محمد أبّو المتهم بنشر آراء مناهضة لـ (بن علي) على إحدى المجلات الإلكترونية، وكانت آخر هذه الآراء أن أبّو شجب احتمالية أن يذهب رئيس الوزراء الإسرائيلي أريل شارون إلى تونس لحضور قمة تكنولوجيا المعلومات. وقد تم الحكم على أبّو بالسجن لمدة ثلاثة أعوام ونصف، وفي خريف ٢٠٠٥ أغلق أبّو فمه فعليًا لمدة أربعة أيام ليلفت الأنظار إلى حالته وأحوال المعتقلين السياسيين.

وإن كانت الإنترنت قد أصبحت المتنفس الوحيد للمعارضة الإلكترونية في تونس، فإن الشباب الأقل اهتمامًا بالسياسة أو حتى الشباب الذين لا يبالون بأي مما يجري حوله يرتاد الإنترنت أيضًا وخير مثال على هذا حالة أديب، الطبيب البيطري الذي لا يعيش حتى داخل تونس، ولكنه هو أيضًا وقع في هوى المدونات و"اليوميات الافتراضية" ويقول، إذ يتحدث عن نفسه: "عددنا في تونس يقرب من المائة مدون وربعنا من النساء. معظمنا" بل يحدد "ثلثَينا" يكتبون بالفرنسية والثُلث بالإنجليزية. القليلون فقط يكتبون بالعربية وتعتبر هذه مفارقة كبيرة، إذ أن الشباب في تونس لا يتحدثون الفرنسية جيدًا مثل أشقائهم الكبار وآبائهم وأجدادهم، ولكن يوضح أديب: "لا توجد في تونس مدونات تتحدث عن السياسة

الداخلية فجميعنا يلجأ إلى الرقابة الذاتية كي نحافظ على هذه الوسيلة للتعبير. فعلى سبيل المثال أنا أتحدث في مدونتي عن الحيوانات، وعن السينما وتجاربي في الحياة.".

أديب وأصدقاؤه ليسوا الوحيدين الذين يطبقون نظام الرقابة الذاتية للإبقاء على عالمهم الصغير والمهم جداً على الإنترنت. إن مرتادي الإنترنت في السعودية مثلاً يعلمون هذه الأمور جيداً، لأن حياتهم على الإنترنت أصبحت خاضعة لما تعتبره السلطات في الرياض مسموح به داخل العالم الافتراضي في المملكة. فحرية التعبير لدى المدونين السعوديين لازالت غير مضمونة كما يتضح من قرار السلطات السعودية في أوائل أكتوبر ٢٠٠٥ بغلق blogger.com أكبر مضيف للمدونات، مع عدم إبداء أسباب هذا القرار والاعتراف في الوقت ذاته بأنه بغلق هذا المضيف يكون قد تم غلق أربعمائة ألف موقع. ولكن وعلى الرغم من هذا فالمدونات في السعودية مثلما في جميع بلدان المنطقة ليست فقط سياسية بل يستخدمها الشباب مثلما يستخدم مراهقونا الأجندات المدرسية. إنها مثل مكان رحب يصبح الخاص فيه عاماً، أو يكاد، بما يمتلئ به من ألوان و صيغ لغوية وعواطف وأنغام وحيوانات أليفة وصور كثيرة.

بين المدونات و "السام ايزدات"

وتظل المدونات السياسية، رغم كل شيء، واحدة من أهم الصفحات المقروءة. لم تقتصر هذه المدونات في السنتين الأخيرتين على لبنان وتونس، ولكنها اتسعت لتشمل على الأقل أربعة بلدان أخرى عَرفَت فيها السياسة والمعلومة المضادة تعبيراً على مستوى عالٍ مثل البحرين وهو بلد صغير، ولكنه مهم، حيث إنه مقر الأسطول الخامس للولايات المتحدة الأمريكية، ولذا فإنه يتأثر بالتغيرات المحيطة. لم يكن من محض الصدفة إذن متابعة مدوني البحرين لقضية مؤسسي bahrainonline.org الذين اتهمهم النظام الحاكم بنشر آراء لا تتفق كثيراً مع آراء الحكومة على الموقع المذكور. لقد تم إلقاء القبض عليهم ومحاكمتهم بين فبراير ومارس ٢٠٠٥ ومكثوا في السجن أسبوعين فقط قبل أن يتم الإفراج عنهم دون أن يدفعوا حتى الكفالة المطلوبة، وقد ساعد على ذلك ـ طبقاً للرواية الأكثر شيوعاً على الإنترنت ـ الخوف من أن تنصرف أنظار العالم من سباق

الفورمولا وان، المزمع بدؤه أوائل إبريل التالي، إلى كتيبة المعارضين ـ إلى مجرد ـ كتيبة شباب الإنترنت. على أية حال، إن قصة ثلاثي bahrainonline.org كان لها الفضل في رفع الستار عن ذلك العالم المنعزل، أي كوكب المنامة الافتراضي، خاصة عندما قرر المدونون شن احتجاجاتهم عبر الإنترنت بنشر صورهم في صالونات منازلهم وهم يحملون لافتات تطالب بتحرير ثلاثي -bahrainon line.org.

ولقد استمر المدونون في أنشطتهم على الإنترنت على الرغم من أن مشاكلهم مع الرقابة لم تُحل منذ الإفراج عن مؤسسي bahrainonline.org لدرجة أن أكبر مُدوِّن بحريني وهو رجل الأعمال الثري محمود اليوسف، اضطر إلى مساومة السلطات على حريته على الإنترنت كي يتفادى منع الزوار من الدخول على موقعه الذي أطلقه في أكتوبر ٢٠٠٦، حيث قام محمود بحذف بعض من المقالات المزعجة بالنسبة للحكومة، وكان هذا "كافيًا" كي يختفي في غضون أيام قليلة ذلك التهديد الذي كان يتمثل في منع الزوار المحليين من الدخول على الموقع.

على أية حال، فإن مدوني البحرين يرون في الحلول الوسطى مع الحكومة ما يشرِّف، إذ يستمرون في معركتهم من أجل الإصلاح السياسي ووحدة البلاد التي أصبحت تهددها بعض الانقسامات الداخلية. على هذه الموضوعات نَمَت حركة المعلومات المضادة في اليوميات الافتراضية التي أخذت تقترن بالصور الرقمية لتوثيق التظاهرات والاحتجاجات والمبادرات وكل آثار العمل الأساسي أيضًا. لقد أصبح الأرشيف على الإنترنت شيئًا قياسيًا، طبَّقه مُدوِّنو الكويت أيضًا حيث وثَّقوا بدقة تفاصيل كل شيء عن "الثورة الزرقاء" التي مكنت النساء في الكويت من حقهن في الاقتراع بدءًا من ٢٠٠٧ .لقد كان للمدونين الفضل في التعريف بالمعركة من أجل حق المرأة في الاقتراع، والتي اختاروا لها مسمَّى "الثورة الزرقاء" الذي استخدم في الصحافة العالمية كلها، لوصف المشوار الطويل والمضني للحصول على موافقة البرلمان على القانون الجديد.

في إطار "صحوة ٢٠٠٥ "وبعد البحرين والكويت تأتي التجربة السورية التي اهتمَّت أكثر من مثيلاتها بالسياسة، وذلك لأن غالبية المدونين هم من المعارضين لدرجة أن عملهم كان يركز على الضغط على الحكومة، وذلك قبل مؤتمر حزب

البعث، الحزب الحاكم، الذي عُقِد في يونيو ٢٠٠٥، بل إن النشاط الإلكتروني الذي قام به أيمن عبد النور، أشهر إصلاحيي حزب البعث وصاحب الرسالة المفتوحة الأكثر قراءة في المعارضة، أصبح رمزًا لمجهودات تجديد الحزب الحاكم من الداخل. لقد تحولت إلى ظاهرة كبيرة رسالته all4syria.org التي كان يتم إرسالها لخمسة عشر ألف شخص يوميًا على البريد الإلكتروني رغم المحاولات العديدة من جانب السلطات السورية لحجب الموقع وتعطيل الرسالة. كما تحول إلى ظاهرة أخرى مهمة في عالم المفكرين السوريين عبر الإنترنت عمَّار عبد الحميد صاحب الخواطر والمنشورات الإلكترونية وبخاصة الشعرية منها. يعتبر عمَّار واحدًا من شباب المعارضين العرب الأكثر شهرة، وهو شديد الإيمان بالعلمانية وصاحب مشروع ثورة ("المبادرة المستقلة" من أجل "منتدى يحدد الآمال ويواجه هموم الأقليات العرقية والدينية المختلفة التي تعيش في العالم العربي") هو أيضًا صاحب amarji.blogspot.com "مدونة مهرطق". أبدًا لم يختبئ عبد الحميد وراء أسماء مستعارة: كان يفعل كل شيء تحت ضوء الشمس (الافتراضية) التي تسطع على منزله في دمشق. إلا أن معارضته الإلكترونية أتت بنتيجتين إحداهما إيجابية وهي الشهرة فمن شاشة الكمبيوتر الشخصي الصغير وصل عمار إلى شاشات أكبر شبكات التليفزيون والثانية، أليمة، ألا وهي قراره النهائي بالذهاب إلى ماري لاند مع أسرته عندما فهم أنه لم يعد بإمكانه الاستمرار معارضًا داخل الحدود السورية.

أما في مصر فقد كانت المعمل الحقيقي لخلق المعلومة الموازية التي تتيح قراءة مختلفة لكل ما يحدث ـ ما بين السياسة والمجتمع ـ في عام مفعم بالأحداث مثل ٢٠٠٥. كان للمدونات في واقع الأمر دور أساسي فلولا تناولها أحداث بعينها لغشّاها التعتيم الرقابي مثل ميلاد حركة "كفاية". كان هذا المسمى لافتة جمعت تحتها مفكرين ذوي اتجاهات مختلفة تمامًا: إسلاميين، ليبراليين، مركسيين سابقين، اشتراكيين يجمعهم كلهم تاريخ واحد: كانوا من شباب الفترة الأكثر حراكًا بالجامعات المصرية في السبعينيات، مع انتماءاتهم المتعارضة فيما بينها. تجمَّع رجال اشتعل رأسهم شيبًا من الطلبة الجامعيين سابقًا في عهد أنور السادات وقد تحول الكثير منهم إلى برجوازيين، تجمَّعوا على أبواب النقابات ليقوموا بمظاهرات مناهضة للنظام وتابعهم باهتمام جمهور من متصفحي

الإنترنت، من الشباب تحديداً، وهم الذين نقلوا إلى العالم الافتراضي احتجاجات حركة "كفاية"، وكذلك التظاهرات ضد استفتاء ٢٥ مايو واستخدام العنف مع المعارضين والحملة الانتخابية للرئاسة التي انتهت بفترة ولاية جديدة لحسني مبارك، وأخيراً الجلسات البرلمانية العاصفة التي عُقِدَت بين نوفمبر وديسمبر من العام نفسه.

باختصار، لقد وجدت "صحافة المواطنين" citizens'journalism في مصر عام ٢٠٠٥ تُربة خصبة لتظهر وتنمو تجربتها. ليس هذا فقط، ولكن كان تحديداً هذا النوع من المعلومات المتدفقة عبر المدونات المصرية هو الوسيلة التي جمعت بين المدونين كي تنشأ ثقافة سياسية مشتركة بينهم إلا أنه لم يتم أي شيء من الناحية الأيديولوجية، بل والأكثر من ذلك أنه لم يتم إطلاق ولا تكوين أية قاعدة من قِبَل شباب المدونات، فالذي يجمعهم هو فقط المطالبة، غير المحددة بشكلٍ جيد، بدولة تقوم على احترام الحقوق، وكذلك يمكن أن يتولَّد بداخله مجتمع جديد من مواطنين يسعون نحو الإصلاح السياسي.

إنه تطور المعارضة الذي تتسع دائرته شيئًا فشيئًا ليبني ثقافة سياسية عامة تسري في مختلف الظروف المجتمعية العربية من خلال المدونات أيضًا، وهي الطريقة الأبسط والأوفر لتجميع الأفكار والأشخاص وللتحايُل قدر الإمكان على رقابة النظام الحاكم. إنها الطريقة المعاصرة لتوحيد المعارضة من خلال "السام ايزدات" أو "المنشورات الذاتية الإلكترونية" مثلما حدث ـ في مقارنة تفرض نفسها بالنسبة لهذه المرحلة، ولكنها الأمثل ـ مثلما حدث في الفترة ما بين السبعينيات والثمانينيات في أوروبا الشرقية تحت أنظمة الاتحاد السوفيتي حتى سقوط حائط برلين في ١٩٨٩: بدلاً من الآلة الكاتبة أو القلم لنسخ المنشورات المحظورة اتضح أن الإنترنت وسيلة أكثر عملية لنسخ ونشر نُسَخ من الكتابات السياسية بعيداً عن القنوات الثقافية الحكومية ليس فقط باللغة العربية، ولكن أيضًا بلغة المستعمرين القدامى: الإنجليزية أو الفرنسية.

ربما تفيد المقارنة مع المعارضة في أوروبا الشرقية كي نستوعب ما يحدث، حتى الآن في إطار مجموعات صغيرة وتعد من الصفوة، في مجتمع مثل المجتمع العربي الذي كثيراً ما يراه الغرب مجتمعًا راكداً خاليًا من أي دوافع ثقافية

داخلية. أما في بولندا، وتشيكوسلوفاكيا، والمجر استطاعت مجموعات صغيرة جدًا من المثقفين نشر المعارضة من خلال وسائل اتصال غير رسمية وبواسطة إنتاج أدبي وثقافي عالي المستوى انتشرت عن طريق الـ samizdat. كانت أعمال ثقافية من مختلف الأنواع كان يتناقلها المعارضون فيما بينهم وكان يتم استخدامها ـ حتى وإن كان مع الحذر الشديد ـ لإشراك أشخاص آخرين في المعارضة. وكانت النصوص تُكتَب بخط اليد، أو كما كان يحدث كثيرًا، يقوم كل قارئ بعمل نسخة منها خاصة به على الآلة الكاتبة في منزله الخاص بالليل ثم يُسلِّم نص السام ايزدات للقارئ التالي، وهكذا تتكون لكل شخص مكتبة خاصة شديدة الخطورة على سلامة الشخص نفسه الذي يمتلكها. لم تكن السام ايزدات واحدة من معاول المعارضة في أوروبا الشرقية فقط، ولكنها كانت أيضًا بمثابة الخلفية النظرية للقيادات التي جاءت ـ خاصةً في الفترة التالية لسقوط السور الحديدي ـ لتحل محل الأنظمة الشيوعية. بل والأكثر من ذلك أن أهم مؤلفي السام ايزدات كانوا هم من اعتلى كراسي السلطة فيما بعد كما يتضح لنا من سيرة فاكلاف هافيل الذي كتب في عام ١٩٧٨" سلطة من لا سلطة لهم" وهو السام ايزدات الذي اعتُبِر قبل وبعد ١٩٨٩ واحدًا من إعلانات المعارضة ضد الأنظمة الموالية للاتحاد السوفيتي في أوروبا الشرقية.

إن المعارضة في العالم العربي، مثلما كانت عليه في أوروبا الشرقية، هي معارضة تقتصر على النخبة فلم يتحقق فيها أي نوع من الالتحام بين العامة وطبقة المثقفين على غرار نموذج المعارضة المتفرد على قدر أهميته، ألا وهو "بولندا سوليدارنوسكى". خلاف المعارضة في أوروبا الشرقية، فإن الكتابات الافتراضية في عالم المعارضة العربي، أدبية كانت أو سياسية؛ كانت في بادئ الأمر لمؤلفين مجهولين أو لمؤلفين ينشرون كتاباتهم تحت أسماء مستعارة. فغالبًا ما أخفى المدونون هوياتهم الحقيقية وراء أسماء وهمية قد توحي بشخصياتهم أو حتى لا تطالهم الرقابة وسلطات الأنظمة القومية التي أظهرت بعضها ـ أيضًا في الآونة الأخيرة ـ عدم رضاهم عن ظاهرة المدونات. وعلى أية حال، فإن هذا الربط بين الكتابة في المدونات وعدم الإفصاح عن الهوية الذي يعتبره بعض كبار هذه الظاهرة عنصر "التجديد في النقاش بين الأفراد حول أي موضوع" يعد اختلافًا جوهريًا بين هذه الظاهرة والسام ايزدات التي كان لها انتشار سرِّي

واسع، ولكن كانت تحمل في الوقت نفسه اسم المؤلف الذي كان يعبر عن قوة معارضته باسمه الحقيقي.

ومع ذلك فهناك بعض من المعارضين العرب، على الرغم من عدم الإفصاح عن هوياتهم الحقيقية، مَن يحتفظون بثقلهم مثل بهية المصرية صاحبة ba-heyya.blogspot.com، وهي واحدة من أكبر المُدوِّنات المحبوبة لدى جماهير المتصفحين ليس فقط داخل الأراضي المصرية، ولكن أيضًا على مستوى المثقفين العرب وليس فقط الافتراضيين منهم. بهية ليست فنانة، ولكن كتاباتها القصيرة بتحليلاتها تُعد من بين الكتابات الأكثر تأثيرًا سياسيًا في المشهد المصري ولهذا السبب فإن بهية، التي تحسبها بعض المصادر باحثة جامعية، أصبحت الملهمة لكثير من المدونين الشباب ذوي الثقافة العامة غير المحصورة على حقل بعينه. أولئك الآخذون في الانتقال من حالة المعارضة الإلكترونية إلى المعارضة الحقيقية لها في ظاهرة غير متوقعة من قبل بعض المتصفحين الذين لا يستحسنون هذا الانتقال الذي اشترك فيه بعض شباب المدونين الأكثر شهرة مثل علاء، أحد مؤسسي المجمع الأساسي manalaa.net الذي ألقي القبض عليه في ربيع ٢٠٠٦ بتهمة المشاركة في تظاهرة تؤيد موقف القضاة المناهضين للنظام وظل في السجن في ضواحي القاهرة لمدة تزيد على شهر. وقد كان لهذه التجربة تأثير كبير على توجه المعارضة الإلكترونية في مصر ولاسيما بعد موقف علاء عبد الفتاح المعروف بتوجهه العلماني جدًا، الذي أعلن على الملأ تأييده للإخوان المسلمين؛ فبعد أن تعرَّف علاء داخل السجن على شباب ناشطين في أكبر حركة إسلامية في العالم العربي، كتب علاء على موقع الإخوان المسلمين ikhwan-web.net رسالة كانت أكثر من مجرد إشعار ود وصداقة فتبدو بالأحرى بداية لتحالف اليسار بعد المركسية مع الإسلاميين، ونقطة انطلاق من أجل نقاش افتراضي حول مستقبل المعارضة في مصر.

إن حالة علاء هي فقط الحالة التي كانت لها ضجة كبيرة وتعتبر مثالاً حيًا لانتقال المدونين من الإنترنت إلى الشارع، ففي واقع الأمر هجر بعض مدوني اليوميات الافتراضية طاولة الكتابة، وقرروا النزول إلى شوارع القاهرة خاصةً أثناء الحملة الانتخابية التي سبقت الولاية الجديدة لحسني مبارك. حدث ذلك

على وجه الخصوص في مظاهرات "كفاية". كانت هذه هي الظروف التي نحى فيها المدونون الأقنعة جانبًا، وكشفوا عن هوياتهم الحقيقية ليخلقوا بذلك جماعة ليست فقط افتراضية مع عدم تركها الإنترنت رغم ذلك؛ بل إنها لازالت تستخدم المدونات سواء لتداول المعلومات أم للحديث عن انتقال تواصلهم عبر الإنترنت إلى أرض الواقع. إن الحاجة إلى الالتقاء معًا خارج منتديات الإنترنت أيضًا بالإضافة إلى الأخبار التي تنتشر على الإنترنت. إنما تدل على أن عالم المدونات العربية هو أقل فردية منه في الغرب، فهو عالم يزخر بالقراء والكتاب الذين يسرعون بالإدلاء بآرائهم بكتابة التعليقات وإنشاء الروابط links والترحيب المشجع بالمدونين الجدد. هناك ما يدل على الحاجة إلى لمّ الشمل والنمو، الملموسة في الإنترنت العربي، كثيرًا ما تكون مدفوعة من الشعور العام بالانعزال وعدم الفهم من قِبَل الآخر فيما وراء حدود المنطقة، وقد وصلت هذه الحاجة إلى ذروتها بعد حرب لبنان في ٢٠٠٦.

وفي هذا الواقع الافتراضي المتأجج والنشط هبطت التفجيرات الإسرائيلية على بيروت وعلى غيرها من المدن اللبنانية بصخب غير متوقع من البعض. وعند خوض تجربة الحرب التي دارت بالعراق، كان موقف المدونين العرب على هذه الحرب موقفًا متماسكًا أظهروا فيه أيضًا المنحى الذي سيتخذه المستقبل السياسي والفكري لشباب المنطقة المثقفين: لم تسيطر على الإنترنت العربي ملامح الغضب والشجب وحسب، بسبب القنابل الإسرائيلية التي استهدفت مدنيين ولم يظهر عليه فقط الفزع من مشاهد الدمار وعدد القتلى والجرحى، من تدمير بلد كان قد تم إعادة بنائه منذ قليل وكان أكثر مراكز ثقافة البوب حيوية في المنطقة: لقد وضَّح المتصفحون العرب كيف أحدثت الحرب اللبنانية خاصة خللا في موازين المنطقة وفي علاقة اللاعلاقة مع إسرائيل: منذ يوليو ٢٠٠٦ لم يعد لدى شباب الإنترنت العربي استعداد للعفو عن تل أبيب ولا حتى لإعطائها فرصة جديدة، بل إنهم يطالبون أنظمتهم الحاكمة أن يتصرفوا بكرامةٍ وقوةٍ أكثر. ولذا فإن الشيخ حسن نصرالله زعيم الميليشيات الشيعية في لبنان، حزبُ الله، أثناء شهر الحرب ولاسيما بعدها، قد تحول فجأة إلى أحد أبطال الإنترنت: لقد حلَّ وجهه الممتلئ ذو اللحية محل وجه چيڤارا على الجداريات الافتراضية بينما امتلأت الأرشيفات على الإنترنت مثل الـ Youtube بتسجيلات

خطاباته على قناة حزب الله التليفزيونية "المنار" في تأييد علني مفتوح لنصرالله، جاء ثمرة تفكير عميق عمّن يمكن أن يصبح ـ بالنسبة لكثير من المدونين ـ القائد الجديد للكرامة العربية القائد المدعو لإجراء صدمة الإفاقة للرأي العام لشعوب المنطقة ضد أنظمتها الحاكمة (التي يرونها ضعيفة)، وضد الولايات المتحدة الأمريكية (المتهمة لمرة أخرى برغبتها في إعادة تشكيل الشرق الأوسط وفق مصالحها) وضد إسرائيل التي فقدت، في الساحة الافتراضية العربية، في حرب لبنان ٢٠٠٦ وللمرة الأولى جبروتها ـ مثل أخيل أو شمشون.

- ٤ -

سويسريو الأطلسي الأوسط

يزخر الطريق رقم ٢٤ المُترب بالمحال التجارية على جانبيه.هناك صيدلية وبعض محلات الملابس والعديد من الحقائب المعلّقة على عقود البوابات وعدد لانهائي من المقاهي والمطاعم، حيث يختار مرتادو الشارع قطعة من لحم الضأن المعلّق في المحل لعمل سندويتش الشورمة المحلّي السريع: إنه لحم مَشوي مع قليل من الطماطم والبصل والبهارات يوضع بداخل الخبز العربي المعروف؛ وجبة" سريعة" ودسمة تأكلها وتنطلق سريعًا مثلما يفعل سائقو النقل الثقيل على الطرق السريعة.

أما البانوراما فتتكون من بلاد ومدن الريف الصغيرة التي تَحُف الأطلسي المتوسط، نحو الشمال قليلاً باتجاه فاس يوجد ما يُطلِق عليه المرشدون السياحيون، بشيءٍ من الفخر، "سويسرا المغرب". هناك توجد أحياء سكنية هادئة، نظيفة ومنظمة وجامعة "عرفانة" التي تحيطها المسطحات الخضراء الواسعة، البجع كثير يقف في هدوء على أسطح المداخن بالمزارع وفيلات الأثرياء الراقية.

إلا أن "سويسرا" لا تمتد إلى الجنوب؛ إلى ما يقارب عشر كيلومترات المشهد هناك يشبه الغرب الأمريكي أو الأحياء السكنية الصغيرة في وسط أستراليا التي يقطنها المهاجرون وعمال المناجم. على جانبي الطريق ٢٤ يمارس المزارعون عمليات زراعية نسيناها نحن وتعيدها إلى الأذهان رؤية الفلاحين المسنين يمتطون الحمير. ورغم ذلك فإن "سويسرا" الحقيقية تقع تحديدًا هناك على طول الطريق التي تعتبر وسط المغرب، وهي مرحلة في الطريق التجاري فاس – بني ملال. بالطبع ليس هناك أي شبه بين هذا الريف المُترب والجبال السويسرية

المعروفة. ولكن إن كان وجه المقارنة بين هذه الأماكن وسويسرا هو البنوك، وليست الغابات فستأتي تلقائية والسبب يرجع إلى لافتة صغيرة باللون الأصفر والأسود تراها في "ميرت" و"چينيڤرا" أو"أواومانا"، كما تراها أيضًا في "مراكش"، "طنجة"، "الرباط"، "الدار البيضاء" وفي العديد من مدن وبلدان المغرب التي يهاجر أهلها. مكتوب على هذه اللافتة عبارة Western Union، واحد من عمالقة مصارف الفقراء. فهو وسيلة بسيطة وفعّالة يرسل من خلالها المهاجرون الأموال إلى أسرهم في أوطانهم. وصل حجم معاملاتها إلى مائة وسبعة وستين مليار دولار على مستوى العالم في ٢٠٠٥ ونصيب المهاجرين المغاربة من هذه الإحصائية لا يستهان به، بل لنقل إن المهاجرين المغاربة يرسلون إلى ذويهم في المغرب كمًا هائلا من الأموال لدرجة أن لافتة Western Union أصبحت جزءًا لا يتجزأ من المشهد المغربي. حوالي ١٥٠٠ وكالة في بلدٍ دخلت فيها أكبر شركة تحويلات في ١٩٩٥، ولا غرابة في ذلك، حيث تشغل المغرب المركز الرابع على مستوى العالم في حجم الأموال التي يقوم المهاجرون بتحويلها إلى ديارهم، وتناوئها في ذلك في السنوات الأخيرة الصين وباكستان وبنجلاديش. ومؤخرًا أصبحت دول عملاقة في شأن الهجرة مثل الهند والمكسيك والفلبين تهدد مكانة المغرب التي تبقى عن جدارة البلد العربي الأول في القائمة بعد أن انتزعت هذا المركز في ٢٠٠١ من مصر، البلد الذي يبلغ عدد سكانه ثلاثة أضعاف عدد سكان المغرب وعدد مهاجريه يفوق المليوني ونصف مليون مغربي يقيمون بشكلٍ رسمي بالخارج.

يعتمد اقتصاد المغرب إذن على التحويلات المصرفية من مهاجريها في الخارج أكثر من اعتماده على المشاريع السياحية التي يديرها في أغلب الأحيان أصحاب فنادق ونادلون وطباخون بدءوا منذ بضعة عقود يتخصصون في الجامعات الأوروبية. إن المهاجرين الأكثر شهرة عندنا هم بالطبع الـ "vucumprà"(١)، ولكن هناك غيرهم من بنّائين وعُمّال موسميين، أمثال من يقومون بجني محصول الطماطم وصيادون في ماتزارا ديلڤالّو ، ويليهم الحاصلون على مؤهلات عليا

---

(١) Vucumprà هي كلمة إيطالية دارجة مركّبة من "uolev" أي تريد و"comprare" أي تشتري. ولكنها محرفة طبقًا للهجة التي اعتاد أن يتكلم بها المهاجرون. فأصبحت كناية عن أولئك المهاجرين ذوي القدر الضئيل جدًا من التعليم والمعرفة ويبيعون السلع البسيطة في الشوارع مرددين هذه الجملة.

يأتون إلى أوروبا للبحث عن فرص عمل تكون في غالب الأحيان أفضل في فرنسا أو إسبانيا عنها في إيطاليا. إن عدد المهاجرين كبير وبين الحين والآخر يصدر عنهم شيءٌ غير لائق مثلما كان يحدث مع أجدادنا الذين كانوا يهاجرون من إيليس آيسلاند كي يزيدوا عدد الجاليات الإيطالية الأمريكية ـ في بعض الأحيان ـ عدد رجال المافيا.

ولقد ارتبط المغاربة في بلادنا بالصورة السيئة التي كانت من نصيب الإيطاليين في ألمانيا؛ إذ ارتبطت كلمة مغربي بصورة المجرم ـ وحسب آخر صيحة ـ صورة الإرهابي. ولكن في واقع الأمر، حقيقة، إن الغالبية العظمى من هؤلاء المهاجرين تقوم على العاملين الجادّين، حيث كان حجم تحويلات الأموال وفقًا لتقديرات الوحدة الاستخباراتية الاقتصادية تصل إلى خمسة مليارات دولار في عام ٢٠٠٦ والتوقعات لعام ٢٠٠٧ تصل إلى ٣,٥ مليار نصفهم جمعه المهاجرون في فرنسا، وإيطاليا أيضًا لها نصيب كبير في هذا المبلغ، إذ يقوم المغاربة الذين يعملون لدينا بتحويل حوالي الثُمن من هذه التحويلات.

ليس إذن من محض الصدفة 'ن ترى Western Union أن إنشاء إدارة قطاع إفريقيا الذي يغطي خمسين بلدًا على شواطئ الأطلسي، في الدار البيضاء وأن تُعيِّن له مديرًا مغربيًا وهو خالد فيلاحي. إن حجم تدفق الأموال من الأماكن التقليدية للهجرة إلى الوطن الأم مدهشٌ والأرقام التي نعرفها عنه هي فقط الأرقام الرسمية، تلك التي تمر من خلال شركات مثل Western Union التي احتكرت في المغرب شركاء مُهمِّين مثل البريد المغربي و Wafabank و Société Générale وعلينا أن نتخيل حجم باقي النقود التي يحملها المهاجرون في حقائبهم لدى عودتهم للاحتفال بـ "العيد"(١) الذي يحتفل به المسلمون بعد رمضان، ولقضاء الإجازات الصيفية في بلادهم أو عن طريق مواطنيهم الذين يوصلون الهدايا إلى جيرانهم. على أية حال، فمن المؤكد أن تحويلات المهاجرين باتت تمثل عنصرًا مهمًا في ميزانية الدولة، بالنسبة لبعض الدول وقد تكون أهم من الاستثمارات الأجنبية المباشرة وبالنسبة لحكومات أخرى يمثل إسهامًا بارزًا

(١) استخدمت المؤلفة كلمة Eid في النص الأصلي.

في تسديد الدين التجاري في بعض العلاقات الثنائية لدرجة أن البنك الدولي يحاول منذ بضع سنوات إحصاء حجم أموال المهاجرين وأهميتها في تقرير واقعي عن الدول النامية في العالم سيتم إعداده خصيصًا لذلك.

لأن تحويلات المهاجرين، كما تتمنى الحكومة المغربية، إن لم تتحول إلى عجلة دفع للتنمية في البلاد فمن شأنها على الأقل أن تلطِّف من المشاكل الاجتماعية الداخلية. إلا أنه حتى الآن ليس هناك أي حديث عن استثمارات ضخمة: فالمهاجرون المغاربة، مثلما كان يفعل مهاجرونا، يشترون السيارات بمجرد أن يتسنى لهم هذا، هكذا كما كانت سيارات المرسيدس تملأ شواطئ كالابريا وحتى شواطئ مضيق مسِّينا في أغسطس، فإن سيارات المرسيدس والجولف والكروما تملأ أيضًا شوارع الأطلسي الأوسط في الريف أو في شوارع الدار البيضاء. وبعد تحقيق الهدف الأول أي السيارة يفكرون في الثاني: البيت حيث يذهب أكثر من ثلاثة أرباع الأموال التي يعود بها المهاجرون إلى ديارهم، وهكذا لا يتبقى إلا القليل للاستثمارات ذات الطابع الاقتصادي الحق، وإن وجدت فهي تتمثل في محل أو فندق صغير أو شراء سيارة أجرة أو على الأكثر تأسيس شركة متواضعة تديرها الأسرة.

إن مملكة محمد السادس لا تورِّد فقط أو على وجه التحديد، خارجين عن القانون كما يشاع في إيطاليا مما يضيف إلى كلمة "مغربي" صفة مهينة. مشكلة المغرب الحقيقية، على عكس ذلك، تكمن منذ عدة سنوات في تزايد هجرة أفراد مؤهلين في إطار ظاهرة هروب العقول. وعندما نتحدث عن العقول نقصد أولئك الذين يواصلون البحث العلمي في جامعات الغرب سواء كانوا فنيين متخصصين أو محترفين، والذين وجدوا وسيجدون مستقبلا لهم خارج حدود بلادهم، إلا أنه عندما نتحدث عن هجرة أفراد من ذوي التأهيل العالي وتربح دولارات هائلة فإن العقول في حالة المغرب ليس لها نصيب الأسد، وإنما الأرجل و"هروب الأرجل" هو المصطلح الذي تم إطلاقه على هجرة أعداد كبيرة من الرياضيين المغاربة خارج البلاد ليس فقط وليس على الأخص لاعبو كرة القدم، فالذي يهاجر منهم هو من المحظوظين القلائل من بين مئات المراهقين الذين يكتظ بهم شاطئ الدار البيضاء عصر كل يوم ليفرِّجوا عن طاقتهم في أكثر المدن المغربية حيوية؛ إنه

مسرحٌ ضخم يستعرضون عليه في عرض مستمر: مباريات كرة قدم لا تنتهي أبدًا وتذهب بها نسمات المحيط.

الذين يهربون من المغرب هم بالأحرى من محترفي ألعاب القوى الخفيفة الذين يذهبون إلى جميع بقاع الأرض كمهاجرين. مهاجرون يتمتعون ببعض المزايا بكل تأكيد إلا أنهم يظلون مهاجرين مثلهم مثل المهاجرين الآخرين المجهولين الذين يجيئون إلى بلادنا للعمل كبنائين أو باعة جائلين. يبحثون عن عمل كريم ذي أجر جيد أفضل مما يستطيع أن يوفر لهم الاتحاد الوطني في الرباط.

أشرف تاديلي، أسطورة منطقة الكيبك الكندية على الرغم من أنه من مواليد الدار البيضاء في ١٩٨٠ وعدّاء المسافات الطويلة، خالد خانوكي الذي هاجر إلى الولايات المتحدة الأمريكية في ١٩٩٢ تاركًا مسقط رأسه مكناس، ومحمد موريت البطل العالمي في اختراق الضاحية، وقد أصبح مواطنًا بلچيكيًا، وعبد الرحيم الحوزي ودريس الهمر وهند شريف دهيبة وحسن لحسيني ورقيا ماراوي. أسماء معروفة لمن يهتم بألعاب القوى؛ عدائين مسافات متوسطة وطويلة وماراثونات كلهم من مواليد المغرب، ولكنهم يكبرون بعيدًا عن الأطلسي. إن قائمة العدّائين المهاجرين طويلة جدًا يحتكرهم في السنوات الأخيرة دول الخليج على الأخص، وتأتي البحرين على رأس هذه الدول، إذ أن جزءًا كبيرًا من فريقها يتكون من عدائين مغاربة: عبد الكبير لايرابي، وعبد الحق لاجورش، ورشيد خويا ثم محترفي الماراثون مصطفى رياض، ونادیا چافيني.

ومع ذلك فهناك على وجه الخصوص صفقة كانت جديرة بحجم الاستثمار البحريني. إنه رشيد رمزي بطل هلسنكي ٢٠٠٥ في سباقات الثمانمائة متر والألف وخمسمائة متر، والتي لم ينجح فيها أحد منذ أوليمبياد طوكيو ١٩٦٤. لقد فاز رشيد في سباق الألف وخمسمائة متر في فنلاندا متفوقًا على مواطنه عادل الكاوش الذي كان يجري تحت اسم المغرب. كانت مرارة الهزيمة مضاعفة بالنسبة لأبناء وطن رشيد الأصلي.

إن حالة رشيد المولود في المغرب عام ١٩٨٠ تعد نموذجًا لحالات الكثير من العدائين المغاربة؛ هي نموذج للعديد من الشباب الذين حاولوا تحقيق حلمهم في أن يكونوا عدائين أمثال سعيد عويطة. وفي البداية وجدوا الأبواب مفتحة

أمامهم. وكما هو واضح فإن المؤسسات الرياضية المغربية تنبهت منذ سنوات إلى أن عدائي المسافات المتوسطة يمثلون كنزًا قوميًا، دجاجة تبيض ذهبًا، إنه كنز من شأنه ليس فقط تقديم المغرب بشكل مشرِّف في المسابقات الدولية، ولكنه يؤدي أيضًا إلى زيادة ثقل المغرب في رياضة الجري. فالاتحاد الوطني إذن هو أول من يهمه أن يكون لديه أبطال.

إلا أنه في السنوات الماضية اتُّهِم الموظفون القائمون على رياضة الجري بالفشل الإداري، ما بين المحسوبيات وعدم قدرتهم على تقييم الواعدين وإبراز كفاءاتهم، اتُّهِموا بأنهم ساهموا بهذا الشكل في هرب العديد من العدائين خارج البلاد: وفي الحقيقة إذا كانت الأبواب في أول الأمر مفتوحة للجميع، فإنها سرعان ما تغلق إذا ما حسبت الإصابات مقارنةً بالنتائج الممتازة. وكان هذا بالضبط ما حدث لرشيد رمزي، أمل السباقات المتوسطة في المغرب.

لفت رمزي الأنظار إليه منذ بداياته بعد أن فاز ببطولة المغرب ثم بدأ يشكو من مشاكل كثيرة في الركبة في عام ١٩٩٩ إلا أن الاتحاد لم يساعده؛ لم يغطِ تكاليف العملية اللازمة، ومرتب رمزي قليل جدًا بما لا يسمح له بتحمل نفقات العملية. استمر رمزي في الجري حتى وإن كانت النتائج بطبيعة الحال أقل من المتوقع إلى أن التقى بقَدَرِه عام ٢٠٠١ في عفرانه في "سويسرا المغرب" في تلك المنطقة من الأطلسي الأوسط التي يعتبرها العداءون، لعُلُوِّها وجَوِّها المناسب، مناخًا ممتازًا للتمرين. في عفرانه التقى رمزي مع الأسطورة هشام الجويرروج الذي سيكون هو خليفته والتقى أيضًا بخالد بولامي الحاصل على الميدالية البرونزية في أوليمبياد أطلنطا ١٩٩٦، في ثوبه الجديد كمدرِّب ومنقِّب عن المواهب.

وفي عفرانه يعرف رشيد أن البحرين بصدد البحث عن عدائين لإعطائهم الجنسية وضمِّهم إلى فريقها الوطني في الأوليمبياد. وبعد أن خذَلَه الاتحاد الوطني المغربي الذي لم يعطه حقه من التقدير والرعاية، ذهب رمزي إلى المنامة في ٢٠٠٢ حيث تم توظيفه في الحرس الملكي وأصبح يتقاضى مرتبًا كبيرًا ويستطيع أن يذهب للتدريب في عفرانه والأهم من ذلك أن المتعهدين الجدد برمزي دفعوا له تكاليف العملية الجراحية في الرباط الصليبي في ألمانيا، العملية

التي كان لا غنى عنها بالنسبة لرمزي حتى يتمكن من الجري بسرعة من جديد. ومنذ ذلك الوقت ورشيد يحصد النجاحات واحدًا تلو الآخر؛ في دورة الألعاب الآسيوية وفي روما، حيث حقق الأسطورة جويرروج المركز الثامن فقط وأخيرًا في هلسنكي ينطلق لحن السلام الوطني للبحرين ليصاحب تتويج المغربي رمزي في المركز الأول، بينما يُشعِل النصر "المسروق" جدالا لا نهاية له في المغرب حول إدارة اتحاد ألعاب القوى وما تتسبب فيه من "هروب الأرجل". تنقد الرباط مؤسساتها و تحاول الإبقاء على من تبقوا من جواهرها، تلك الجواهر التي يتنازع عليها العالم ويغازلها بشيكات بمبالغ طائلة، بدلاً من أن تدفعهم للرجوع باتجاه الحدود، على الشواطئ في شويتا ومليليلا أو على الشواطئ الإسبانية.

أثرياء سعوديون

المعركة التي بإمكان المغرب أن يخوضها أمام الإمارات التي تمتلك ملايين الدولارات من البترول هي معركة غير متكافئة، هذا ما يحدث في العالم العربي وليس فقط في مجال الرياضة. إن المنطقة العربية مليئة بأموال السعودية أو الإمارات العربية المتحدة التي فقدت منذ قليل زعيمها الأسطوري الشيخ زايد، مؤسس الاتحاد. إنها استثمارات تركت بصمتها على النمو في العالم العربي في العقود الماضية ولكنها تستمر، على الأخص في بداية الألفية الجديدة هذه، في التأثير على السياسات الاقتصادية وتيارات الهجرة ومعدلات النمو. وحتى إذا نحينا جانبًا المعاملات الاقتصادية الضخمة، فإنه يسهل على المستهلك العادي إدراك حجم الاستثمارات الآتية من شبه الجزيرة العربية من حضورها الملحوظ في عالم المعاملات والصفقات بدءًا من المبالغ التي يتم صرفها لشراء الأبطال الرياضيين التي لا تفلح الإمارات الصغيرة في صناعتهم وتأهيلهم في بلدهم، إلى الاعتمادات التي تملأ خزائن المؤسسات الثقافية في جميع أنحاء العالم العربي مثل جامعة الأزهر في القاهرة ومراكز الدراسات التي تزهو بها عواصم المنطقة، فهي واجهةٌ مشرِّفة بما لها من أهمية وما لديها من ميزانية كما نرى في المعهد العالي للعلوم الشرعية، على مقربة من مسجد الحسن الثاني في الدار البيضاء.

ردود أفعال من يتلقون هذه الأموال تتسم بشكلٍ عام بالازدواجية تجاه الحضور السعودي والإماراتي المكثف في المنطقة. ومثلما كان يحدث بين أوروبا

وأمريكا، فهي أموال واستثمارات مباركة تلك التي تأتي من شبه الجزيرة، ولكن إذا أمكن الاستغناء عنها فسيسعد ذلك كثير من العرب، هذا هو التعليق الذي يسري في المنطقة، ربما باستثناء فلسطين التي صمدت سنوات طويلة من الصراع أيضًا بفضل المشاركة السخية من جانب الخليج. أما بالنسبة لباقي العرب هناك الكثيرون ممن يشعرون بالحرج حيال الثراء السعودي الذي يتخطى حدود شبه الجزيرة ويستعرض ثقله خارجها. إن المغاربة يتمنون استعادة رشيد رمزي من البحرين. ويتمنى العديد من المصريين أن يتقلص تأثير الثقافة الدينية الوهابية داخل الأزهر حيث تزدهر حركة إنشاءات مبانٍ ومساجد جديدة بتمويل سعودي. كما يسعدهم الاستغناء عن زيارات الأمراء السعوديين المدللين الذين يأتون لقضاء الشتاء في القاهرة ويسمحون لأنفسهم بتصرفات لم يكونوا أبدًا ليفعلوها في بلادهم.

يعاني المصريون من تصرفات الشباب سليلي العائلات المالكة في الخليج الذين يأتون إلى القاهرة كما لو أنهم يستطيعون شراء كل شيء بأموالهم بدءًا من التحرر من الكثير من القيود المفروضة عليهم في بلادهم إلى استمالة العاملين في الفنادق الكبيرة، ووصولاً إلى إفساد موظفين في مؤسسات حكومية في مقابل الحصول أحيانًا على خط تليفوني (ربما "يقترضونه" من صاحبه دون علم لديه بذلك). من بين ما يحصل عليه الأمراء المدللون أيضًا حرية التصرف بلاحدود ولا قيود عن طريق الرشوات الكبيرة أو الصغيرة للمسئولين الحكوميين، هذا على الأرجح ما حدث وفقًا لما كشفت عنه التحقيقات الصحافية المختلفة في الأيام التالية للحدث المروع الذي حصد فيه أميرٌ قطري جمعًا من الأشخاص التي كانت تشاهد سباقه غير الشرعي بسيارته على طول الطريق المؤدية إلى مطار القاهرة الدولي في سبتمبر ٢٠٠٥ .إنه الأمير سعود بن سلمان آل ثاني البالغ من العمر ثمانية عشر عامًا فقط، ولكنه على ما يبدو مولعًا بسباقات الفورميولا وان، وكان يقود سيارته بسرعة مائتى كيلومتر في الساعة عندما طار على الجمهور. ولم يُصَب بأذى بل والأكثر من ذلك أنه كان لديه من الطاقة والحيوية ما سمح له بالهرب بسرعة إلى المطار واستقلال طائرة إلى جدة تاركًا وراءه خمسة قتلى وعشرين جريحًا.

يتحدث الشهود ليس فقط عن تأخر إسعاف المرضى، ولكن يتحدثون أيضًا عن الدور الغريب الذي قام به رجال الشرطة الذين اتُّهموا بأنهم لم يفعلوا شيئًا بل وإنهم كانوا قد أغلقوا الطريق، ربما عن طريق الرشوة، لتسهيل السباق غير الشرعي. هذه الواقعة، وهي الأشهر من بين مثيلاتها على مر السنين، أحدثت صخبًا، لأن الشهود والصحافيين شجبوا الحادث وطالبوا بتحقيق العدالة حتى وإن كانت لديهم قناعة ـ أكدوا عليها أكثر من مرة ـ وهي أن السلطات المصرية سوف تتساهل مع أمراء الخليج المدللين، فسلامتهم من أي مساءلة أو معاقبة أمر مؤكد، مثلما كان يحدث دائمًا. إلا أن السرعة الجنونية التي قاد بها الأمير سعود سيارته وردّ الفعل الجماهيري عليها أجبرتا الحكومة المصرية على فتح الموضوع مع الدوحة التي قامت بدورها بإلقاء القبض فورًا على الشاب، عضو العائلة صاحبة السلطة في قطر، عائلة الأمير الذي أسس قناة "الجزيرة". أما عن مسار القضية في المحاكم فهي قصة أخرى.

ما يأخذه المصريون على أثرياء شبه الجزيرة، في هذه الحالة كما في الحياة اليومية بشكلٍ عام، هو تحديدًا ذلك الشعور الأكيد بالحصانة الذي يصاحب إقامتهم خارج بلادهم. حصانة تستند على المال فقط، وتسمح بأي تجاوز للقواعد وأحيانًا تدوس على كرامة عرب آخرين. باختصار دولارات دول البترول يسيل لها اللعاب، ولكن العالم العربي له من الأصالة والعزة الوطنية ما لا يمكن شراؤه بالمال. هكذا هي المسألة بالنسبة لرشيد رمزي وإخوانه، هكذا هو الأمر بالنسبة للاثنين وثمانين متجرًا المتهالكة المتربة التي تحمل اسم "عمر أفندي"، النسخة المصرية من سلسلة محلات Marks&Spencer الإنجليزية أو سلسلتنا العريقة Rinascente، وإنها المحلات التي حاولت الحكومة المصرية خصخصتها في ربيع ٢٠٠٦ بعد العرض الذي تلقته من مجموعة "أنوال" ملكة توزيع الجملة السعودية.

تبدأ قصة "عمر أفندي" الذي يعد واحدًا من رموز تاريخ مصر، على ضفاف النيل منذ مائة وخمسين عامًا بالضبط عندما افتتحت في القاهرة عام ١٨٥٦ محلات Orosdi-Back الكبيرة التي أخذت اسمها من رجلي الأعمال النمساويين ـ المجريين اليهوديين Leon Orosdi و Hermann Back اللذين دخلا بهذه

المحلات عالم التوزيع الكبير الذي كان يديره رجال أعمال يهود أصحاب محلات كبيرة لازالت مشهورة حتى الآن في العاصمة المصرية مثل شيكوريل، بنزيون والصالون الأخضر. وكان يتردد على محلات Orosdi-Back جميع سكان القاهرة من المصريين والأجانب.

إلا أن الزمان يمضي أيضًا بالنسبة للمحل الكبير الذي حظى في أحد مقارِّه الأكثر أهمية، في شارع عبد العزيز، بتصميم متفرد للمهندس الفرنسي المعروف راؤول براندون الذي أهدى بتصميمه هذا واحدًا من أكثر المباني جمالاً في القاهرة في أوائل القرن العشرين. وهكذا تحول Orosdi-Back إلى "عمر أفندي"، ولكنه استمر في بيع ملابس وأثاث ومفارش سفرة ومناشف وأطباق وأوانٍ للطهي حتى مجيء جمال عبد الناصر.

بعد ثورة ١٩٥٢، بدأت قصة تأميم "عمر أفندي" الطويلة التي استمرت حتى يومنا هذا. يبدو أن شهرة "عمر أفندي" لم تتأثر في بادئ الأمر بالتغيرات التاريخية في مصر، بل إن "عمر أفندي" كان أحد علامات الثورة، فعلى أرفف محاله نجد القطن المحلي، فخر الخبرة المصرية في العهد الناصري من منتجات صناعة الغزل والنسيج الحكومية، وهي أيضًا مؤسسة عملاقة مكتظة بعمالة زائدة أصبحت اليوم متهالكة وتنتظر فرصة للخصخصة. في أروقة "عمر أفندي" تجد الأجهزة الكهربائية والموتوسكلات والأطباق وأزياء تحمل طابع الثورة كما تجد أيضًا الطراز الجديد للموظفين الذي يتراوح بين التراخي واللامبالاة المصرية وبيروقراطية الروس، الحليف الكبير لعبد الناصر. ويعمل في هذه المؤسسة منذ الخمسينيات عدد كبير من الموظفين في زيادة مطردة عن الحاجة، يعملون بفلسفة الموظف أكثر من فلسفة البائع: هَمُّهم ختم الفواتير ولصق الماركات ومراجعة الصناديق واللفائف والضغط على آلة الخزينة التي لو رآها كافكا لألهمته قصة من قصصه المأساوية.

كان من الضروري أن يتحول "عمر أفندي" مع مرور الوقت إلى النمط التقليدي للمؤسسة غير الفعالة. المؤسسة المتخمة بموظفين يمكن الاستغناء عنهم؛ يعمل في "عمر أفندي" ستة آلاف موظف بينما في واقع الأمر يكفي أيضًا ثلثهم. إنه وضعٌ اقتصادي صعب انتقل فقط العام الماضي من خطر الخسارة إلى

مكسب يصل بالكاد إلى مليوني جنيه مصري أي ما يعادل أقل قليلاً من ثلاثة آلاف يورو. اثنان وثمانين فرعًا بعضهم يخيم عليه البؤس والكآبة لدرجة أن دخول الفرع الذي يبعد قليلاً عن المتحف المصري، وسط محلات الملابس الرخيصة، قد يعتبر نوعًا من أنواع الشجاعة.

القصد: على مدى عشر سنوات حاولت الحكومة المصرية بيع "عمر أفندي" بجيش موظفيه ، فشلت في ١٩٩٩ وكذلك في ٢٠٠١، وحاولت من جديد بين ٢٠٠٥ و٢٠٠٦ إلى أن وجدت أخيرًا مشتريًا ليس داخل مصر وإنما في الرياض حيث مجموعة "أنوال" السعودية الكبيرة في مجال التوزيع على المستوى الوطني. خمسمائة مليون جنيه، ما يعادل حوالي ثمانمائة مليون دولار كان عرض "أنوال" لشراء مؤسسة عملاقة مثل "عمر أفندي" الذي ثمّنته اللجنة المصرية التي شكلت خصيصًا لهذا الأمر، بأكثر من هذا بكثير. عرض "أنوال" كان ضئيلاً جدًا طبقًا لآراء النقاد الذين شنّوا هجومًا عنيفًا على صفحات الجرائد المستقلة على هذه الفضيحة متهمين الحكومة ببيع كنوز الأمة بثمن بخس ويخشون من وجود شبح الفساد وراء الصفقة. وفي النهاية على الرغم من التمرد والأصوات الثائرة، نجحت الحكومة المصرية في بيع "عمر أفندي" لـ "أنوال" مقابل مبلغ يتعدى بقليل المائة مليون دولار في أكتوبر ٢٠٠٦ مع بعض التحفظات: الإبقاء على عشرة في المائة من الأسهم ملكًا للحكومة المصرية والإبقاء على عدد كبير من الوظائف الموجودة وسداد الديون المتراكمة.

وراء الجدل لم يتخف ما كان هناك من شعور بعدم الارتياح حيال بيع "عمر أفندي" لشركة أجنبية وبالأخص سعودية. استقبلت السعودية طيلة سنوات عديدة جموع المهاجرين المصريين الأكثر عددًا، وأولئك الذين عادوا فيما بعد إلى الوطن الأم حاملين معهم ـ إضافة إلى الأموال ـ عادات ولهجات وأساليب تنتمي بلا شك إلى جدة والرياض والظهران وألقوا بالتالي بثقلهم هذا في التغيرات الاجتماعية الثقافية والدينية في المجتمع المصري في الثلاثين عامًا الأخيرة.

وقد اشتعلت ثورة مماثلة من عدم التقبل عندما تم بيع واحدة من الشركات الرائدة في مجال الغناء، وهي "فنون" التي كان قد أسسها علاء الخواجة وزوجته الممثلة إسعاد يونس في ٢٠٠٢ . تم بيعها إلى الأمير وليد بن طلال بن عبد العزيز

المعروف في إيطاليا بصلاته بسيليو بيرلوسكوني، ولكن ليس بأهم ما يميزه ألا وهو أنه صاحب شركة "روتانا" أحد عمالقة عالم الفيديو كليب، الموسيقى الخفيفة والأغاني التي تذاع على شاشات التليفزيون. صاحب شركة تمتد فروعها أيضًا في عالم سياحة الترف. عندما اشترى الأمير وليد، وهو أحد أمراء العائلة المالكة في المملكة العربية السعودية، "فنون"، كان سبب الجدل هو نفسه السابق: بيع الثروة الثقافية لأغنياء الخليج، وذلك لأن من بين مقتنيات "فنون" ما يشتمل على حقوق التوزيع لأسطورتين من أساطير الغناء العربي: عبد الحليم حافظ وفريد الأطرش. وجوهر الجدل كان الشركة محل البيع ذاتها: شركة إنتاج و توزيع أغانٍ. لم يكن أحد ليشن حربًا هكذا كبيرة إلا إذا كانت شركات إنتاج وتوزيع الأغاني في الوطن العربي تمثل في حد ذاتها مؤشرًا لفهم أين اتجهت شريحة كبيرة من الاستثمارات الضخمة في السعودية والإمارات في الآونة الأخيرة، اتجهت، حيث يمكن أن يكون لها تفاعل حي مع الجمهور وتكون على مرأى من الناس بشكلٍ مباشر أي عالم التليفزيون بكل ما يحويه.

التليفزيون العربي له في الغرب اسم واحد: "الجزيرة"، ولكن "الجزيرة" بكل ما أتت به من ثورة في تاريخ الأثير في المنطقة فإنها تركز فقط على الأخبار، ولذا فإن أهمية "الجزيرة" تكمن في جانبٍ واحدٍ فقط مما يحدث على شاشات التليفزيون المتاحة في بيوت الدار البيضاء والرياض ورام الله وتونس. أما الوجه الآخر لهذه الشاشات الصغيرة فهو مُنوَّعات التسلية التي ركزت عليها الاستثمارات السعودية منذ أن ظهرت على الساحة دولارات البترول والتأثير الثقافي للملكية أي نظام الحكم في السعودية على يد عبد العزيز آل سعود. ظهرت هذه التأثيرات على الساحة في الثمانينيات كي تعوض ما واجهته مصر من صعوبات وهي المنتجة والمُصدِّرة للثقافة الجماهيرية في المنطقة وتم تهميشها من قبل الجامعة العربية بعد توقيع معاهدة كامب ديفيد في ١٩٧٩ والسلام مع إسرائيل. لقد استفادت السعودية من هذا الفراغ الذي خلفته مصر، لتبدأ عصر القنوات الفضائية التي لازالت تحتفظ بمستواها العالي مثل art لصاحبها الملياردير السعودي صالح كامل (رقم ١١٤ بين أثرياء العالم وفقًا لترتيب "Forbes") و"الأوربيت" ولاسيما Mbc التي لاتزال إلى يومنا هذا ملكة المساء والسهرة بما في ذلك الأفلام وعروض الـ Reality show.

إن العمل التليفزيوني بالنسبة لرجال الأعمال السعوديين يعني ثقافة عامة من خلال إنتاج أفلام سينمائية وأغانٍ وعائد مادي فوري من خلال الهواتف المحمولة (من الرسائل القصيرة إلى الرنّات). لقد عرف الأمير وليد إذن كيف ينجح على أكمل وجه في عمل صفقات في عالم الترفيه العربي وفي الوقت ذاته يلعب الأمير وليد دور الثري السعودي الذي أحدث انقلابًا، حسبما يرى مهاجموه، في الثقافات المحلية في المنطقة. لا لأن "روتانا" تعرض على شاشاتها التيار الوهابي المتشدد السائد في الرياض أو أنها تُعبّر عن الحياة اليومية في السعودية، على العكس تمامًا فنحن لا نرى على شاشات "روتانا" سيدات ترتدين الحجاب، وتستقطب الشركة أفضل المغنيين الذين كثيرًا ما تجبرهم على توقيع عقود احتكار طويلة الأجل، يرى النقاد أنها بنود يمكن تحقيقها فقط لأن الأمير وليد ملياردير، ولأن "روتانا" تعمل في جو تسيطر عليه ثقافة الاحتكار. هذا ما كشفت عنه إحدى المطربات الواعدات وهي دنيا مسعود: "إن "روتانا" تجبر بعض المطربين المصريين على الغناء باللهجة الخليجية بناءً على أوامرها." ومما يؤكد هذه الاتهامات ما تتناقله صفحات المجلات والصحف التي تتحدث عن مستقبل نجوم الأغنية ومشاجراتهم مع شركات الإنتاج المتعاقدين معها عن تهديداتهم بترك "روتانا" للارتماء في أحضان "عالم الفن" القطب الثاني والأخير في عالم الموسيقى في الوطن العربي في الحرب التي لا تنتهي بينهما لاجتذاب المطربين التي تقدر عقود احتكارهم بمبالغ لها ثقلها.

في واقع الأمر، وجد نموذج الثري السعودي في أوضاع ما بعد ١١ سبتمبر هذا المناخ الملائم له. ولكن هذه القراءة ـ على الرغم من أنه يصعب دحضها ـ إلا أنها تظل قراءة جزئية بل وقد تغفل جانبًا من المشهد العام. على أية حال، طرأت على نموذج "الشيخ" السعودي في حد ذاته بعض التغيرات. فإذا ظلت الرفاهية على ما هي عليه والتجاوزات أيضًا التي نرى منها فقط نسخة باهتة في كوستا زميرالدا لازالت توجد جميعها، فإنه بالتوزاي مع هذا النمط قد ظهر وتطور نمط آخر من رجل الأعمال "صُنِع في السعودية" يمثله الأمير ابن طلال والحشد الكبير من رجال الأعمال ومن كتيبة سيدات الأعمال، العاملات دائمًا في تقدم ونمو وتطلع لدرجة أنهن نجحن في العمل على انتخاب ممثلات لهن في الغرفة التجارية بجدة، العاصمة الاقتصادية للمملكة العربية السعودية. ومع مجيء هذا

الجيل الجديد وبخاصة السيدات منه، فَهمْ رجال الأعمال السعوديون (والخليجيون بشكلٍ عام) أن العصر الذهبي لدولارات البترول سينتهي عاجلاً أم آجلاً وأن المطلوب تضامن الأثرياء السعوديين لصالح إخوانهم الفلسطينيين أو مشاركاتهم في برامج جمع التبرعات لضحايا التسونامي في إندونسيا المسلمة أو ضحايا الزلازل في باكستان المسلمة أيضًا لازال من الممكن تحقيقه فقط إذا ازدهر بجانب عائدات البترول العالية اقتصادٌ يتخطى ما في باطن الأرض من الذهب الأسود والغاز الطبيعي ومضاربات أسعار البرميل في البورصة. ولذا فإنه يلزم عمل استثمارات إنتاجية مجددة، لابد من ترك الأثر على السوق العالمية واضعين في بؤرة اهتمامهم بشكلٍ خاص الساحل الأسيوي القريب وطرح مكاسب البترول في السوق حتى تؤتي ثمارها. في كلمةٍ واحدة لا بد من التنويع.

التنوع الواجب هو في الوقت الحاضر كما تفعل دبي منذ فترة ـ جوهرة التكنولوچيا المتقدمة في المنطقة ـ عن طريق الاستثمار في المجالات التي جعلت منها غاية يتطلع لها العالم المتقدم: تكنولوچيا المعلومات، ومؤسسات النشر والتليفزيون والتكنولوچيا وفي النهاية قطاع الترفيه بأكمله: سياحة، متنزهات، منتجعات وكل ما يتعلق بوقت الفراغ. قطاع أصبحت فيه دبي ذاتها رمزًا له بكونها مكان الأرقام القياسية والترف بعيد المنال، المكان الذي يوجد فيه الفندق الوحيد في العالم المصنف ستة نجوم والفنادق التي تم تصميمها خصيصًا للإبهار من الجزيرة الاصطناعية على هيئة النخلة إلى الفندق تحت الماء.

الترفيه والتليفزيون والاتصالات والتكنولوچيا المتقدمة، هذه هي الأمثلة البارزة، والتي يسهل ملاحظاتها في قائمة طويلة من المجالات المهمة التي يجري رجال الأعمال العرب الاستثمار فيها كي لا يكونون مُكَبَّلين باقتصاد البترول الذي يقتصر على عائده. الجانب الآخر الأقل شهرة، من القائمة يضم استثمارات خيالية في مجالات استراتيچية نذكر من بين أهدافها الكثيرة، الدخول في شركات متعددة الجنسيات عريقة أو شراء النصيب الأكبر فيها؛ مثال حديث لذلك محاولة شركة موانئ دبي Dubai Ports World (Dpw) في ربيع ٢٠٠٦ الدخول في سوق الموانئ الأمريكي الثري من خلال شراء الشركة البريطانية Peninsular & Oriental Steam Navigation Co. (P & O) التي كانت تشرف

على أهم الموانئ الأمريكية على المحيط الأطلنطي مثل نيويورك ونيوارك وبالتيمور وفيلاديلفيا وميامي. إنها صفقة ضخمة بلا شك تُبرهن على ما يملكه مخططو الاقتصاد في الخليج من حس وأموال ضرورية لإبرام صفقات تؤثر في الاقتصاد العالمي وتحرر شيوخ البترول من الاعتماد على عائد النفط.

لقد حاول مجمع خدمات الموانئ الـ Dpw الإماراتي القيام بالضربة الكبيرة بالإشراف على الموانئ الأمريكية الرئيسة على الأطلنطي، ولكن أجهض هذه المحاولة بعض أعضاء الكونجرس الأمريكي وذلك لتلافي أن يتمكن "بازار متاح للأمم الإرهابية" (هكذا وصف أحد النواب دبي) من وضع قدمه في قطاع المرافئ الأمريكي الاستراتيجي. انسحبت الـ Dpw من تلقاء ذاتها، نظرًا للمعوقات السياسية وليست الاقتصادية، لتترك التحكم في الموانئ لإحدى الشركات الأمريكية. إلا أن أثرياء دبي تمالكوا موقفهم في وقت قليل فمن المؤكد أن الـDpw لم تكن تعلق استقرارها أو نموها على المشروع الأمريكي فقط، إذ أن شبكة موانئها تغطي بالفعل مساحة كبيرة من العالم. وأكثر من ذلك وجودها في المستقبل، من خلال الموانئ الصينية (بما فيها هونج كونج وشنغهاي) وموانئ الهند وكوريا الجنوبية وصولاً إلى أستراليا وجمهورية الدومينيكان ورومانيا. هذا بالطبع بالإضافة إلى وزن الـ Dpw في مسارات الملاحة العالمية بإدارتها لجزء كبير من المرور الملاحي بين الخليج الفارسي وقناة السويس بالإشراف على دبي وجيبوتي وجدة.

على الرغم مما طرأ من أحداث ١١ سبتمبر، شهدت ـ على العكس ـ السنوات الأولى من الألفية الثالثة ازدهارًا في شبه الجزيرة. والفضل في هذا يعود إلى الكنز الحقيقي الذي ينتشر من الإمارات إلى جميع أنحاء العالم الإسلامي الكبير ويتمثل في التعامل المالي الإسلامي الذي تهاجمه الولايات المتحدة وتسدد له ضرباتها بانتظام فهي لا تكف عن الربط بين البنوك الإسلامية وتمويل الإرهاب الأصولي. إلا أن الاتهامات وإغلاق مؤسسات خيرية كانت تجمع أموالاً طائلة وكل الضغوط التي تفرضها واشنطن لم تفلح في إيقاف هذا الازدهار الذي يستند إلى سيولة دسمة من أرباح البترول اجتمعت مع وجود قوى للشريعة ـ القانون الإسلامي ـ في دول الخليج. إنها ظاهرة جديدة بدأت منذ أكثر من ثلاثين عامًا

وتمثل ـ طبقًا لبيانات صندوق النقد الدولي ـ في أكثر من ثلاثمائة مصرف في خمس وسبعين دولة. أكثر من مائتي وخمسين مليار دولار في ٢٠٠٥ مع معدل نمو متوقع يقدر بالخمسة عشر في المائة سنويًا واتجاهًا قويًا للدخول في عالم الدول المسلمة غير العربية بدءًا من ماليزيا، الدولة التي تتمتع، مثلها مثل البحرين، بأعلى نسبة مصارف ومؤسسات مالية تتبع تعاليم الشريعة الإسلامية في مجال المال والاستثمار.

ومن جهةٍ أخرى، فإن وصم البنوك الإسلامية بمجمِّع رءوس الأموال لدعم النشاطات الإرهابية على طريقة بن لادن لا يعني فقط وضع الأعشاب جميعها دون تمييز في حزمةٍ واحدة، ولكن يعني أيضًا تغافل حقيقة دولية يجب علينا، شئنا أم أبَينا، التعامل معها. ولقد تعامل معها الغرب بالفعل في لندن وفي لوجانو، حيث أصبح هناك ليس فقط خبراء في المصارف الإسلامية ـ كما لو أن هناك من يعرف "العدو" ـ ولكن هناك أيضًا قطاعات من مؤسسات ائتمانية باتت تستخدم المعايير الأخرى لجذب العملاء المسلمين الذين ـ طبقًا للشريعة ـ يعتبرون البنوك الإسلامية "حلال" أي مسموح بها، بينما الأخرى "حرام"(١)، تمامًا كالفرق بين شريحة من لحم العجل وأخرى من لحم الخنزير.

ومن جهةٍ أخرى، فإن أسس البنوك الإسلامية قرَّبت بين مؤسسات مثل البنوك الغربية المقامة على القيم الأخلاقية ـ القوية في المجال الخدمي ـ والمؤسسات الائتمانية الملتزمة بضوابط "الشريعة"، على أرضيةٍ مشتركة، وهي نظام يقوم على قيم أخلاقية يمكن أن ترتكز عليه أيضًا طريقة التعامل مع الأموال، ولذا فليس من الصعب إدراك كيف أنه بالنسبة للبنوك "الحلال": ممنوع المراباة وممنوع أيضًا الاستثمار في شركات تتعامل في التبغ والمقامرة والكحول والأسلحة. وهكذا فإن تحريم المراباة والفوائد، "الربا"(٢)، يصبح واحدة من قنوات الحوار والعلاقات بين البنوك الإسلامية من جهة، ومن الجهة الأخرى، القطاعات الحساسة التي تتأثر بعولمةٍ ينظمها ويفيد منها ليس الغرب وحده.

---

(١) استخدمت المؤلفة كلمتي "حلال" و"حرام" بالنطق العربي: halal, haram، إذ أنهما أصبحتا مفهومتين لدى القارئ الإيطالي. (المترجمة)

(٢) جاءت أيضًا هذه الكلمة هكذا في النص الأصلي: riba (المترجمة).

وبعيدًا عن الدول الغربية، فإنه على أية حال بات أمرًا واقعًا أن ضربًا من الاقتصاد الذي يحترم تعاليم الإسلام قد نجح في التواجد أيضًا في بلادٍ كانت تعتبر إلى سنوات قليلة مضت رمزًا من رموز العلمانية في الوطن العربي مثل فلسطين التي ظهرت فيها ليس فقط البنوك، ولكن منذ قليل أيضًا شركات التأمين "الحلال". يقول مازن سينوكروت: "إذا أتيح لي الاختيار سأفضل أنا أيضًا الشريعة ونوعًا من الأعمال يتناسب مع كوني مسلمًا. ولكن هذا ليس الوقت المناسب. فلابد أولاً من كسب ثقة الآخرين بتوضيح جميع النقاط التي لا يفهمها الغرب، ولهذا فإنني بجانب حسابي الجاري في إحدى البنوك الإسلامية لدي حسابٌ آخر في نوع آخر من البنوك.". سينوكروت هو واحد من أهم رجال الأعمال الفلسطينيين، فهو صاحب شركة حلويات مشهورة في جميع الأراضي المحتلة، الشركة التي تنتج ويقر أريحة الشهير، والتي أنتجت بمناسبة مونديال ٢٠٠٦ في ألمانيا بسكوت بالفيتامينات: "لأن كثيرًا من أطفالنا يعانون سوء التغذية بسبب الصراع العربي الإسرائيلي واستكمال النقص من الفيتامينات بات أمرًا ضروريًا" قال سينوكروت وهو يشير إلى علب المنتج الجديد.

شغل سينوكروت منصب وزير الاقتصاد لمدة تقل عن سنة بقليل بين ٢٠٠٥ و٢٠٠٦ في آخر حكومة لفتح يرأسها أحمد قريع. إلا أن تعيين سينوكروت وزيرًا اعتُبِر تقربًا لحماس، نظرًا لأن رئيس الاتحاد الصناعي الفلسطيني آنذاك كان رجلاً يحظى أيضًا بتقدير القطاعات الإسلامية لتقواه وإيمانه، ولذا سينوكروت الذي يحترمه العلمانيون في فلسطين، وكذلك الدوائر الغربية ليس غريبًا أيضًا على دول الخليج حيث شارك أكثر من مرة في مؤتمرات اقتصادية، إذ أن رؤية سينوكروت تذهب إلى أبعد بكثير من مصنعه ذي الثلاثمائة وخمسين موظفًا في الضاحية الصناعية في رام الله.

"حقًا، تعتبر الثقافة التي تمثلها البنوك الإسلامية ظاهرة جديدة في فلسطين فمثلاً قبل اتفاقيات أوسلو لم يكن مسموحًا بهذه البنوك." هكذا يوضح سينوكروت، في مكتبه في مبنى الإدارة الصغير الذي سرعان ما تلمح فيه التواضع ـ إحدى السمات الأساسية في نوع من أنواع الإسلام السياسي ـ يتمثل في ثياب الموظفات وسلوكيات من يترددون على المكان. ويستطرد سينوكروت:

"يوجد الآن ثلاثة بنوك إسلامية محلية وشركة تأمين. قد يستهوي خمس أو ربما أيضًا ربع، السكان نوعًا من الاقتصاد يتناسب أكثر مع تعاليم الإسلام وإن هذا توجهٌ موازي لما يحدث الآن في شبه الجزيرة، حيث يرغب ثلثي السكان في التجارة الإسلامية طبقًا لأحدث الأبحاث." السبب وراء ذلك بسيط في نظر سينوكروت: عندما يتعلق الأمر بالدين يصبح من الأسهل كسب ثقة الناس.

أصحاب ملك مصريون

تعلن المعاملات المالية الإسلامية عن وجودها وقوتها، في وضوحٍ في القاهرة. فمثلاً بنك فيصل الإسلامي واحد من أحدث ناطحات السحاب التي أنشئت على بعد خطوتين من وسط البلد، بالقرب من النيل في حي الدقي الراقي أمام أحد الفنادق التي يحبها كثيرًا السائحون الخليجيون، أي "شيراتون القاهرة". إلا أن البنوك الإسلامية في مصر ليست بقوة مثيلاتها في البحرين أو الكويت، لأن من حظت في الخمس عشرة سنة الأخيرة بنمو كبير كانت بالأحرى طبقة من رجال الأعمال التي اغتنت طبقًا للمعايير التقليدية للرأسمالية الغربية وبدعمٍ كبير من الدولة.

إنهم أصحاب الأملاك، أو لنقل أصحاب الأملاك سابقًا، في مصر الذين مازالوا يتمتعون بنفوذٍ كبير في أرض أعريت بالفعل منذ بضع سنوات عن "طريقها القومي إلى الانفتاح" إلى أن وصلت إلى هدف لم يكن أحد ليتوقعه منذ سنوات قليلة مضت ألا وهو تصدير الاستثمارات إلى أوروبا مثلما فعل نجيب ساويرس في ٢٠٠٥ عندما اشترى شركة المحمول Wind لدينا في إيطاليا.

ثمة حدث بعينه أدى إلى ظهور فراعنة المسلح ألا وهو فك القيود من على النظام المصرفي الذي قررته الحكومة المصرية أوائل التسعينيات بناء على طلب صندوق النقد الدولي. وعن طريق هذا الإصلاح المصرفي وصلت مجموعة كبيرة من رجال الأعمال إلى مكانتهم المتميزة الآن بنمو اقتصادي رهيب بدأ بمجال البناء في القاهرة، المدينة العظيمة التي يصل عدد سكانها الذي يصل إلى عشرين مليون نسمة ثم عن طريق المنافسة في ذات المجال في مواقع مهمة مثل الساحل الشمالي والبحر الأحمر.

ولقد برز في هذا المجال رجال أعمال ارتبطوا في الخمسة عشر عامًا الأخيرة بعلاقاتٍ مميزة مع نظام مبارك، ما وصفه البعض بما يشبه "الزواج" بين هذه الفئة والنظام. نعم إنه جاء كثمرة للانفتاح الاقتصادي الذي طالبت به حقًا المؤسسات المالية العالمية، ولكنه في الوقت ذاته دليل على علاقة من الولاء المتبادل فاقت كل التوقعات. ليس فقط لأنه أتيحت لهذه المجموعة من رجال الأعمال وآخرين مثلهم عطاءات وامتيازات لم تكن لتخطر على بال أحد في سياق آخر أكثر نظامًا، وإنما لأن هذه "العلاقات الخطيرة" أفسحت الطريق لدخول رجال الأعمال إلى عالم السياسة من خلال مقاعد في البرلمان ورئاسة لجان مهمة في المجال الاقتصادي مثل لجنة التخطيط التي كانت من نصيب ملك صناعة الحديد أحمد عز، منذ بضع سنوات. ولقد بدأ هذا التقليد في ١٩٩٥ عندما أصبح رجال الأعمال يُشكِّلون خُمس عدد النواب الجدد. ولازال هذا التقليد مع ذلك مستمرًا إلى اليوم، حيث تدور المعارك الانتخابية حتى آخر صوت في انتخابات خريف ٢٠٠٥ وتكون في أحيانٍ كثيرةٍ بين ممثل الإخوان المسلمين الذي يتمتع بتأييد شعبي كبير من جهة والكبير الذي تتضمنه قائمة حزب مبارك، الحزب الوطني الديموقراطي من الجهة الأخرى؛ ولقد احتجَّ القضاة المصريون في إحدى الدوائر على التزييف والتلاعب لصالح الحزب الحاكم مطالبين بلجان تحقيق تم الرد عليها بإجراءات أمنية ضد القضاة.

أقرضت البنوك المصرية بفضل دعم النظام مبالغًا طائلة لمشروعات البناء التي تقدمت بها هذه المجموعة المحدودة من رجال الأعمال. ولقد ظهر جيل جديد من العمالقة بدأ يعمل على غرار نموذج بزنس الإنشاءات السابق، ولكنه تطور بعد ذلك ليجد في عالم التليفزيون والاتصالات والترفيه مجالاتٍ جديدة لتحقيق أرباح أعلى بكثير من أرباح البناء.

رجل مثل أحمد بهجت، على علاقة جيدة بالنظام، كان أول من بدأ المغامرة في عالم التليفزيون بتصنيع أجهزة التليفزيون في البداية ثم بافتتاح قناتين لهما جماهير عريضة من المشاهدين: "دريم ١" و "دريم ٢"، غداة أحداث ١١ سبتمبر، في ٢٠٠١. إنها أول قناة تليفزيونية مصرية تشارك فيها الهيئة العامة للإذاعة والتليفزيون بعشرة بالمئة فقط. لم تكتف "دريم" بعرض الفيديو كليب والموسيقى

كما حدث في أولى القناتين، ولكنها افتتحت في مصر البرامج الحوارية Talk show الناجحة التي يتابعها شريحة كبيرة من الجماهير ويغلب عليها طابع التوتر مع النظام، وقد أصبحت منبرًا لعناصر من المجتمع لا تجد حتى الآن في التليفزيون الحكومي المُوقَّر مجالاً يسمح بالإنصات لها. بهجت مشهور أيضًا لكونه أحيا التفاوض مع البنوك المصرية في نوفمبر ٢٠٠٤ بشأن ديون تصل إلى ثلاثمائة وخمس وثمانين مليون دولار من خلال قروض جديدة وشراكة في مشروعه المتخصص في الإلكترونيات والتليفزيونات، وكذلك مشاريع بناء وتعمير حول القاهرة مثل "دريم بارك" مدينة الملاهي الضخمة التي أنشأها في ضاحية القاهرة الصحرواية، بعد عشر سنوات من تأسيس مجموعته.

على أية حال، فإن الحالة الأكثر شهرة تبقى حالة عائلة ساويرس، صاحبة "أوراسكوم". وهناك من هم أقل شهرة ولكن على نفس القدر من الأهمية مثال الإخوان أديب الذين زادت شهرتهم بعد استثماراتهم في الإذاعة ويجمع بين المجموعتين عنصران مشتركان يقوم أولهما على شعار واضح محدد وهو أن الاختراعات الحديثة جميلة، ولكن ما تحمله من رفاهية أجمل، وبعد ذلك تتحقق النتائج المبهرة السريعة جدًا في عالم الهواتف والإعلام والموسيقى والسينما والسياحة والترفيه.

تبنَّت عائلة ساويرس استراتيجية عمل طموحة جعلت منهم Rockefeller مصر، تحت رعاية مؤسس الأسرة أنسي، وترتيبه ١٢٩ في ترتيب "Forbes" لعام ٢٠٠٦ للرجال الأكثر ثراء في العالم، ولكن الأهم من ذلك أنه قبطي "صعيدي" أي أنه رجل متمسك بالتقاليد والعائلة مثله مثل من يأتون من مصر العليا. أنسي هو رجل الأعمال في مجال البناء الذي هاجر أولا إلى القاهرة ثم هرب إلى ليبيا حتى يتحاشى التأميم الناصري وفي النهاية عاد إلى الوطن بعد مجيء أنور السادات والانفتاح الاقتصادي وظل دائم التمسك بأصوله ومبادئه. الإنشاءات من المنتج إلى المستهلك: من مصانع الأسمنت إلى العمارات الجميلة، ولكن عندما كبر أبناؤه الثلاثة بحيث أصبحوا قادرين على الدخول في المجموعة، تعين على أنسي أن يستسلم للحداثة التي جاء بها، على الأخص، متعدد المواهب من بين أبنائه الثلاثة: نجيب، رجل الهواتف المحمولة ليس فقط في القاهرة، وإنما في العالم

العربي بأكمله، العملاق الذي أدخل الهواتف المحمولة إلى مصر بشركته "موبينيل" ثم دخل بعد ذلك السوق العراقية بشركة "عراقنا" التي نجحت فقط جزئيًا فمن جهة، النجاح الكبير للمبيعات: أربعة ملايين تعاقد، ولكن من جهةٍ أخرى فالوضع الأمني المتأرجح لفنيي وموظفي الشركة يكلف ساويرس ثلاثين مليون دولار أجور للجيش الصغير المكون من ثلاثة آلاف رجل مكلفين بحراسة العاملين بالشركة. على أية حال، فإن شركة العراق ما هي إلا أحد الملامح البارزة في استراتيجية كبيرة قادت أكبر الإخوة ساويرس إلى الاستثمار في مجال الهواتف في جميع أنحاء الشرق الأوسط وشمال إفريقيا (بما فيه سوريا والجزائر) ثم إلى إطلاق حملة شراء في إفريقيا وآسيا من نيجيريا إلى باكستان مرورًا بصفقته الأهم بعد شراء Wind وهي المساهمة بحوالي ٢٠ % في Hutchison مما يعني اتخاذه مكانًا له في هونج كونج، وبالتالي إمكانية الدخول في سوق جنوب شرق آسيا.

وتظل مادة هذه الاستثمارات هي الهواتف المحمولة التي لازالت تشهد انتشارًا كبيرًا فقط في دول العالمين الثالث والرابع أي أنها مشاريع كان اختيار Wind فيها استثنائيًا، حيث كان اختيارًا ضد الاتجاه السائد مقارنة بما كان يحدث قبل أن يصل ساويرس إلى روما: ففي السابق كانت الشركات الأوروبية (فودافون على رأس القائمة) هي التي تستكشف السوق العربية، الآن أصبح العرب (من غير السعوديين) هم الذين يكتشفون القارة العجوز، فيما يتعلق أيضًا بالمجالات التحديثية.

وإلى جانب الهواتف المحمولة لم يزدر نجيب ساويرس أبدًا بزنس الترفيه بل إنه بدأ مشواره بافتتاح دور العرض السينمائي متعددة القاعات في القاهرة "Renaissance" التي باعها فيما بعد. ولازال هناك حلم يراوده من سنوات وهو أن يفعل مثل برلوسكوني: إطلاق أول تليفزيون عربي خاص، أرضي وليس فضائي، فالقنوات الأرضية تصل إلى عدد أكبر من المستهلكين وتكلفتها أقل، ولكن في الوقت نفسه إنشاؤها أصعب بكثير نظرًا لأن جميع أنظمة المنطقة تتمسك بشدة بمنع فتح قنوات ما لم تكن بإشراف الدولة المباشر. لقد نجح ساويرس في تحقيق حلمه في واحدة فقط من بلاد المنطقة: العراق التي ترزح تحت نير صراع يشبه كثيرًا القصة الطويلة المؤلمة التي عاشتها فيتنام و شبه

جزيرة الهند الصينية، وهناك أنشأ ساويرس قناة "نهرين"، المحطة التي سجلت بالفعل رقمًا قياسيًا وهو أنها أول قناة أهلية أرضية في العالم العربي كله.

أما الإخوان أديب فإنهم يركزون نشاطهم على نوع آخر من الاتصالات فهم أصحاب أول محطات إذاعة خاصة FM في تاريخ مصر، حيث تعتبر الإذاعة ليس فقط جزءًا لا يتجزأ من الحياة اليومية، ولكنها أيضًا رمزٌ لحلم عبد الناصر بالقومية العربية التي كانت إذاعة صوت العرب أهم أدواته لتحقيق حلم منطقة كانت تريد أن تتحرر ليس فقط من السياسات الاستعمارية القديمة والجديدة، ولكنها كانت تريد التخلص أيضًا من شعور قوي بالدونية. تمتلك مجموعة الإخوة أديب المعروفة باسم Good News Group محطتين إذاعيتين، واحدة بالعربية والأخرى بالإنجليزية، ولقد كسرت المجموعة بافتتاح هاتين المحطتين في ٢٠٠٢ احتكار الدولة للإذاعة. هذه المرة هدف المحطتين، وعلى الأخص العربية منهما واسمها نجوم FM، ليس السياسة والقومية العربية وإنما الموسيقى والإهداءات والتفاعل بين الـ dj مقدم البرامج وجمهور المستمعين، لا أقل ولا أكثر مما يحدث في مثيلات هذه المحطات في إيطاليا. ولقد حققت المحطتان نجاحًا فوريًا إذا صح حقيقة ما أكَّده رئيس المحطتين من أن عائد الإعلانات عليهما في العام الأول تعدى الثلاثة ملايين دولار.

لقد مهد الإخوة أديب الباب في هذا المجال وتلاهم في ٢٠٠٥ محطة الإخوان المسلمين ذات التكلفة البسيطة، فالإخوان يستخدمون الإنترنت حتى يتغلَّبوا على مشكلة التكلفة، وكذلك ليتخلصوا من سطوة رقابة النظام في مصر المنفتح إلى حدٍ ما، حتى الآن، بشأن الأنشطة الافتراضية.

وكذلك الإخوة أديب لا يزدرون الإنترنت فبوابتهم الإلكترونية واحدة من الأكثر تصفحًا في المنطقة، وكذلك لا يحتقرون التليفزيون فقريبًا ستكون هناك قناة فضائية تحمل شعار Good News ومن ناحيةٍ أخرى فعماد الدين، وهو الأكثر شهرة بين الإخوة الثلاثة، قد أصبح من الوجوهِ المألوفة لدى المصريين من خلال شاشة المحطة السعودية "Orbit" القناة المُشفَّرة التي يمثل فيها الإخوة أديب الجانب المصري؛ لقد كان عماد يقدم فيها على مدى سنوات وحتى نهاية عام ٢٠٠٥ برنامجه الشهير "على الهوا"، برنامج من نوعية Larry King Live

يتعرض لأكثر الموضوعات حساسية في سياسة المنطقة في حرية وحدة شديدين، إلا أنه عندما استضاف البرنامج الرئيس مبارك كان تأييده للنظام المصري ملحوظًا.

إن مهنة الإخراج السينمائي التي كان يشتغل بها الأخ الثاني فيما سبق، كانت وراء الاختيار الأخير ـ ربما الأكثر شهرة جماهيريًا ـ لمجموعة أديب وهو الإنتاج السينمائي. الإخوة أديب، فهم ممولو موسم الأفلام الجديدة ذات الميزانية الكبيرة في تاريخ السينما المصرية. فلديهم برنامج طموح لأفلام من شأنها أن تُدخل إكسير حياة جديدة في مدينة الإنتاج السينمائي المصرية التي مازالت قائمة، ولكنها تختلف كثيرًا عما كانت عليه من رونق وازدهار السيتينيات والسبعينيات عندما كانت في القاهرة مقرًا للنموذج الوحيد للثقافة الجماهيرية في العالم العربي: أفلام أحمد زكي، وعادل إمام، ويوسف شاهين.

- ٥ -
جولة الأستاذ جبريل

يبلغ جبريل سلامة من العمر خمسة وعشرين عامًا، وهو فخورٌ جدًا بتلميذاته بالقرب من خَمس عشرة فتاة في الصف العاشر، ما يوازي الصف الثاني من المدرسة الثانوية لدينا. فتياتٌ في الخامسة والسادسة عشرة من عمرهن يعلمهن الأستاذ جبريل اللغة العربية في مدرسة أطيرة الحكومية للبنات. مبنى المدرسة أبيض يتكون من طابقين، تطل قاعات الدرس على طرقات تشرف على فناء مترب، وقد سويت أرضه التي كان من المفترض أن تتحول إلى ساحة مخصصة للألعاب الرياضية، ولكن نقود المعونة الأمريكية الدولية ما عادت منذ أن وصلت حماس في ربيع ٢٠٠٦ إلى قيادة الحكومة الفلسطينية. التمويل مُعطَّل في واشنطن وفناء مدرسة أطيرة للبنات بقي كما كان: يغطيه التراب، تمكنت المدرسة بالكاد من بناء دورات المياه بتمويل ياباني ثم توقف كل شيء بما في ذلك مُرتبات عدة شهور للمُدرِّسين والعاملين في المدرسة الثانوية بأطيرة، علاوة على أكثر من أربعين مدرسًا آخرين في وزارة التعليم العمومية الفلسطينية.

أطيرة، قريةٌ في الضفة الغربية في ريف رام الله الجدار الذي شيدته إسرائيل كالجرح في جسد الضفة، ويفصلها عن البساتين و القرى المجاورة، وعن شبكة العواطف والأقارب التي طالما ارتبطت بهم. هكذا يتعين على جبريل وتلميذاته السير لمسافات طويلة كي يذهبوا إلى المدرسة. منذ زمن يفصل أطيرة عن القرى الصغيرة المجاورة طريق ٤٤٣ التي يدعونها الفلسطينيون طريق المستوطنين، لأن مشكلة طريق ٤٤٣ أنه يخترق الضفة على شكل مخروط ليكون بديلا للطريق ١ الذي بات مزدحمًا جدًا، وكان في السابق الطريق الوحيد الذي يربط القدس بتل أبيب، وذلك كي يخدم واحدة من أهم المستوطنات الإسرائيلية

التي تم إنشاؤها بعد ١٩٦٧ والاحتلال الإسرائيلي للأراضي الفلسطينية. مودعين هي المدينة الكبيرة التي تقوم بالقرب من أطيرة، وتقع في الجانب الإسرائيلي من الخط الأخضر، أو كما يوضح درور إيتكيس، المسئول عن قطاع المستعمرات في حركة السلام الآن السلمية الإسرائيلية: "جزء كبير منها يقع في أرض "لا أحد" التي تمتد بين الخطين الأخضرين في المنطقة". إنها حالة" خاصة جدًا، حيث إنه لم يتم أي اتفاق بين إسرائيل والأردن لتحديد الخط الأخضر تحديدًا صحيحًا، وهكذا قررت الدولتان ألا تتفقا. وبعيدًا عن الموقف الدبلوماسي، فإن مودعين تجثم على أطيرة. ومع ارتفاع بنايات مودعين من خلفها ووجود الطريق ٤٤٣ تحتها مباشرة وعلاوة على الطريق السريع الجدار الأسمنتي، تبدو أطيرة أصغر من مساحتها الحقيقية.

طالبات المدرسة الحكومية الثانوية في أطيرة يقطعن المسافة بين منازلهن والمدرسة سيرًا على الأقدام حتى عندما يكون المنزل الخاص بإحداهن خارج القرية على الجانب الآخر من الطريق السريع المسموح المرور فيه فقط للإسرائيلين لدواعٍ أمنية. ولذا تذهب الطالبات إلى المدرسة سيرًا على الأقدام كما كان يحدث عندنا قديمًا، ولكن الفرق يتلخَّص في أن أفواج الفتيات والأطفال التي تملأ طرقات ريف رام الله كل صباح كثيرًا ما لا يوجد لديهم بدائل لهذا الوضع. وفي واقع الأمر فتيات مدرسة أطيرة لسن الحالة الوحيدة، فمعظم طلاب الضفة يتجرعون المعاناة نفسها من أجل الذهاب إلى المدرسة الذي كثيرًا ما يصبح التزامًا صعبًا، إن لم يكن ترفًا.

فمن الطلبة من هو مُجبَر على القيام بجولةٍ طويلة كي يذهب إلى المدرسة، لأن الجيش الإسرائيلي قام بوضع الكتل الصخريةِ في الشوارع لسَدِّها، ومنهم من ليس لديه بديل عن الالتفاف من حول الجدار العازل الذي يبلغ ارتفاعه حوالي تسعة أمتار، ذلك الجدار الذي أقامته إسرائيل مغلقة به الشوارع المؤدية إلى الضفة وأعادت رسم خريطتها حتى إن هناك أطفالاً فلسطينيين يسيرون في حراسة أفراد الجيش الإسرائيلي لعدة كيلومترات، طيلة رحلتهم من الكهوف التي يعيشون فيها في أم طوبة على التلال جنوب الخليل، إلى المدرسة في قرية تواني المجاورة؛ وذلك لحماية هؤلاء الأطفال من الاعتداءات المتكررة التي يقوم بها

ضدهم سكان مستوطنات ماعون وهاڤات ماعون المجاورة. وفي الخليل يجب على الأطفال المرور تحت أجهزة الكشف metal detector حتى يذهبوا إلى مدرسة تبعد بعض مئات المترات عن منازلهم، ولكنهم في طريقهم إلى المدرسة يمرون على مقبرة البطارقة والمستعمرات الإسرائيلية في قلب المدينة الفلسطينية الرئيسة جنوبي الضفة. وأخيرًا، وكما هو الحال في النهاية في المناطق الشمالية من نابلس إلى جينين، هناك طلاب يتعرضون لأخطار كثيرة كي يذهبوا إلى مدارسهم، ولقد تركزت تحديدًا في هذه المناطق غارات الجيش الإسرائيلي أثناء وبعد الانتفاضة الثانية. وفي هذه المناطق أيضًا يوجد أكبر عدد من نقاط التفتيش الثابتة والمتحركة. وهنا يتجدد مشهد انتفاضة الحجارة اليومي والمواجه بين شباب المجندين وشباب الطلبة الذين يحملون الكتب تحت ذراعهم.

إذن، عندما تكون الأمور على يرام، يذهب الطلاب إلى المدرسة سيرًا وعندها يطلقون سيقانهم للريح؛ شباب وأطفال يركضون إلى المدارس الحكومية التي تخدم بين الضفة وغزة والقدس الشرقية، ثلثي طلاب فلسطين. أكثر من سبعمائة وخمسين ألف طالب من الابتدائي إلى الثانوي. جزء كبير من الثلث الباقي، أي مائتين وخمسين ألف طالب في العام الدراسي ٢٠٠٥ ـ ٢٠٠٦ يذهبون إلى مدارس Unrwa وكالة الأمم المتحدة التي تهتم بشئون المشرّدين واللاجئين الفلسطنيين منذ حوالي ستين عامًا. وبما أن مدارس Unrwa مكتظة جدًا فتجد أن الحركة لا تكف في الشوارع المحيطة برام الله وهي ممتلئة في جميع ساعات النهار بأطفال وشباب يدخلون ويخرجون من مدارس الأمم المتحدة التي اضطرّت إلى العمل فترتين وأحيانًا ثلاث فترات لتغطي الطلب عليها. وأخيرًا تذهب شريحة صغيرة نسبيًا (أكثر من ستين ألف طالب) إلى المدارس الخاصة والمدارس الخاصة في فلسطين تعني بشكل أساسي المدارس المسيحية.

أسطورة المدرسة الحكومية القديمة

ليست الشوارع الفلسطينية فقط هي التي تَعُج بأطفال يذهبون إلى المدارس، بل إنها شوارع العالم العربي كله، ليس فقط لأن المواليد في جنوب البحر المتوسط كثيرة، أكثر بكثير مما يوصي به منذ سنوات خبراء السكان في الأمم المتحدة الذين لا يُعيرهم أحد انتباهًا. فمن المعروف أن منطقة الشرق الأوسط

تتمتع بنسبة عالية من الشباب، وأنها في نمو سكاني متزايد، إذ يبلغ حجم النمو السكاني لجميع الدول العربية ٢,١ % تقريبًا ـ طبقًا لإحصائيات الـ Unfpa منظمة الأمم المتحدة للسكان لعام ٢٠٠٥ ـ إنه معدل النمو السكاني الهائل نفسه في إفريقيا. ولكن يرى الكثيرون أن هذا العدد الرهيب من الأطفال والمراهقين والشباب تحديدًا هو أحد أسباب عدم الاستقرار وعدم الرضا عن الأنظمة الاجتماعية والسياسية في المنطقة.

جميع الأزياء المدرسية الموجودة متشابهة.أزياءٌ بسيطة دون تكلف، تتكون من بنطلون وقميص للأولاد، غالبًا ما يوجد عليه شعار واضح على الصدر؛ سالوبِت أزرق أو مربعات للبنات فيما يشبه الصيغة العربية من المرايل التي عرف بها الجيل الأول من المدارس العمومية في إيطاليا الجمهورية. وكما هو الحال بالنسبة للمرايل التي كانت لدينا في الماضي، فإن الهدف من الزي المدرسي في البلاد العربية واحد وهو إن لم يكن إخفاء فليكن على الأقل تخفيف ـ قدر المستطاع ـ تلك المسافات الشاسعة التي تفصل الطبقات داخل مجتمعات مثل تلك العربية التي ربما أصبحت فيها الفوارق الطبقية أكثر حدة منها عن ذي قبل؛ الفقراء فقراء جدًا والأغنياء يتفاخرون بإظهار ترفهم.

يتبقى إذن القليل أمام الأُسَر كي تضيف إلى أبنائها تلك السمة التي تميزهم. ويبقى تحديد الشكل، ذلك الذي نستطيع من خلاله أن نصل إلى العلاقة بين أولياء الأمور والتعليم. لقد تغير الزمان بالتأكيد، ولكن المدرسة في الوطن العربي لازالت هدفًا وفرصة كبيرين. إنها خروج وعبور لما يفصل عن عالم المعرفة، عبور تلك المسافة الواقعة بين المحلِّية والتقاليد والجماعية والعالمية والاكتشاف والفردية. إنه الأمل في أن يكون للأبناء ـ من خلال التعليم ـ مستقبل جيد يلحقون فيه بأشقائهم الكبار الذين ملأوا في العقود الماضية جامعات فرنسا وبريطانيا وإيطاليا وألمانيا والولايات المتحدة وكندا بفضل تضحيات هائلة من الأمهات اللاتي مازلن يعتبرن مُحرِّك الأسرة العربية.

ويشهد على الآمال الكثيرة التي يعلقها أولياء الأمور على التعليم تلك الشرائط الملونة والمحابس الجميلة التي تزين رءوس بناتهم التلميذات ذوات الشعر، والذي غالبًا ما يكون طويلاً ومصففًا بعناية؛ وتشهد عليها تلك الحقائب التي تحمل

أشكال Pokeman، Spiderman و Braz الرخيصة المقلَّدة التي يبتاعونها لأبنائهم. إنها حقًا ثمرة عولمة السلع المقلَّدة التي وصلت حتى إلى ضواحي الجزائر العاصمة وعمّان. وهكذا يملأ الشوارع العربية جيش مختلط تختلف فيه ألوان الحقائب والشرائط والبِذَل في عالم يذهب فيه التلاميذ إلى المدرسة بمفردهم حتى وإن كانوا صغارًا. كان ذلك يحدث عندنا، في الأمس القريب، أن يصطحب أبناءنا أشقاؤهم الأكبر منهم (بقليل)، يوبخونهم ويتابعونهم بنظراتهم المليئة بإحساسهم بمسئولية تفوق سنهم بل ومقاس أحذيتهم الصغيرة.

إنها الأحذية نفسها و الصنادل نفسها التي يرتديها الأطفال الذين يمرّون بجانب الحقول المصرية في الفيوم، أو في السهول الشاسعة شمال شرق سوريا وفي الصحراء الأردنية، حيث قبائل البدو الذين أصبحوا غير رُحل أو في طرق الجبال في المغرب. وطوال الطرق الضيقة المزدحمة في القاهرة أو في معسكرات اللاجئين الضخمة في غزة، ذلك لأن الذهاب إلى المدرسة في العالم العربي وليس فقط في حالة الأستاذ جبريل، إنما يعني السير في الغالب لعدة كيلومترات، المسافة التي تفصل المسكن الفقير عن أقرب مدرسة حكومية في القرية الأهم أو المسافة التي تؤدي إلى الحي الذي تم إنشاؤه في عجالة في إحدى الضواحي التي لا تُحصى للمدن الكبيرة وآخر معاقل وزارة التعليم المحلية التي نجحت في إنشائه بالميزانية المتاحة لها، والتي قد لا تكفي إلا لصرف مرتبات المدرسين المنخفضة وقليل غيرها من النفقات. وعند الخروج من المدرسة قليلةٌ هي الحافلات الصغيرة التي يستأجرها الأهالي لتقل أبناءهم في رحلة الذهاب والعودة من المدرسة، قليلون هم أيضًا الآباء الذين تجدهم في انتظار أبنائهم. وهكذا فإن التعلم يعني أيضًا استهلاك الأحذية.

إنه ثمن التعليم الجماهيري العام، وهو من أهم مكاسب التحرر من الاستعمار في الفترة ما بين الخمسينيات والستينيات. التعليم للجميع وليس فقط للقليلين القادرين أو للمحظوظين ـ من الفقراء ـ الذين كان بإمكانهم الالتحاق بمدارس الراهبات. "التعليم للجميع" كان أحد شعارات ثورة ناصر، وإحدى ركائز تعريب الجزائر بعد الاستقلال عن فرنسا الذي كلفها ثمنًا غاليًا. وهو واحد من أوائل بنود التأميم السوري على يد حافظ الأسد. وحتى وإن لم تأت النتائج متفقة مع

الوعود منذ بضعة عقود فإن التعليم العام واقعٌ لا يخلو بالطبع من التناقضات الصارخة في مكان تتعدد فيه ألوان الحياة وتتناقض في صراع مستمر. وعلى الرغم من كل شيء فإن التعليم الجماهيري الذي ظهر مع الحركات القومية، في طريقه لإتمام نصف القرن الأول من عمره وتظهر علامات هذا العمر الطويل عليه بما هو جيد وما هو رديء. الجيد أشرنا إليه للتو: جدية أولياء الأمور في تعليم أبنائهم في الأسر التي لم تقع لحسن الحظ في دائرة تشغيل الأحداث اللعينة التي لم تعد تقتصر على الهند وبنجلاديش وإنما امتدت أيضًا إلى عدد هائل من الأطفال، في مناطق متفرقة من الوطن العربي، يعملون في مصانع الفخار أو السجاجيد، في الحقول أو لدى الحِرَفيين. التعليم حق للجميع هكذا كان منطوق العقد الاجتماعي بين المواطنين العرب الجُدد والأنظمة العربية فيما بعد الاستقلال التي كانت تضع من بين أهدافها القضاء على الأُمِّية. التعليم إذن يجب أن يُموَّل من خزينة الدولة. هكذا كانوا يقولون زعماء العروبة. وتؤكد هذه الحقائق أرقام الإحصائيات عن حجم الاستثمار في مجال التعليم ومحو الأمية بمتوسط يفوق الـ ٩٠ % في دول الجامعة العربية، بين أطفال وصبية في سن المدرسة.

ولكن إن كانت هذه هي الأرقام، فإن الواقع أكثر تعقيدًا من ذلك بكثير. ذاك العقد الاجتماعي الذي كان أساس العلاقة بين المواطن العربي و الأنظمة الحاكمة لم يعد ساريًا. سواء على المستوى السياسي أم في مجال التعليم. لم يتقلص الفقر، أو على الأقل، التصدع الاجتماعي، ونسبة الـ ٩٠ % من الأحداث الذين يتعلمون معرَّضة للهبوط بشكل متسارع في السنوات القادمة، لأن التسرب من التعليم بات ظاهرة واضحة وملموسة، ترتبط ارتباطًا وثيقًا بالمشاكل الاجتماعية. هكذا يتجلى الوجه السيئ للتعليم الجماهيري في أزمة الفقر والهوية التي ترتبط بالأولى؛ وبالتالي ضرورة مواصلة تطوير دوره بصفته الحقل الذي يثمر أجيالا من الشباب المؤهل لمواجهة واقع أكثر صعوبة. باختصار لم يَعُد التعليم الحكومي يُعِدّ التلاميذ إعدادًا جيدًا. وقد أدلى بهذا أيضًا الخبراء (العرب) الذين استدعتهم الأمم المتحدة لإعطاء صورة للوضع المعرفي الحالي في المنطقة. لقد صرَّحوا بوجود الكثير من العيوب في نظم التعليم التقليدي. وطبقًا لما أورده الباحثون في ٢٠٠٣ بالجزء الثاني من "تقرير التنمية البشرية في العالم العربي" الصادر

عن Undp والمُخصص للمستوى المعرفي في المنطقة، فإن كثيرًا من البرامج الدراسية العربية تنمّي روح "الخضوع والطاعة والانقياد بدلا من حرية التفكير النقدي". وهناك ما هو أكثر، إنهم وجّهوا أصابع الاتهام إلى السياسات التعليمية بالأنظمة العربية التي قلّصت تدريجيًا في العشرين عامًا الماضية ميزانية التعليم في غياب أهداف واستراتيچيات ذات خطوط محددة لإمداد الشعب ببرنامج تعليمي جيد. ومن عيوب النظام الحالي أيضًا المرتبات المنخفضة التي يتقاضاها المدرسون والتكدس في الفصول، كما تدخل في هذه العيوب عيوب أخرى متأصلة بالأنظمة العربية التي تقود البلاد في مطلع الألفية الجديدة هذه، وهي مشكلات لافتة للانتباه إليها بمجرد توسيع دائرة الرؤية خارج المدرسة وملاحظة الشارع العربي.

أولى هذه المشكلات هو عدم توافر قدر كاف من الحرية في المناخ العام مما يجعل من الصعب ليس فقط إجراء البحث العلمي وإنما أيضًا الإنتاج الفني. هناك رقابة على الأعمال الإبداعية سواء من قِبَل هيئات الدولة التي تراقب الأفلام والكتب والصُحُف أم من جهة السلطات الدينية التي تمثل رقابة غير رسمية، ولكنها لا تقل أهمية عن تلك الأولى. كانت نتيجة هذا المناخ الخانق هو خلق سلوك يغلب عليه الخوف، ويبدو أنه دخل منذ أعوام طويلة في تركيب الحمض النووي للباحثين والفنانين والمفكرين والمعلّمين. إنها الرقابة على الفرد التي تولّد لديه رقابته على نفسه ويزيد الفجوة بين العرب وباقي أنحاء العالم اتساعًا، وبالتالي تزداد حالة الكتاب العربي، من حيث إنتاجه وقراءته، سوءًا على سوء. تمثل الكتب العربية المنشورة نسبة ١ % من جملة النشر في العالم في حين يمثل العرب ٥ % من سكان العالم، أما نسبة الكتب العربية المترجمة إلى لغاتٍ أخرى فإنها ضئيلة جدًا، ولعل أحد أسباب هذا القصور يرجع إلى ما يشبه الشعور بالدونية اللغوية حتى أن سكان الجنوب وشمال إفريقيا يفضلون القراءة بالإنجليزية أو الفرنسية.

ولكن لِنَعُد إلى المدارس الحكومية ونقاط ضعفها المؤلمة. الجانب الآخر من المؤسسة الذي بدأ يبلى هو المعلمون. إنهم طبقة من المفكرين الذين كانوا يمثلون في السنوات القليلة التالية لحركات الاستقلال، أحد أعمدة النهضة العربية،

ولكنهم مع مرور الزمن أخذوا يعانون من تراجع وتضاؤل وظيفتهم دون أن يكون لهم القدرة على فعل أي شيء حيال ذلك. كان للمعلم فيما مضى هيبته وسلطته لأن العمل بالمدرسة الثانوية، وحتى سنوات قليلة مضت، كان يعني أن يكون المرء رجلاً مرموقًا له مستقبل مضمون تستطيع أن تزوجه ابنتك برضا وارتياح. كان العمل كمدرس في مجتمع عربي يدرج صاحبه عن جدارة في طبقة المثقفين وكلمة "أستاذ" نفسها كانت تحمل معاني الوجاهة الاجتماعية، وقد بقيت مستخدمة حتى الآن كصيغة احترام في لغة الحوار اليومية مثل صورة باهتة لعالم في طريقه إلى الزوال. هذا بطبيعة الحال إذا ما استثنينا معناها في الريف وفي المناطق الفقيرة أو تلك التي تعاني من ويلات الصراع في العالم العربي، حيث تحتفظ كلمة "أستاذ" بهيبتها بل وتمثل كذلك ثروة أصيلة يتوق الجميع للحفاظ عليها.

اليوم، أصبح العمل كـ "أستاذ" أي معلمًا في إحدى المدارس الحكومية على سبيل المثال، يعني تقاضي مرتب لا يشبع من جوع أو يكاد ويجبر المعلم على مزاولة عمل إضافي حتى يفي بمتطلبات أسرته في حين أن مرتبه أقل بكثير من مرتب السائق لدى كبار ومتوسطي البرجوازيين المصريين في القاهرة (وليس فقط الأجانب) عندما يعهدون إليه بسياراتهم وتنقلات أسرهم. هناك الدخول في سوق الدروس الخصوصية التي يعيش عليها المدرسون وترهق ميزانية الأسر نهاية كل عام دراسي وتثقلهم بتكاليف عالية جدًا كي يتمكن أبناؤهم من اجتياز الامتحانات النهائية.

إذا كانت المدارس الحكومية لم تَعُد مثلما كانت في البدايات، في سنوات البطولة في عهد ثورات الاستقلال، فإن الإجابة على ذلك ـ على الأقل في الوقت الراهن ـ سوف تقودنا إلى ما هو مشابه لما كان عليه الحال في عهد ما قبل الاستقلال في فترة ما بعد الحرب العالمية الثانية. بكلمات أخرى، هناك العودة إلى التعليم على قدر ما تسمح به القدرة المادية: من يرد أن يتلقّى تعليمًا أفضل أو بالأحرى من يرد أن تكون شهادته معترفًا بها خارج حدود بلده والمنطقة العربية كلها فعليه أن يتوجّه إلى المدارس الدولية الخاصة الجديدة. ولكنها مدارس للأغنياء فقط: مدارس تحتكر الأطفال منذ مرحلة الحضانة لتعيد تسليمهم إلى

أُسرهم في نهاية التعليم الثانوي حاملين شهادات معترفًا بها في الولايات المتحدة وأوروبا، ربما لن يجيدوا هؤلاء الأطفال الكتابة بالعربية التي تعتبرها هذه المدارس لغة ثانية قياسًا باللغة الأجنبية الأولى التي يتم اختيارها وفقًا للماضي الاستعماري للبلد. هكذا تهيمن الإنجليزية على معظم أنحاء العالم العربي مع الوجود المزدوج في لبنان للمدارس الخاصة التي تستخدم الإنجليزية في التعليم (أهمها American Community School of Beirut التي تبلغ مصاريفها تسعة آلاف دولار سنويًا) إلى جانب المدارس التي تستخدم الفرنسية التقليدية هناك، بينما لازالت الفرنسية مهيمنة على الجزائر التي لازالت مسألة المدارس الخاصة فيها في بؤرة النقاش الثقافي الذي يشمل كذلك نزعات قبائل البربر الاستقلالية.

سواء كان الأمر يتعلق بأبناء الوزراء وكبار المسئولين في الجزائر أم بسليلي العائلات الملكية في الخليج، فإن شبيبة النخبة العربية سيكون لديهم ما يؤهلهم للالتحاق بالجامعة الأمريكية في القاهرة أو في بيروت وجامعات بريطانيا والـ Ivy League الأمريكية ليستعدوا للعمل الذي يناسب حالتهم الاقتصادية والاجتماعية أي عمل أولاد السادة. بمعنى آخر: من يلتحق بإحدى المدارس المخصصة لفائقي الغِنى. يواصل مسيرة المشاركة في الطبقة الحاكمة في البلاد.

ويبقى مع ذلك، شك في قدرات طبقة حاكمة كهذه، درست وتربت بهذه الطريقة. ستكون بعيدة جدًا عما يعتمل داخل الثقافات العربية الجديدة لدرجة أنها لن تتمكن من فهم وحكم التغيرات التي حدثت. إن نوعية التعليم التي تقدمها مدارس الأثرياء هذه (خاصة الأمريكية منها) تعبر، طبقًا للائحتها، عن مشروع تعليمي أمريكي يجرى إدخاله في المجتمعات العربية. يعترف بهذا في وضوح مديرو مؤسسة Deerfield في ماساشوستس التي تحصي من بين طلابها القدامى من أصبحوا ملوكًا متوجين مثل الملك عبد الله ملك الأردن. وسيتولى مسئولو Deerfield مشروع King's Academy [أكاديمية الملك] الذي سيتم افتتاحها نهاية ٢٠٠٧ في مدابة بالأردن. إن فكرة رئيس مجلس الأكاديمية والبروفيسير في Columbia Business School صفوان مصري، واضحة حيث قال في تصريح له لصحيفة النيويورك تايمز: "نود أن نحصل على أفضل ما في

التعليم الأمريكي، لنخلق مدرسة لا مثيل لها في المنطقة، تركز على إعداد قادة. رجالا ونساء، في القطاعين العام والخاص."

وللحصول على هذا النوع من التعليم فإن البرجوازية العربية، متوسطة كانت أم كبيرة أي تلك الطبقة التي تعيش وتخضع نفسها لعملية استنزاف مالي يمكن مقارنته ـ على المستوى الإيطالي فقط ـ مع ما تكبده كثير من آبائنا وأجدادنا في فترة الازدهار الاقتصادي كي يشتروا منزلا بأقساط تسدد بفوائد على عشرين سنة. بالنسبة للعرب، التعليم يساوي منزلا وإلحاق أحد الأبناء بمدرسة دولية خاصة يعني استثمار آلاف مؤلّفة من الدولارات في السنة بكل قسط من المصاريف. ذلك في منطقة غالبًا ما تنجب الأسرة فيها ثلاثة أو أربعة من الأبناء.

بالنسبة للآخرين جميعهم الذين لا يستطيعون تحمل تكاليف مدارس النخبة هناك احتمال من اثنين: الاستمرار في إلحاق الأبناء بالمدارس الحكومية التي فقدت كفاءتها ولكنها لازالت مستعدة لاستيعاب الأعداد الكبيرة من التلاميذ، بمصروفات زهيدة جدًا. مصاريف الالتحاق بالمدرسة الحكومية في الأردن عشرة دنانير في السنة، ما يعادل عشرة يورو. على أية حال، سيحصل الابن، في نهاية المطاف، على الشهادة التي ستؤهله للالتحاق بواحدة من الجامعات الحكومية التي باتت تملأ عواصم العالم العربي. جامعات لاتزال القاعدة القديمة سارية المفعول فيها: من يَصلُح ستتاح له على الأقل فرصة الاجتهاد ما بين حلقات النقاش والاسترشاد بالأساتذة ثم النضال من أجل أن يشق طريقه. أو هناك الحل الوسط بين المدرسة الحكومية والمدرسة الخاصة للأثرياء: إلحاق الأبناء بنوع من التعليم القديم الذي مازال موجودًا وأخرج للمجتمع كثيرًا ممن أصبحوا النخبة في المجتمعات العربية الآن فضلا عن أبناء البرجوازية المتوسطة والصغيرة التي أخذت في الظهور في القرن العشرين، وهذا التعليم توفره المدارس المسيحية من "الدون بوسكو" في حي شُبرا في القاهرة إلى "الفرير" في القدس؛ من "الچيزويت" في بيروت إلى "الفرنسيسكان" في معهد "تيرأسنكتا" في عمّان، وهي مدارس فنية أو ـ كما يحدث في معاهد الساليزيان ـ بجانب الحرفة، يتعلم الطالب لغة أجنبية، وهكذا تكون لديه فرص أكبر للعمل بعد التخرج.

يدخل أستاذ جبريل، عن جدارة، في زمرة المعلمين ذوي الأجور القليلة. متوسط مُرتَّب المدرس في فلسطين ألف وخمسمائة شيكل، ما يعادل أقل من ثلاثمائة يورو في الشهر، وعليه أن يُنفق بها على أسرته ويسدد فواتير الماء والكهرباء والغاز والوقود وتكاليف المواصلات؛ كل هذا تكلفته للمواطن الفلسطيني هي نفسها بالنسبة للإسرائيلي مع الفارق أن مُدرِّس المدرسة الثانوية في إسرائيل قد يصل مرتبه إلى ثمانية أو تسعة آلاف شيكل على أكثر تقدير، أي أقل من ألفي يورو، بعد عشرين سنة خدمة قد يُكلف خلالها ببعض المسئوليات الإدارية أيضًا. أما في المعتاد فإنه يتقاضى يقرب من ألف ومائتي يورو، على الأقل، ما هو ليس بكثير بالنسبة لمستوى المعيشة في إسرائيل، ولكنه يعني الكثير مقارنة بما يحصل عليه نظيره الفلسطيني الذي يتعين عليه تدبر حاله بهذا المرتب الضئيل، وبالتالي البحث عن عمل ثان وثالث في بعض الأحيان كي يوفي احتياجات نفسه وأسرته.

لقد تخرَّج الأستاذ جبريل الشاب منذ فترة قصيرة في جامعة بير زيت في رام الله، والتي تعتبر من أفضل الجامعات في فلسطين ويقوم الآن بتحضير رسالة الماجستير في جامعة القدس التي أصبحت تقع في الجانب الآخر من المدينة بعد بناء الجدار الخرساني الذي يفصل بين سكان القدس العرب، ولكن الحكومة الإسرائيلية ترى أنه يحمي السكان الإسرائيليين من الإرهاب الفلسطيني. هكذا حتى يصل الأستاذ جبريل من المدرسة الثانوية في أطيرة إلى القدس، ليس بإمكانه أن يأخذ الطريق ٤٤٣ القريب جدًا منه و يوصله إلى القدس في ما لا يزيد عن عشرين دقيقة فقط. وإنما عليه أن يعبر الطريق السريع بالقنطرة التي تربط أطيرة بباقي ريف رام الله ويضطر للقيام بلفَّة تستغرق ساعة على أقل تقدير. وفي رام الله يتعين على الأستاذ جبريل المرور من نقطة تفتيش قالاندية المبنية على الجدار الذي يفصل رام الله عن القدس، التي لا تكاد تبلغ المسافة الفاصلة بينهما خمسة عشر كيلومترًا. وبعد نهاية هذا المطاف، يصبح بإمكان الأستاذ جبريل الوصول إلى الجامعة. وإن كان كل شيء على ما يرام، وإن لم تكن هناك طوابير وإن لم تَقُم إسرائيل بغلق المعابر، تستغرق رحلة الذهاب هذه

ساعتين على الأقل وساعتين مثلهما لرحلة العودة في حين أنه في يوم من الأيام كان من الممكن أن تستغرق هذه الرحلة نصف ساعة على الأكثر. معاناةٌ يومية يعيشها الأستاذ جبريل مع غيره من الفلسطينيين الذين يجدون أنفسهم مجبرين على تغيير جدولهم الزمني كل يوم.

إلا أن معاناة الصراع هذه لا تظهر على وجه الأستاذ جبريل الذي تبدو عليه، على الرغم من سنه الشابة، علامات الحكمة. تلميذات الصف العاشر يعاملنه باحترام، ولكن ليس بالخشية التي اتسمت بها دائمًا العلاقة بين التلميذ والأستاذ في الأجواء العربية. فحتى في فلسطين لم يبق الحال على ما كان عليه، إذ أصبح المعلم في الضفة الغربية أيضًا يستغل مهاراته التقنية، كما يحدث في أوروبا وكي نتأكد من هذه المقولة، يكفي أن نحضر درسًا للأستاذ جبريل حيث يقوم بالتدريس بما يماثل المتبع في أوروبا تمامًا. بضع جمل بالعربية على السبورة التي تحتل كامل الحائط، وبقطعة طباشير زرقاء اللون وأخرى حمراء يتم تحديد موضوع الدرس: تكرار الجمل والكلمات في اللغة العربية كما هو واضح في المثال: "الله أكبر، الله أكبر". ومع ذلك فعلى السبورة خمسة من الأمثلة المختلفة تمامًا عن بعضها بعضًا بدءًا من آي القرآن إلى أبيات من شعر سميح القاسم ـ الشاعر الفلسطيني المعاصر ـ عن الانتفاضة الأولى في ١٩٨٧.

تلميذات الأستاذ جبريل يواصلن إبداء رغبتهن في الإجابة على أسئلته. يختار الأستاذ واحدة تلو الأخرى ويتحاور معها بنظام محدد. ينتقل بعد ذلك إلى المثال التالي ويكمل على المنوال نفسه. إنهن تلميذات جيدات وعلى قدر كبير من الجِدِّية وهن في زيهن المدرسي المخطط بالأبيض والأخضر، ويصل حتى الركبة. تستبدله بعضهن بزي أزرق يصل إلى القدمين ومعه حجاب ناصع البياض، المدللات منهن يرتدينه مطرَّزًا، حول وجوههن النضرة ذات الخمسة عشر ربيعًا وأمامهن على طاولات الفصل الذي تضيئه أشعة الشمس وتحيط به خضرة الريف وعبير الربيع، يأخذ الجزء رقم ١٠ للغة العربية مكانه.

الجزء رقم ١٠ هو الجزء العاشر من المقرر الفلسطيني الجديد، أول كتاب مدرسي فلسطيني التأليف صممته ونفذته السلطة الوطنية الفلسطينية في خمس سنوات بدأت في ١٩٩٥. وفي ٢٠٠٠، السنة التي بدأت فيها الانتفاضة

الثانية، بدأ العمل بالمقررات الجديدة في مدارس الضفة وغزة والقدس الشرقية. شيءٌ غريب. إن الدولة الوحيدة التي لا وجود رسميًا لها، البلد ذات الحدود "الهشة"، تحت الاحتلال، "دولة اللادولة"، هي الدولة الوحيدة في العالم العربي التي صممت من اللاشيء برامجها الدراسية كما لو أن هذه المقررات يجب أن تكون إحدى ركائز دولة فلسطينية قادمة. يقول عمر أبو حمص، نائب رئيس مركز البرامج الدراسية في السلطة الوطنية في رام الله، إن الخطة ترتكز بالطبع على النظام المعاصر في فلسطين هو الذي كان يقتصر على النظام الإنجليزي فقط. وللتخفيف من حدة النظام الإنجليزي في التعليم، استعان خبراء المركز بتجارب مختلفة؛ منها المغربية، على سبيل المثال، نظرًا للتأثير الفرنسي عليها: شيءٌ من الطابع الفرنسي كفيل بالإفادة في التخلص من جمود النظم البريطانية.

ويستأنف أبو حمص كلامه بأن الباقي قام به الفلسطينيون وحدهم. إن أوروبا، وهي أهم ممولي السلطة الوطنية منذ ١٩٩٢، قد ساهمت بالتمويل اللازم لتأجير الأماكن، وتوفير ماكينات التصوير وغيرها من المعدات اللازمة، ولكنها لم تتدخل في إعداد محتوى المقررات فيما كان له دلالة مزدوجة؛ أي ترك الاستقلالية للفلسطينيين من نا حية، ومن ناحيةٍ أخرى إخلاء مسئوليتهم من محتوى المقررات الدراسية التي مع ذلك على حدِّ زعم محللين سياسيين من معسكر اليمين الإسرئيلي ـ وهو ما تم تكذيبه لاحقًا في عدد من تقارير الاتحاد الأوروبي ـ كانت زوبعة في فنجان، ولكنها شغلت الإسرائيليين والسلطة الوطنية الفلسطينية وأوروبا لوقتٍ طويل.

ومن الطريف أن المقررات الفلسطينية الجديدة متوفرة كلها على الإنترنت، وهذه حالةٌ نادرة حقًا. يمكن الرجوع إلى هذه المقررات وطبعها وعمل نسخ منها من الكمبيوتر الشخصي في المنزل، بلا استثناء من الصف الأول الابتدائي إلى آخر سنة في المرحلة الثانوية لجميع المواد: رياضيات، ولغة عربية، ودين، وتاريخ، وجغرافيا، وعلوم. وبالاطلاع عليها ليس بها ما يثير القلق من محتواها، لا فيما يتعلق بالصراع ولا عندما ننظر إليهم بعيون خاصة، بعيني امرأة مثلا فالرسومات تنقل لنا نموذج حياة اجتماعية سليمة: هناك العديد من النساء السافرات وأخريات ترتدين الحجاب، الكثيرات يعملن، وأخريات يمثلن نموذج الأسرة

المتماسكة العادي. الأولاد والبنات عليهم الواجبات نفسها، من تنظيف المنزل إلى مساعدة المسنين: من عدم إلقاء القمامة على الأرض إلى غسل الأسنان قبل النوم. إحقاقًا للحق، لا توجد أية إشارة إلى الكُره علمًا بأنه شارك في إعداد هذه البرامج ليس فقط علمانيو "فتح"، وأساتذة جامعيون ورجال من مختلف التخصصات ومعلمون وفنيون ولكن شارك في وضعها أيضًا مسئولون كبار في "حماس" في مرحلة كانت فيها الحركة الإسلامية المتطرفة لا تعترف حتى بالسلطة الوطنية الفلسطينية. فمثلاً من أجل إعداد برنامج الجغرافيا حضر إلى رام الله واحد من أساتذة جامعة الخليل، وهو عزيز دويك الذي أصبح في فبراير ٢٠٠٦ المتحدث باسم البرلمان الفلسطيني بصفته نائبًا من "حماس". يحكي أبو حمص أنه لم تحدث أية مشكلة معه. ويؤكد دويك على مساهمته، قبل أن يلقي الجيش الإسرائيلي القبض عليه في صيف ٢٠٠٦: "لقد شاركت تحديدًا في وضع سبعة أجزاء من المقررات الدراسية الجديدة. والآن يجب علينا البحث في تحديثها خاصة فيما يتعلق بالمواد العلمية.". ليس ثمَّة إشارة عن مشاكل عقائدية أو عن أسلَمَة المناهج، فالجغرافي دويك كان همُّه الأساسي هو تزويد الأولاد بالأدوات المناسبة لقراءة الحاضر. إذن، فعلى الرغم من الاختلافات السياسية، فإن تجهيز البرامج الدراسية كان ولازال حتى الآن بمثابة معمل يتم فيه بناء هوية فلسطينية جديدة ويمثل بدوره مجتمع وثقافة ذلك المكان الصغير بمختلف زواياه وملامحه.

"لقد قمنا بذلك العمل دون مقابل؛ لم يدفع لنا أحد أية أجور إضافية." يقولها بفخر سليمان ربادي ناظر "كولاج دو لاسال"، المدرسة التي يطلق عليها الجميع في القدس "الفرير" أي أهم مدرسة خاصة في الجانب العربي من القدس، المدرسة التي يتخرج فيها ـ منذ مائة وثلاثين عامًا ـ أبناء النخبة الفلسطينية من المسلمين والمسيحيين. قبل أن يصبح مدير "الفرير"، كان الدكتور ربادي يُدرِّس في جامعة بير زيت وكان من بين طلبته الأستاذ جبريل، ذلك لأن فلسطين مكان جد صغير والنخبة فيها مجموعة محدودة للغاية. ومثل آخرين من زملائه، تم استدعاء الدكتور ربادي ليدلي بدلوه في البرامج الدراسية الجديدة، وقد أولى اهتمامه تحديدًا "بالمسائل المعاصرة" في منهج الصف الحادي عشر، أي قبل الأخير، في المرحلة الثانوية. وعن هذه التجربة لخلق تعليم فلسطيني من

اللاشيء، يتحدث سليمان ربادي بكل فخر واعتزاز مثله مثل جميع من شارك في هذا العمل: "طبعًا شعرنا ولازلنا نشعر بالفخر.. أخيرًا نستطيع أن نتحكم في مصيرنا.".

ومن النظرية إلى التطبيق؛ لقد تعامل سليمان ربادي عن كثب مع المقررات الدراسية الجديدة عندما مرٍّ من جديد في ٢٠٠٥ عبر باب مدرسة "الفرير" الصغير على مقربة من البوابة الجديدة للحي المسيحي في مدينة القدس القديمة. لقد عاد ربادي إلى "الفرير" كمدير، أول مدير علماني في تاريخ "الكولاج دو لا سال" التي كان يديرها دائمًا رجال دين. ثلاثون عامًا مضت منذ أن خرج المدير سليمان من هذه البوابة الصغيرة وفي يده شهادة إتمام الدراسة، ورقة مهمة كانت (ولازالت) تسمح لحاملها بأن يكون له وظيفة، وليس فقط في فلسطين.

في المدرسة (العلمانية) لدى الراهبات

في مدارس "الفرير" يتم تدريس مقررات السلطة الوطنية الجديدة مع الاحتفاظ بالتقاليد الراسخة التي تركها رهبان "الكولاج دو لاسال" كعلامة مهمة في نمو فلسطين الثقافي. حصة الدين في "الفرير"، كما في غيرها من المدارس المسيحية في فلسطين أو في مدارس السلطة الوطنية الفلسطينية، هي حصة الأديان، والمتبع فيها موحد؛ يتفرق الأولاد فقط عندما يرن جرس حصة الدين عندها يذهب الطلبة المسلمون إلى درس القرآن، والمسيحيون على اختلاف المذاهب في الكنيسة الشرقية، يذهبون إلى حصة الإنجيل وفقًا للمقرر العام الذي تمت كتابته من خلال الاتفاق ـ المبرم في رام الله، في مركز المقررات الدراسية، تحديدًا ـ بين ممثلي اثنتى عشرة كنيسة في فلسطين بما فيها الكاثوليكية، والبروتستانت، والأرمن، والأقباط وغيرها من المذاهب. ومن ناحية أخرى فإن "حماس"، على ما يبدو، لا تنوي الإخلال بهذا التوازن الداخلي؛ تقول سميرة حلايقي، وهي من نواب "حماس" تم انتخابها في الخليل وتعنى أيضًا بمسائل التعليم داخل اللجنة البرلمانية المخصصة للمدارس: "لا نريد أية خلافات مع المسيحيين فيما يخص التعليم. لقد أوضحنا لهم ذلك في الاجتماعات التي عقدناها في ٢٥ يناير ٢٠٠٦ فور انتهاء الانتخابات التي حصلنا فيها على أغلبية الأصوات".

وبعد انتهاء حصة الدين يعود الأولاد في "الفرير" ليمتزجوا سويًا جنبًا إلى جنب، يتشاركون حتى الطاولات نفسها والألعاب نفسها. إلا أنه إذا ما دققنا النظر نجد أن علامات ورموز الدين تبدو واضحة على الأولاد، خاصة المسيحيين ربما بصليب كبير معلّق في سلسلة يصعب فعلا عدم ملاحظته. أما الأولاد المسلمون من أهل المدن فلا يستعرضون شيئًا ولا توجد لديهم أية علامات، إلا في حالات نادرة، حيث تلاحظ لحية خفيفة أو غطاء رأس يشبه ما يضعه البابا على رأسه، أو يشبه "الكبة" اليهودية لدرجة أنه قد يختلط عليك الأمر للوهلة الأولى. الأولاد المسلمون في القدس يضعون "الچيل" على شعرهم ويرتدون "التي ـ شيرت" الضيقة تماشيًا مع الموضة السائدة فهم ينتمون للبرجوازية العلمانية في القدس الفلسطينية، تلك الطبقة التي تستطيع أن تُعلّم أبناءها في "الكولاج دو لاسال" وتدفع لهم مصاريف تصل إلى ألف يورو في السنة، مبلغ قليل بالطبع مقارنة بتكلفة المدارس الخاصة لدينا أو بآلاف الدولارات اللازمة للتعليم في المدارس الدولية الأمريكية والبريطانية الأغلى في القدس كما في بيروت والقاهرة وعمّان. قد تكون الألف يورو، مصاريف "الفرير"، عالية، عالية جدًا بالنسبة لكثير من الأسر في القدس التي تتكبد مشقات مالية كبيرة كي تتمكن من توفير تعليم جاد لاثنين أو ثلاثة وحتى أربعة أبناء في ما يراها الجميع ـ في الشرق الأوسط ـ مؤسسة تربية وتعليم ممتازة ألا وهي المدارس المسيحية.

على الرغم من الأضرار التي لحقت ببعض المدارس المسيحية بعد الاستقلال في بعض البلاد العربية (خاصةً المغرب)، وعلى الرغم من الحماس للعودة للتعريب (مثل تلك التي حدثت في شتاء ٢٠٠٦ في الجزائر أيام حكم عبد العزيز بوتفليقة)، نجحت المدارس المسيحية في الاستمرار. لم ينجُ من هذه الأزمة تلك المدارس التي كان لها رباط وثيق بالقوى الاستعمارية كبريطانيا في مصر، وفرنسا في الجزائر مثل ما حدث من إعادة هيكلة أو إغلاق بعض المعاهد التي كان قد تعلّم فيها القادة والزعماء القوميون ذاتهم الذين ناهضوا فيما بعد هذه القوى الاستعمارية.

تلك المدارس التي نجحت في اجتياز امتحان الاستقلال والتأميم هي كثيرًا ما تمثل حتى اليوم أماكن ممتازة لتعليم الشباب العرب. وبينما يواجه المفكرون في

إيطاليا التغيرات اللازمة في المدارس كي تتحول إلى مدارس عامة متعددة العرقيات بتوجه فكري قديم متعارض مع مقتضيات العصر نجد على الشاطئ الآخر من البحر المتوسط حشودًا من العرب ـ المسلمين والمسيحيين ـ يتلقون إلى يومنا هذا تعليمهم في مدارس "الچيزويت" و"الساليزيان" و"الكومبون" وغيرها من مدارس الراهبات والرهبان مثل "الكولاچ دو لاسال"، وكثيرًا ما يكون طلبة هذه المدارس من أبناء النخبة العربية في عالم السياسة والثقافة والاقتصاد؛ إنهم الفنيون والمتخصصون في المجالات المتنوعة أو العقول الذين رحلوا إلى الخارج بحثًا عن فرصة عمل كريم.

تحكي الأخت الراهبة چوليانا وهي من مواليد عام ١٩٢٨" :السبعمائة فتاة اللاتي كنَّ يتعلمن في مدرستنا في دمشق في الستينيات كنَّ بنات البرجوازية المتوسطة والصغيرة في سوريا آنذاك.". وسافرت الأخت چوليانا عام ١٩٤٨ من المجر التابعة آنذاك للتيار الشيوعي. ذهبت إلى تورينو لدراسة الماچستير ثم بدأت بعد ذلك رحلتها في الشرق الأوسط: نصف قرن من الزمان قضته بين سوريا ومصر والقدس. عاشت في دمشق منذ أن كانت شابة ومتحمسة. أتت من المدينة التي أنجبت الكاردينال چوزيف ميندزنتي، رمز مناهضة الشيوعية في المجر، وظلت في دمشق طيلة ثلاث عشرة سنة إلى أن قرر حافظ الأسد في ١٩٦٧ تأميم جميع المدارس الخاصة حتى مدرسة الراهبات التي يديرها "الساليزيان" التي تم تحويلها إلى معهد تعليمي حكومي يخدم ألف وخمسمائة طالب على فترتين. وكان ذلك مصير جميع المدارس التي يديرها رجال دين مما أدى إلى تشتيت آلاف التلاميذ. إذا كان عدد طالبات الساليزيان فيما قبل سبعمائة طالبة في مدارس "تيرَّاسانكتا" السبع في سوريا ـ تلك التابعة لإدارة الفرنسيسكان ـ فهذا يعني أنه كان هناك ثلاثة آلاف وخمسمائة تلميذ تم إدخالهم جميعًا بعد ذلك في المدارس الحكومية.

كانت مدرسة الساليزيان للبنات تعتبر حتى عام ١٩٦٧ مدرسة مثالية، من الحضانة وحتى الصف الثالث الإعدادي كانت الطفلات والفتيات يتعلمن اللغة العربية والفرنسية، وكذلك الحياكة وبعد ذلك غالبًا ما كنَّ يكملن دراستهن في المدارس الثانوية الخاصة في دمشق. تواصل الأخت چوليانا وهي على أعتاب

الثمانين عامًا من عمرها ومازالت روحها مفعمة بالنشاط: "كانت نسبة الطالبات المسيحيات إلى المسلمات سبعة إلى ثلاثة، ولكن بينما كنا نعاني في البحث عن الطالبات المسيحيات كانت الأسر المسلمة تحاول جاهدة إلحاق بناتهن بمدرستنا. ومن ناحية أخرى لم نكن ندرس الدين الإسلامي؛ لقد قمنا بإضافته عندما طلبت منا الحكومات مثل تلك المصرية هذا الأمر. في السابق، كانت الطالبات المسلمات يأتين إلى المدرسة عشر دقائق بعد الأخريات اللاتي كن يذهبن في هذه الدقائق إلى الكنيسة للصلاة.".

كما كانت هناك طريقة أخرى متبعة في العديد من الأماكن في العالم العربي لجمع طلاب من أديان مختلفة ألا وهي تلاوة دعاء مشترك محايد، يصلح للجميع بغض النظر إلى أي دين ينتمون. كان هناك مثلا دعاء الطفل الذي يسأل: "رَب بارك أبي وأمي" أو"ربنا هبنا السلام". إنها أدعية لا تسبب أي حساسيات، بل إنها تجد لها أرضية مشتركة عند الجميع ـ ورغم بساطتها ـ فقد حولت التجربة كثيرًا من مدارس الرهبان المسيحية (وليس جميعها بالطبع) في الشرق الأوسط إلى ما هو في حكم الحقل المحايد، أو على سبيل المفارقة، إلى نوع من المدارس العلمانية التي يختار المسلمون أن يلحقوا أبناءهم بها، حتى وإن كانوا ملتزمين أو حتى إسلاميين، لأن الراهبات يعلمنهم أشياء جيدة وسلوكيات صحيحة. لقد تناقلت الأجيال الصورة الجيدة عن المدارس المسيحية لدرجة أنها انتقلت من العالم العربي إلى الجاليات المسلمة في مجتمعاتنا، التي ليس لديها غضاضة في إلحاق أبنائها بمدارس الراهبات، لأنهم يعرفونها ورأوها في بلادهم وهي مألوفة بالنسبة لهم ولسبب آخر لا يجب أن نقلل من قدره، وهو أن الراهبات هن أيضًا يرتدين الحجاب.

في الحقيقة، كانت الأُسَر العربية تعلم أبناءها قبل الاستقلال في مدارس الراهبات لأنها كانت تعلِّم الأطفال قيمًا طيبة وكانت تقدم لهم كذلك طريقة جيدة للدراسة، ولهذا كان المسلمون خاصة هم من حاول الدفاع عن المدارس الخاصة المسيحية في البلاد التي كانت هذه المدارس مهددة فيها بالتأميم بعد الاستقلال عن القوى الأجنبية. لم يأت هذا الدفاع بثماره، ولكن الرسالة كانت واضحة: لقد نجحت الراهبات في كسب ثقة عملائهم ولقد استمرت هذه الثقة في الفترات

الصعبة التي تطورت فيها المدارس الحكومية على حساب المدارس الخاصة، فالمسلمون حتى يومنا هذا يعطون الإجابة نفسها عندما يُسألون كيف يلحقون أبناءهم بالمدارس المسيحية الخاصة بدلا من المدارس الحكومية.

ولا يعطي هذه الإجابة المسلمون العلمانيون فقط، أولئك الذين لا يواظبون على صلاة الجمعة ولا يتوانون عن شرب الكحوليات ونادرًا (إن لم يكن أبدًا) يؤدّون الصلوات الخمس كل يوم؛ بل أكثر من هذا؛ إذ يعطي صورة جيدة عن الراهبات (الفرنسيات والإيطاليات) أيضًا سيدات ترتدين النقاب أي الحجاب الكامل كما ترتدينه النساء في السعودية، أو يرتدين الحجاب الأكثر حداثة: باختصار، نساء ملتزمات يجدن في التربية الكاثوليكية قيمًا مشتركة مع قيمهن من احترام الوالدين إلى بساطة الملبس المطلوبة من الفتيات وصولا إلى منظومة من القواعد لا تبعد كثيرًا عن تلك التي تعلمنها لأبنائهن. بطبيعة الحال، لا تقوم المدارس المسيحية بأية أنشطة تبشيرية فهذا شيء يمنعه القانون، ولكن المسلمين لا يعيرون هذا الأمر اهتمامًا كبيرًا؛ يرون بالأحرى أنه على مدى تاريخ الدول العربية ظلت المدارس الخاصة التي تديرها المعاهد الدينية المسيحية ، تمثل المدرسة العلمانية الحقيقية. مفارقةٌ كبيرة حسب وجهة النظر الإيطالية المعتادة على الجدال اللانهائي حول التعليم الحكومي العلماني والتعليم الخاص الذي يقوم عليه رجال دين. ولكن معاييرنا لقياس هذا الأمر لا تصلح في الشرق الأوسط وشمال إفريقيا، وعلى سبيل المثال، طبقًا للمفارقة في رؤية الشرق الأوسط، فإن دُور الحضانة المسيحية هي الصيغة الأكثر علمانية لمدارس الأطفال، أي إمكانية تعليم الأطفال تعليمًا جيدًا دون إلحاقهم بالمدارس الخاصة الصغيرة حيث يسيطر وجود ديانة واحدة.

منذ نشأتها، لم تنتظر المدارس المسيحية أن يخطو المسلمون الخطوة الأولى على طريق الاحترام المتبادل بين الأديان فما يحسب للمدارس المسيحية التي يديرها الرهبان من شمال إفريقيا وحتى الأراضي المقدسة هو الترحاب المزوج بالبحث عن القيم المشتركة. في القدس وفي دمشق وفي القاهرة، حيث تستقبل المدارس المسيحية منذ قديم الزمان أطفالاً وأولادًا مسلمين. نجد تعايش ديانتين معًا شيئًا عاديًا والسلوك المقبولْ دينيًا هو سلوك نابع من عمق صادق وليس مجاملة. الأمر يتعلق بطريقة حياة وليس بفرض قواعد معينة.

في تجارب تجاوزت في كثير من الأحيان قرنًا من الزمان، يبقى الطالب طالبًا. ديانة الأسرة التي يأتي منها ما هي إلا عنصر يضاف إلى موروث الطفل الذي يذهب إلى المدرسة، ولكن لا دَخل له بالمقررات التي، حتى وإن حدث ونوهت لموضوعات من ديانة معينة، لا تستبعد وجود الأخرى فعلى سبيل المثال مسرحية عيد الميلاد في دور الحضانة المسيحية في القدس أو القاهرة هي حدث يشارك فيه جميع الأطفال المسلمين والمسيحيين دون تفرقة أو انتقاد، لأن المسيح في القرآن هو واحد من الأنبياء، السلام عليه "يوم ولد ويوم يموت ويوم يبعث حيًا" كما تنص سورة "مريم"، السورة رقم ١٩ في القرآن، المخصصة للعذراء وهكذا فإن عيسى بن مريم هو شخصية دينية بالنسبة للمسلمين، وكذلك أُمّه التي حملته من "نفخة".

فلا تعجب إذن ولا ضجر عندما تصبح أعياد المسيحيين أعيادًا للجميع، ليس هناك استبعاد لأحد من التجهيزات لعيد القيامة بدءًا من البيض إلى الأرانب الصغيرة، وبالمثل لا يتخلف أحد عن تحضير "الفوانيس"، المصابيح التي تميز شهر رمضان. وكانت تنير، بحسب الموروث الشعبي، مسيرة المؤمنين وهي تصنع الآن في العصر الحديث من البلاستيك، صينية الصنع وأقل شاعرية. ترى وهي معلقة في المحال التجارية كالعناقيد لتنير أمسيات المدن العربية في شهر الصيام. المساواة في الاحتفال بالأعياد الدينية تشمل كل الأعياد المدونة بالأحمر في نتيجة المدارس المسيحية بما فيها القائمة الطويلة لأعياد المسلمين من رمضان إلى عيد الفطر، وعيد الأضحى، والمولد النبوي، والتي إذا ما أضفناها إلى عيد الميلاد، وعيد الفصح الكاثوليكي، والأرثوذكسي، والأرمني يصبح لدينا قائمة طويلة جدًا يخشى أن تفهم على أنها زيادة في عدد أيام الإجازات على حساب أيام الدراسة.

ولقد فهم يوحنا بولس الثاني الأهمية الكبيرة لهذه اللفتات بالنسبة للعرب المسلمين. ولهذا فإن زيارة البابا في ٢٠٠٠ للمسجد الأقصى، ثالث الحرمين، ليست هي التي لا تمحى من ذاكرة مسلمي المنطقة جميعهم بقدر ما كانت زيارته للمسجد الأموي في دمشق، رابع الأماكن المقدسة عند للمسلمين: اللفتة التي لن ينساها المسلمون هي قبلة البابا للمصحف، إشارة تبجيل واحترام لـ "الكتاب"

وللمسلمين والتي لم تمس هوية ولا ديانة البابا؛ لفتة لا تقل أهمية عمًّا يحدث عندما تعكف الراهبات الكاثوليكيات شديدات التواضع والهمة والالتزام، على قص قطع من الكرتون الملونة وتحضير "فوانيس" رمضان.

- ٦ -

الدكتور عبد المنعم، الشاب سابقًا

الرجل الذي يظهر في الصور المُعلَّقة على الحائط بجانب لوحة المواعيد، اجتاح البياض شعره قبل الأوان، وجهه ممتلئ ولحيته خفيفة. الابتسامة عريضة. ولكن شيئًا من الخجل يعلو هذا الوجه في كل لقطة، أو ربما كان الحياء ذاته هو الذي يرتسم على قسمات وجه الدكتور عبد المنعم أمام الكاميرا مع فريق الأطباء العرب وضحايا التسونامي في ٢٦ ديسمبر ٢٠٠٤. وفي الخلفية يرى دمار "باندا تشيه قلب الكارثة في إندونسيا، قلبٌ مسلم مثل باقي السبعة آلاف جزيرة التي يتكون منها الأرخبيل الإندونسي.

قليلة هي الصور المعلَّقة على طول الردهة (التي توصل) إلى مكتب الدكتور عبد المنعم في مبنى نقابة الأطباء المطل على واحد من أهم شوارع القاهرة وأكثرها ازدحامًا مروريًا، إنه شارع قصر العيني، وهو على مقربة من المستشفى وقريب أيضًا من المتحف المصري ووزارة الداخلية ومقار العديد من الوزارات والأجهزة الحكومية. يكفي القيام بالسير قليلا للوصول إلى كلية طب جامعة القاهرة على ضفة النيل، حيث بدأ الدكتور عبد المنعم أبو الفتوح تحركاته السياسية في أوائل السبعينيات. مجرد الصور القليلة المعلقة لفريق الإغاثة في التسونامي تشهد على الدور الذي يقوم به الدكتور عبد المنعم منذ نهاية التسعينيات، فهو أمين عام اتحاد الأطباء العرب وبهذه الصفة ذهب إلى باندا تشيه لتقديم المعونات الطبية والمالية، ولكن هذا المركز ليس هو السبب في شهرة الدكتور عبد المنعم وظهوره على شاشات الفضائيات - في مصر وخارجها - وحتى كتاباته في صحيفة "الأهرام ويكلي" الحكومية الأسبوعية التي تصدر باللغة الإنجليزية ليست وراء شهرته، بل إنه شيءٌ آخر: فعلى الرغم من شَعره

الذي علاه الشيب، فإن الدكتور عبد المنعم هو أشهر من يمثل "طليعة شباب" الإخوان المسلمين، أهم وأقدم وأوسع حركة إسلامية في العالم العربي.

قد يبدو غريبًا أن يعتبر عبد المنعم ـ وهو من مواليد ١٩٥١ ـ الجناح الشاب (والبراجماتي) للإخوان المسلمين، نظرًا لأن مصر تعج حقيقة بشباب يتوقون للدخول في لعبة الحياة وفي عالم السياسة، ولكن في بلدٍ الممارسة السياسية فيه رهن حالة من الديموقراطية الموقوفة ـ أو لنقل من الحكم المطلق مع بعض اللمسات التجميلية ـ فلازال من الممكن أن يُنظر إلى د. عبد المنعم على أنه "وعد" ينتظر تحقيقه، إنه قوة كبيرة. لقد تحدث عنه في ٢٠٠٦ أكثر من مراقب كُفء، ورأى فيه "المرشد العام" المقبل لحركة الإخوان المسلمين وليس مجرد الزعيم السياسي للحركة بل الروحي أيضًا كما لو أن د. عبد المنعم وعددًا كبيرًا من أبناء جيله، تم تجميدهم في أوائل الثمانينيات بعد اغتيال أنور السادات أثناء العروض العسكرية في ١٩٨١ احتفالا بذكرى نصر أكتوبر ١٩٧٣ وبعد قوانين الطوارئ التي أصدرت على التو ولم يتم إلغاؤها طوال فترة حكم حسني مبارك. بل تم مد العمل بها لمدة عامين في ربيع ٢٠٠٦.

بالطبع "التجميد" ككناية يقصد به هنا مستوى معين من العمل السياسي في الإخوان ولا علاقة له بكل ما فعله القادة "الشباب" للحركة في الثلاثين عامًا الأخيرة بدءًا من عملهم الأساسي في مختلف الخدمات الاجتماعية التي نشرت النشاط في الإخوان انتشارًا واسعًا وحتى سنوات السجن. قضى عبد المنعم خمس سنوات على الأقل في السجن بما فيها الأشغال الشاقة بعد القبض عليه في ١٩٩٥ لانتمائه لجماعة محظورة (الإخوان المسلمين). صنفت منظمة العفو الدولية عبد المنعم على أنه "سجين بسبب معتقده وتابعت حالته إلى أن تم الإفراج عنه مثلما تابعت حالة عصام العريان، زميل عبد المنعم في الإخوان، المُرشح غير المعلن لانتخابات يمكن تصورها للرئاسة ويمكن أن يشارك فيها الإخوان المسلمون أيضًا. لقد دخل عصام السجون لمراتٍ كثيرة ومثله تم اعتقال آلاف الناشطين في الحركة التي أسسها حسن البنّا: قال عبد المنعم في إحدى تصريحاته في ٢٠٠٥: "لم تخل السجون المصرية أبدًا من الإخوان المسلمين.".

لقد تم "إخراج" عبد المنعم من حالة التجميد هو وأبناء جيله، الذين لم يشقوا طريقهم في حزب الأغلبية (الحزب الوطني الديموقراطي) الذي كان دائمًا هو الحزب الحاكم، فقط منذ سنوات قليلة مضت عندما تجاوزت مسألة الديموقراطية في مصر حدود الوطن لتصبح بؤرة اهتمام المجتمع الدولي على فترات متقطعة وبطريقة متناقضة. ومنذ ذلك الحين عاد الحراك - حتى وإن كان على استحياء وتحت تهديد قمع السلطة - إلى الحياة السياسية في مصر وكان أبطال هذا الحراك في الربيع العربي في ٢٠٠٥ هم من مارسوا السياسية في الجامعة على الأقل أثناء حكم السادات. لقد بدأ عبد المنعم نشاطه السياسي في جامعة القاهرة التي كانت المعمل المفضل سواء لليسار الماركسي أم للتنظيمات الإسلامية التي كانت في أطوارها الأولى آنذاك، لأنه كما يوضح الدكتور عبد المنعم: "في ظل حكم السادات كانت هناك حرية لممارسة العمل السياسي في الجامعة حتى وإن لم تكن هناك حرية المعلومات كما هو الوضع الآن. في المقابل كان بإمكاننا تنظيم اجتماعات ولقاءات ومظاهرات ومؤتمرات." وكأنما بعد مرور ثلاثين عامًا انقلبت الأوضاع: "اليوم توجد حرية تعبير، ولكن لا يمكن ممارسة السياسة كما كنا نفعل في الماضي.".

لقد تعرَّف عبد المنعم، طالب الطب، على الإخوان المسلمين في أوائل السبعينيات وأعقب ذلك اللقاء خطى سريعة جدًا ورئاسة اتحاد الطلبة التي كلفته في ١٩٧٧ صدامًا مع السادات أصبح شهيرًا جدًا فيما بعد. تجرَّأ عبد المنعم، الطالب الجامعي آنذاك، وتحدَّى على الملأ الرئيس السادات بسؤال دون استئذان عن الأزمة التي عصفت بمصر في واحدة من أصعب مراحل تاريخ الجمهورية أثناء ما عُرِف بـ "ثورة الخبز". لابد أن عبد المنعم كان يتحلى بشجاعة كبيرة، لأنه لم يتحدَّ الرئيس فقط، وإنما تحدَّى أنور السادات ذلك الذي كان قد سمح بنشر "الخطاب الإسلامي" في الجامعة لمواجهة حركات اليسار ومن جهة أخرى ذهب بعد ذلك، تحديدًا في ١٩٧٧، إلى القدس لإلقاء كلمة في الكنيست ووقع السلام مع إسرائيل. أجاب السادات على هجوم عبد المنعم بلباقة بتذكيره بواجب احترام الكبير مما تمليه التقاليد التي تحكم الأسرة العربية فوق كل اعتبار، سائلاً إياه: "هل تجرأ على الحديث بشكل غير لائق عن رب أسرتك؟" ولكن عبد المنعم تعلم من هذا الموقف أنه لا بد من قول الحقيقة دائمًا حتى وإن كان أمامك رئيس الجمهورية.

ومرت ثلاثون سنة على هذه الواقعة والآن الدكتور عبد المنعم يرتدي بذلة داكنة اللون رمادية الخطوط ولم يعد لديه حماس الشباب، بل أصبح يُعتبر رجل الوساطة، المعتدل، رسول السلام، البراجماتي، عندما يلتقي بامرأة غربية يصافحها دون تعقيدات حتى وإن كان في عُرف الإسلاميين لا يجوز مصافحة النساء اللهم إلا إن كانت ترتدي قفازًا لتجنُب تلامس الكفين المباشر. وإن اقتضى الأمر يضع الرجل يده على صدره تعبيرًا عن الترحاب و الاحترام، ولكن عبد المنعم يمد يده للمصافحة. إن عبد المنعم أصبح نقطة الالتقاء الحقيقية بين الإخوان وحركات المعارضة الجديدة التي ظهرت بعد الحادي عشر من سبتمبر والحرب الإنجليزية ـ الأمريكية على العراق. لم يكن من محض الصدفة إذن أن يكون عبد المنعم ضمن مؤسسي حركة "كفاية" في الاجتماع السرِّي الذي عُقِد في في الثاني من نوفمبر ٢٠٠٤ في منزل أبي العلاء ماضي أمين حزب "الوسط" الإسلامي المعتدل وحضره ما لا يزيد عن عشرين شخصًا من مختلف الاتجاهات السياسية.

"كفاية" التي أصبحت مشهورة بالاحتجاجات المتواضعة العدد ولكن الملحوظة في وسط القاهرة منذ صحوة ٢٠٠٥، هي في الواقع حركة سياسية غريبة ولدت تحت اسم يعني بالعربية الكثير؛ فـ "كفاية" هي الترجمة العربية لشعار "Ya bas-ta- كفاية" الذي استخدم عندنا في الماضي، فهي كلمة تعبر عن نوايا أعضاء الحركة الموجهة أولا ضد فكرة جمهورية الخلافة في مصر بعد التجربة السورية التي أثمرت عن اعتلاء بشار الأسد، ابن حافظ الأسد "أسد دمشق" الحكم. لقد قرر أعضاء "كفاية" (وغيرهم) النزول إلى الساحة عندما تأكدت مخاوفهم من أن جمال مبارك، وهو في ملء نشاطه السياسي السريع في الحزب الوطني الديموقراطي، الحزب الذى يترأسه والده من الممكن فعلا أن يخلف والده على الرغم من كل تصريحات القائلة المتكررة بتكذيب ذلك. ويقول المعارضون إن جمهورية الخلافة سيكون من شأنها تعضيد نظام يراه الباحثون الغربيون أنفسهم حكمًا مطلقًا.

لم يشارك في الاجتماع التأسيسي في منزل أبي العلاء ماضي شباب حقيقيون، إذ أن الشباب المصري الذي لم يعرف في حياته سوى قوانين الطوارئ

أتى في مرحلةٍ لاحقة. جاء على سبيل المثال، مع ظهور المدونين والناشطين الذين تظاهروا أكثر من مرة لصالح القضاة الذين طالبوا في ٢٠٠٦ بالاستقلال عن السلطة التنفيذية للحكومة احتجاجًا على عدم التزام انتخابات ٢٠٠٥ بالقواعد. في بداية العهد الجديد للمعارضة في مصر كانت المشاركة فقط "للشباب سابقًا" الذين اشتعلت رءوسهم شيبًا وانحنت بعض الشيء قاماتهم، ذلك الشباب العازم على بدء عهد جديد من المعارضة بعد مرحلة التجميد التي استمرت لعقود خلال نظام حسني مبارك الذي يروق كثيرًا للغرب. منهم مفكرون وناشطون ومهنيون من مختلف الانتماءات السياسية والثقافية والدينية -المتعارضة فيما بينها أحيانًا ـ تكاتفوا تحت راية "كفاية". نال عدد كبير منهم ما "يكفي" من ثلاثين عامًا مضت عندما كانوا طلابًا في جامعات القاهرة المتأججة وكانوا يحتجُّون ـ من اتجاهاتٍ متعارضة ـ ضد أنور السادات. كانت الصدامات في جامعة القاهرة بين اليسار الذي كان لايزال يشرف على الجامعة آنذاك والحركات الإسلامية الوليدة آنذاك: بين "الفاشيست"، كما كانوا يدعونهم خصومهم الماركسيين، والاشتراكيين والشيوعيين على الطريقة المصرية، لأن الشباب الذين كانوا يرفعون حينئذ شعار "الإسلام هو الحل" كانوا، حسبما يروى، يحظون بتأييد دون مواراة من رجال شرطة السادات.

وهكذا، التقى أبطال حركة الاحتجاجات المضطربة التي كانت واختتمت في السبعينيات، وتجمعوا من جديد منذ ٢٠٠٥على جبهة "كفاية": ماركسيون قدامى وإخوان مسلمون ومناهضون للسياسية الأمريكية وللسياسة الإسرائيلية وناشطون ضد احتلال العراق. وهناك كذلك أقباط من اليسار الاشتراكي مثل أمين حركة "كفاية" نفسه، چورچ إسحاق، الثوري القديم والمُتَحمِّس، الذي يصف نشأة الحركة كمحاولة للتغلب على "ثقافة الخوف" التي أصابت الجميع من عشرات السنين.

عما حدث في مصر التي استحقت تسميتها بالمعمل السياسي الرئيسي في المنطقة، يحدثنا محمد السيد سعيد، أحد ممثلي الفكر العلماني ونائب رئيس مركز الأهرام للدراسات الاستراتيچية (الموالي للحكومة) وواحد من أهم ممثلي المعارضة، يقول: "لقد تحقق في الخمس عشرة سنة الأخيرة جانب كبير من التفاهم المتبادل بين اليسار الجامعي القديم والجناح البراجماتي للإسلاميين،

تحطمت فيه الصور النمطية التي كان يرسمها كل طرف للآخر. في واقع الأمر كان براجمتيو الإخوان ذوو الخمسين من عمرهم، الذين يتزعمون العديد من النقابات المهمة، هم من فكّوا الجمود وبدءوا الحوار دون أن يمسوا هويتهم كناشطين إسلاميين. ومن الجانب الآخر كان أن تجاوب معهم في هذا الحوار مفكرون بوزن سعد الدين إبراهيم، أهم المفكرين الاجتماعيين في مصر، والذي اعتقل لمدة عام ونصف بين ٢٠٠١ و ٢٠٠٢ بدعوى تلقّي تمويل من قوى خارجية (الاتحاد الأوروبي) لصالح مركز "ابن خلدون" للدراسات الذي ينتسب إليه. ولكن سبب اعتقاله كان على الأرجح حديثه عن الانتهاكات في حق الأقباط في انتخابات ٢٠٠٠. تعرّف سعد الدين إبراهيم على الإخوان وراء القضبان، ولقد أكدت له علاقته بهم ما كان يفكر فيه بالفعل: أنه لا بد من الحوار مع الإخوان، ولكن لابد أيضًا من التفكير في دخولهم الشرعي في المشهد السياسي. تلك كانت النتيجة نفسها التي توصل إليها الشباب العلمانيون الذين تم اعتقالهم مع الشباب (الإسلاميين) الآخر في حملة الاعتقالات في ربيع ٢٠٠٦" .إن الجيل الجديد من الإسلاميين يقرأ المدونات ويشاهد "الجزيرة" ويغني الأغاني الشعبية ويتحدث عن قصص حب متأجج ويهتف "كفاية". هذه كانت كلمات أكبر مُدوّن مصري، وهو علاء، صاحب manalaa.net بعد أن أطلق سراحه بعد شهر ونصف من السجن لتظاهره السلمي في القاهرة لصالح القضاة الذين كانوا يطالبون بالاستقلال عن السلطة التنفيذية.

على الرغم من أن "كفاية" حركة يغلب على أبعادها طابع النخبة، فإنها أظهرت ما كان كامنًا في حركات المعارضة في جميع أنحاء العالم العربي ضد الأنظمة التي تعتبر، على أفضل الفروض، بحاجة لإصلاحات جذرية، أو يجب على أسوئها، التخلص منها باعتبارها عقبة في طريق تحقيق الديموقراطية الكاملة. يرى معظم المفكرين العرب ويؤيدهم في الرأي عدد كبير من الباحثين الأوروبيين بل والأمريكان أيضًا، أنه يمكن تحقيق الإصلاح في المنطقة فقط إذا ما وجد تحالف بين الساحة العلمانية عمومًا (والذي يعيش بداخلها بحسب صبغاتها القومية، ليبراليون واشتراكيون وقوميون جدد) والحركات الجماهيرية الإسلامية، التي يعتبرها الحركات الشعبية الوحيدة في القرن الحادي والعشرين في العالم العربي حسب تقرير Carnegie Endoowment للسلام الدولي في مارس ٢٠٠٦ وهو أمريكي، ولكنه بعيد عن مواقف إدارة بوش.

إن تقرير ناثان برون، وعمر حمزاوي ومارينا أوتاوي جاء قاطعًا: "في عدد كبير من البلاد العربية، يمثل الإسلاميون المعارضة الوحيدة ضد الأنظمة غير الديموقراطية الموجودة.". أي أنهم يعطون لهذه الحركات رخصة ممارسة العمل السياسي، رخصة أن يكونوا طرف الحوار السياسي لتغيير الصورة التي لازالت لدى مكاتب الشئون الخارجية في الغرب. وليكن واضحًا أنه حتى وإن كانت الصورة التي يرسمها خبراء المركز ليست كلها وردية، فإنهم لم يتطرقوا إلى كل المشكلات الموجودة وتبقى هناك ست "مناطق رمادية" لم يتم توضيحها بعد عن الإسلام السياسي. بدءًا من دور الشريعة في أحكام القضاء المحلية إلى استخدام العنف الذي، على الرغم من أنه قد تم إلغاؤه من عدد كبير من الحركات الإسلامية، يبقى موجودًا في حزب الله الشيعي في لبنان وفي "حماس" في فلسطين، حيث يعتبر الصراع العسكري مع إسرائيل بالنسبة للأول واحتلال الأراضي الفلسطينية بالنسبة للثاني أمرين لا يمكن التهاون فيهما. هناك أيضًا التعددية السياسية وحماية الحقوق المدنية. وهما مازال يعتقد الكثيرون أنه لا يمكن حمايتهما حال وصول الإسلاميين للحكم وأخيرًا تأتي المسألتان الأكثر حساسية وهما حقوق المرأة ودور الأقليات الدينية، واللتان كثيرًا ما يتركز عليهما نظر الغرب وانتقاداته، ولكن الحوار حولهما يشق طريقه لدى جانب كبير من العرب، مستمر.

لأن السؤال المطروح بسيط جدًا وربما يعتبره البعض تافهًا: لماذا قاوم الإسلام السياسي لعشرات السنين ولم يفقد بريقه وجاذبيته في أعين مؤيديه؟ قد تعطي لنا الثنائية التي تفرض نفسها بين غرب غير واضح الملامح وإسلام على نفس القدر من التشوش، واحدة من مفاتيح قراءة هذا الواقع حتى وإن لم تكن أكثرهم كشفًا له، لاسيما إذا لاحظنا سلوك النساء الذي يعد مؤشرًا حقيقيًا لما يحدث إنهن بالذات من أحدث اختلافًا في بعض الدول وفي بعض الانتخابات حتى وإن كانت قضية المرأة ـ وليس فقط من قبل محللي Carnegie Endowment ـ لا زالت تعتبر واحدة من "المناطق الرمادية" في الفكر الإسلامي. على سبيل المثال كانت النساء رمز الانفصال الذي انتشر بين قوميي "فتح" وقاعدتها التاريخية في المجتمع الفلسطيني شديد العلمانية، في الخليل عشية الانتخابات التشريعية التي وثقت فوز "حماس" (الذي لم تكن تتوقع أبعاده حتى حركة "حماس" الأصولية

نفسها). كان واضحًا ماذا كن سيخترن النساء في عاصمة القطاع الجنوبي من الضفة. لم تذهب تقريبًا ولا واحدة منهن إلى الاجتماع الختامي لجبريل رجوب، وهو واحدٌ من أهم رجال "فتح"، الذي أحاطته بضعة آلاف من الجماهير التي كان لها شكل جماهير السياسة، بينما ذهبت عشرات الآلاف من النساء عن قناعة كبيرة إلى اجتماع الشقيق الأصغر، الشيخ ناظف رجوب، أحد قادة "حماس"، مما أكد الفصل، الذي بات واضحًا، بين حزب ـ دولة وجماعة لا تشعر بعد بأنه معترف بها ولها احترامها واستخدمت سلاح الانتخابات لمعاقبة من استخدم السلطة دون أن يراعي مصلحة الشعب فيها، ولكنها بدلاً من ذلك ـ وكان هذا هو الاتهام ـ شجعت الفساد والامتيازات لفئةٍ صغيرة معينة.

ومن ناحية أخرى، فإن فلسطين ليست حالة فردية فيما يتعلق بهذا الاختيار النسائي. يكفي أن نتوجه إلى شبه الجزيرة العربية وصولا إلى الصحاري الكويتية نكتشف أن حق المرأة في الاقتراع الذي طال انتظاره طيلة سنوات عديدة وتمت الموافقة عليه فقط في ربيع ٢٠٠٥، جاء إقراره عندما قامت الإسلاميات بالضغط على رؤساء أحزابهن كي يغيروا من موقفهم ويسمحوا بدخول شريحة جديدة في الانتخابات، كان أن تأكدوا، حقيقةً من المكاسب التي سوف يجنونها سواء من التأييد أو المقاعد في البرلمان.

"ديموقراطية مسيحية"[١] على الطريقة الإسلامية؟

إن التحالف بين العلمانيين والإسلاميين، والذي يبدو مستحيلا في نظر الغرب بعد الحادي عشر من سبتمبر، يبدو في نظر العرب أقل غرابة، شيئًا يمكن تقبله بل إنه جزء من نقاش مستمر منذ سنوات عدة يتجاهله الغرب المهتم فقط بالمعركة ضد كيان غير واضح المعالم سُمي "الإرهاب الإسلامي".

بادئ ذي بدء، هناك معلومة ليست جديدة ولكنها ضرورية: الحركات الإسلامية ليست "القاعدة" ولا يصنع أعضاؤها نظريات الحرب المقدسة (الجهاد) ولا يستخدمون العنف للوصول إلى السلطة. اسمهم "الإخوان المسلمون" في مصر وسوريا والأردن. ولهم شكلان في المغرب: واحد شرعي، وهو حزب

---

(١) "الديموقراطية المسيحية" هو اسم حزب شهير في إيطاليا: Democrazia Cristiana (المترجمة)

العدالة والتنمية، وآخر أكثر انتشارًا وهو "جماعة العدل والإحسان" بقيادة نادية ياسين. في جزيرة البحرين الصغيرة التي تعيش فيها طوائف دينية وعرقية متنوعة، توجد حركة الإسلاميين الشيعة واسمها "وفاق" والسُنَّة وهي "المنبر"، أما في الجزائر التي تعاني منذ عشر سنوات من الحرب الأهلية التي كان من الممكن أن تنتهي بإلغاء الحركات الإسلامية، أصبحت الآن الأحزاب التي تنادي بالإسلام السياسي فيها ثلاثة، اثنان منهم في البرلمان والثالث، أي "الجبهة الإسلامية" القديمة التي بدأت ضدها الحرب الأهلية، لازال خارج البرلمان. إسلاميو "النهضة" في تونس غير معترف بهم على الإطلاق لدرجة أن قيادتهم بالكامل خارج البلاد. فموقف الحركات الإسلامية رسمي في بعض البلاد التي تعترف بهم وتسمح بدخولهم البرلمان، بينما في بعض الدول الأخرى هي حركات غير شرعية على المستوى الشكلي، ولكنها متأصلة بعمق على المستوى الاجتماعي.

ومن الجدير بالذكر أن أسامة بن لادن ولاسيما الدكتور أيمن الظواهري، طبيب المسالك البولية المصري الذي يعتبر الرجل الثاني في "القاعدة"، لا يحبون الحركات الإسلامية، بل إن "القاعدة" تعتبرهم خطرًا وعدوًا بنفس الطريقة التي كانت تكره بها جماعة الألوية الحمراء الحزب الشيوعي Pciفي إيطاليا بقيادة أنريكو بيرلينجير أو الاتحاد العام للعمال Cgil بقيادة لوتشانو لاما. إن الحركات الإسلامية مستهدفة من "القاعدة" منذ وقت طويل وخاصةً منذ أن تقوّت محاولاتهم للدخول في السياسة والانتخابات في مصر وسوريا وتونس بتأييد جانب كبير من المعارضة حتى تلك التي لا علاقة لها بالدين.

بالنسبة لنا إمكانية عقد اتفاق برامج بين العلمانيين والإسلاميين في الأنظمة القومية المختلفة أمر يصعب فهمه لاسيما من الناحية النظرية، فضلاً عن أنه يثير آراء مسبقة سطحية جدًا تخلو من التمحيص؛ باختصار كيف يتسنى لتيارات فكرية، نراها على طرفي نقيض، التوصل إلى اتفاق فيما بينها. ممثلو العلمانية ودعاة الحداثة على الشاطئ الجنوبي للبحر المتوسط، من ناحية، ومن الناحية الأخرى أولئك الذين نصورهم على أنهم يرفعون شعار مناهضة الحداثة وراية "الرجعية" الاجتماعية والثقافية؟ يتبادر إلى الأذهان أنه ربما سيطرت هذه الحيرة على من كان ينظر ـ من الخارج ـ إلى التحالف بين الاشتراكيين المناهضين لرجال الدين والديموقراطيين المسيحيين أثناء الحرب العالمية الثانية.

لقد اتحدت القوى المتباينة آنذاك بفضل أولويات أطاحت بكل الخلافات السابقة. كان لابد من مقاومة النازية ـ الفاشية في إيطاليا، وهكذا في فرنسا ويكفي ذلك كمثال لقصتين سياسيتين متوازيتي المسار على الأقل في الفترة بين نهاية الحرب العالمية وبداية الحرب الباردة. كان الجميع يريد الحرية والاستقلال. التباين والتوجهات الدينية أو الثقافية المختلفة وتقبل الحداثة وما هو ضدها كل ذلك كان سيتم مناقشته بعد تحقيق الهدف. ثم إنه مع نهاية الحرب العالمية الثانية صمد التحالف الذي ولد داخل لجان التحرير الوطنية أمام تجربة سياسية كبيرة مثلما حدث عندما تشكلت الهيئة التأسيسية وتكاتف رجالٌ من توجهات تختلف كثيرًا فيما بينها وأخرجوا لنا دستور الدولة الذي نجح في إنقاذ الجميع دون المساس بكرامة أي من الأطراف المشاركة في ذلك الحلف التأسيسي.

من المعروف أن المقارنات التاريخية لا تنفع عندما تتغير جميع أوجهها أو تكاد. إن أوروبا بعد الحرب العالمية الثانية، وقد دمرها صراع خلف خسائر رهيبة، ليست المنطقة العربية في بداية الألفية الثالثة بأزماتها والمرحلة الانتقالية التي تمر بها، والديموقراطيون المسيحيون ليسوا الإخوان المسلمين. إن الكاثوليكية التي تولد عنها حزب الديموقراطيين المسيحيين لحاجة سياسية لدى جماهير المؤمنين، ليست الإسلام. إلا أن ثمّة عنصرًا واحدًا من أوجه المقارنة لم يتغير ألا وهو الحاجة، أي الشعور بضرورة التغيير الذي يسيطر على النخبة العربية ويتجاوزها إلى الجماهير العريضة على اختلاف انتماءاتها. هذه الحاجة لم يحركها بالطبع صراعٌ عالمي دائر، ولكن ما حركها هو الإحساس بأن العالم العربي أصبح في آخر الصف في نظر عالم يُهمّشه ورفض استمرار ذلك العالم في التحكم في تقرير مصيره.

منذ سنوات ترابض القوات الغربية في صحاري العراق والأمر ليس كما حدث في حرب الخليج في ١٩٩١ عندما تدخلت القوات الدولية لصالح الكويت ضد العراق في نزاع عربي ـ عربي، بتأييد عدد كبير من أعضاء الجامعة العربية بما فيهم سوريا، ولكن أحدًا لم يطلب تدخل القوات الأمريكية والبريطانية التي وصلت إلى بغداد في ٢٠٠٣. ولذا يجمع العرب على اختلاف انتماءاتهم على أنها قوات احتلال. وهذا الوجود لا يمكنه ألا يعيد إلى الذاكرة قصة مؤلمة لم يتم

ـضمها بالكامل حتى الآن ألا وهي اتفاق Sykes-Pikot بعد الحرب العالمية الأولى وتقسيم العالم العربي من قِبَل القوى الاستعمارية الأوروبية. وهناك ما هو أكثر من ذلك. جعلت الدبابات وقوات المارينز الأمريكية من هذا الغزو الاستعماري الجديد أمرًا واقعًا يعترض عليه معظم العرب (علمانيون وإسلاميون) منذ سنوات عديدة، ويرون فيه تصرفًا غير مقبول من جانب الولايات المتحدة، التي تعتبرها الغالبية العظمى، اليد الخفية لإسرائيل ومطامعها في إعادة رسم المنطقة سياسيًا وحدوديًا.

فالضرورة إذن موجودة. وهناك الإحساس بالحصار العسكري والغزو الثقافي والسياسي أيضًا. وبناء على ذلك، هناك العلاقة بين المواطنين العرب وأنظمتهم الحاكمة التي تُعتَبَر أنظمة استبدادية، فاسدة، أو في تقدير أفضل، لا زال ينقصها الكثير على صعيد الديموقراطية. إذن، ستكون ضرورة التخلص من القوى الاستعمارية الجديدة وأهمية إرساء أنظمة ديموقراطية كاملة وفعالة أساس أي تحالف ممكن بين العلمانيين والإسلاميين: إنها في عبارةٍ بسيطة، تلك الرغبة في الحرية التي تجمع بين الطرفين وولَّدت قناعة لدى كثيرٍ من العلمانيين بضرورة إخراج الإسلاميين من مكامنهم ومنحهم، على الأقل، حرية المشاركة داخل المجتمعات السياسية.

إن القطاعات التي يطلق عليها الباحثون اسم "العلمانية التعددية" أي تلك المؤيدة للدولة "الزمنية"[1] المدنية، المنفتحة أمام الإسلاميين في المطبخ السياسي، تعتقد أنه لايمكن التفكير في تحقيق الديموقراطية في الدول العربية دون وجود، على الأقل، "للحداثيين" أو"للقوميين" طبقًا لتسمية أخرى، أي ـ وبغض النظر عن أي المسميين نفضل ـ الحركات الإسلامية، ليس فقط السُنّية منها، التي تستقي منهجها، بطريقة أخرى، من الإسلام السياسي وترى أن القرآن يمكن أن يُفسَّر بطريقة حداثية تمكن المسلمين من العيش في الواقع. إنها الحركات الإسلامية التي تأخذ بالاجتهاد، أي تفسير الواقع لفهم ما إذا كان متماشيًا مع النص، وممثلهم الأساسي هو الشيخ القطري يوسف القرضاوي.

(١) استخدمت المؤلفة تسمية secolari ويقصد بهم في أوروبا المؤيدون للسلطة المدنية أو كما كانوا يسمونها فيما سبق بالزمنية في مقابل السلطة الدينية (من خلال رجال الدين). لدى القارئ الإيطالي.

ترى العلمانية المتعددة بأنه لايمكن أن تكون هناك ديموقراطية عربية على المدى القريب، أو حتى المتوسط، إذا ما استمر تهميش الإسلام كأيديولوچية سياسية والإسلاميين كساسة. من جانبهم، أطلق الإسلاميون الحداثيون في الفترة الأخيرة إشارات عديدة على انفتاحهم وتقبلهم الانتقائي لبعض القيم سواء من العالم العلماني أم من العالم الغربي. لقد أوضح السبب في هذا رشيد الغَنُّوشي، زعيم حركة "النهضة" الإسلامية التونسية. كتب غنوشي منذ عشر سنوات مضت: "إذا قُدِّر للإسلاميين استيعاب قيم الحداثة الغربية مثل الديموقراطية وحقوق الإنسان، فإنهم سيبحثون لها عن مكان في الإسلام ويغرسونها وينمونها ويحمونها تمامًا مثلما فعل الغرب من قبل عندما غرس هذه القيم في أرض أقل خصوبة من الإسلام.".

ولكن من المؤكد أن تقبل الجديد سيكون له حدود ولا يمكننا تصور أن الإسلاميين العرب من الممكن أن "يتساهلوا" طبقًا لرغباتنا، ولكنهم موجودون بالفعل وهم الحركات الجماهيرية الوحيدة الموجودة الآن في المنطقة، التي سلمت مما نال غيرها من الحركات الجماهيرية مثل حركات القومية والاشتراكية والعروبة، التي انتهى بها الأمر الآن إلى أحزاب صغيرة لا قيمة لها أو كتلك التي تحولت على مر السنين إلى أحزاب حاكمة مثل حزب البعث في سوريا وجبهة التحرير الوطنية في الجزائر؛ "من منهم بقي في المنافسة ومن الذي استبعده تاريخنا المعاصر؟"هكذا تتساءل بحيويتها المعروفة نادية ياسين، المتحدثة باسم أهم حركة إسلامية مغربية "العدل والإحسان" غير المُمَثلة في البرلمان مثل "حزب العدل والتنمية" الضلع (الشرعي) للإسلام السياسي في المغرب، والذي يرى بعض الباحثين أنه قد تم ترويضه من قبل الملك الحسن الثاني أولا ثم من ابنه الملك محمد السادس.

"إن الحركات الإسلامية هي نتاج مرحلة تمتد جذورها إلى ماضٍ ليس بالقريب. لقد فقدت حركات اليسار ركيزتها بعد انهيار الاتحاد السوفيتي، ولكنها لازالت "تتفلسف" حول تجربتها ذات التاريخ" هذا ما تقوله نادية ياسين وتضيف أن هذا هو السبب في أن: "الحركات الإسلامية ستؤثر على المستقبل (الذي أصبح حاضرًا بالفعل) في العالم العربي."وتحريًا للدقة، سيستمر أثرها على

الأقل لمدة العشرين أو الثلاثين سنة القادمة، حسبما عقّب العلماني المصري محمد السيد سعيد الذي لا يعتقد أن تأثير هذه الحركات محصور فقط على الطبقات الفقيرة (حسب الرؤية الشائعة في الغرب من أن جماعات مثل الإخوان المسلمين تحظى بتأييد الجماهير فقط من خلال مؤسساتها الخيرية). لا فالإسلاميون "أثّروا بقوة على الطبقات المتوسطة" والدليل على هذا سيطرة الإسلاميين، في جميع أنحاء العالم العربي، على رئاسة النقابات العديدة التي أعدَّت نخبة المنطقة في الفترة القادمة: جيشٌ من الأطباء والمحامين والمهندسين والصيدلانيين والمُعلِّمين والفنيين الذين فضلوا الطريق الإسلامية على السياسة العربية الجديدة.

محمد السيد سعيد هو أكثر من يميل لفكرة أن هذه الحركات من الممكن "أن تحل محل اليمين (المعتدل)" مثلما فعل الديموقراطيون المسيحيون في إيطاليا وألمانيا بعد الحرب العالمية الثانية. ومثلها في ذلك مثل اليمين الأوروبي (المعتدل)، فإن الحركات الإسلامية ذات فكر محافظ، كان له الفضل في السنوات الأخيرة في الحفاظ على هويةٍ تهددها الحداثة، الإيجابية نظريًا فقط، ولكنها كثيرًا ما تكون مخرِّبة على مستوًى القيم الاجتماعية والثقافية والأخلاقية، وخير مثال على ذلك ظهور ضواحي[1] مدن وعشوائيات ضخمة ضاع فيها الشعور بالذات وبالجماعة وبمجموعة من القيم الثابتة، في دوامةٍ من اليأس.

ولكن لابد أن نتنبه إلى التباين بين المسيحية والإسلام. يرى نائب رئيس مركز دراسات الأهرام أن "الإسلام يفوق المسيحية بكثير في تداخله في الحياة العامة والخاصة" بينما يفضل الدكتور عبد المنعم أبو الفتوح شرح هذا الاختلاف من جذوره، بعيدًا عن أي لبس كما هي عادته فيقول: "يتصور الناس في الغرب أن الإسلام ديانة مماثلة للمسيحية التي تؤدي دورها داخل الكنيسة. وبالمثل يعتقدون

---

(١) استخدمت المؤلفة كلمة banlieue الفرنسية وهي ضواحي باريس الفقيرة التي كانت قد أنشأت لتعيش فيها الأيدي العاملة بشكل مؤقت، ومع مرور الوقت وزيادة تدفق المهاجرين من مستعمرات فرنسا السابقة استقر هؤلاء فيها في أوضاع اقتصادية واجتماعية صعبة. فأصبحت الكلمة تحمل معنى التهميش والفقر الذي يعيش فيه سكان هذه الضواحي، مما دفعهم إلى القيام بأحداث شغب كبيرة في العاصمة الفرنسية في نوفمبر ٢٠٠٥ كردود فعل على تهميشهم في المجتمع الفرنسي.

أن دور الإسلام ينتهي داخل المسجد." الأمر ليس كذلك ويوضح هذا شخصيتي عيسى ومحمد: "كان عيسى نبيًا ورسولاً من الله، أما محمد فكان نبيًا ورسولا وقائدًا سياسيًا." هكذا يشرح لنا زعيم الإخوان المصري. ولهذا السبب فإن رؤية الغرب للإسلام مغلوطة لأن، حسبما يذكر: "التصور السائد أحيانًا هو أن الحركة السياسية هي التي تريد أن تُسيِّس الدين، ولكن الحقيقة هي أن الدين الإسلامي هو الذي يعنى بالسياسة." ويُعقِّب الدكتور عبد المنعم: "أعطوا ما لقيصر لقيصر و ما لله لله. هكذا مكتوب في الإنجيل الذي نحترمه "ولكن "الإسلام يستطيع أن يتدخل ويقول رأيه في القانون وفي الاقتصاد وفي السياسة وفي حقوق الإنسان."."

إن هذا تحديدًا هو ما يخلق عدم الفهم والمسافة الفاصلة عن غرب يتم تصوره منغلقًا على ذاته داخل فلسفة تنويرية يستحيل الشك فيها أو حتى أخذها بشكل نسبي. نادية ياسين، التي تفهم جيدًا الثقافة الغربية، ترفض بوضوح فكرة انقسام الحركات الإسلامية ـ مستقبلا ـ إلى قسم ديني وتكون أيديولوجيتها فيه معلنة (وبالتالي يكون أكثر تشددًا) و حزب سياسي حقيقي على النقيض من ذلك ما حدث في الأردن، حيث أصبحت "الجبهة الإسلامية" المُمثِلة السياسية والبرلمانية للإخوان المسلمين في نموذج هناك من يرغب ـ الغرب خاصةً ـ نشره في دول عربية أخرى: "إن هذا الانقسام في فهم الحركات الإسلامية ربما يكون أساسه رغبة الغرب في فهم الأمور بهذه الطريقة. ولكن فيما يخص الإسلام، لا بد من التخلص من هذه الفكرة لفهم كيف أن تنمية الفرد الروحية لا تتعارض أبدًا مع معركته من أجل مجتمع عادل." و"الإسلام هو دين الوسيلة الصحيحة مهما أساءوا القول فيه. هو ممارسة الوسيلة الصحيحة.".

أما فكرة الإسلام الذي يتعارض مع الديموقراطية فقد، أصبحت تلقى رواجًا كبيرًا في الغرب بل والأكثر من ذلك أن البعض في أوروبا، وكذلك من بين النخبة الليبرالية في الشرق الأوسط وشمال إفريقيا، يندفع نحو ما هو أبعد ويقارن جميع الحركات الإسلامية (هكذا دون تمييز الفروق بينها) بالحركة القومية الاشتراكية القديمة. إن النازية أيضًا كانت حركة تؤيدها الجماهير العريضة، ولذا فلا يكفي عدد وحجم الحشود المؤيدة لحركة ما للترخيص بوجودها. هذا صحيح حقًا ولكن

مع وجود اختلاف ليس بالهين هنا: الإسلاميون شيء والنازيون شيءٌ آخر، ولكنه من السهل ومن الخطأ أن نقرن الإسلام السياسي بالقومية الاشتراكية دون أن نتنبه للاختلافات بينهما أو آن نتعرف على الأطوار التي عانت منها الحركات الجماهيرية في السنوات الأخيرة.

إلا أن الخبراء في شئون العالم العربي والإسلامي، وكذلك العلمانيون المنفتحون على الحوار يميلون نحو تغيير التناول السائد في العشرين سنة الأخيرة في اتجاه التغيرات السياسية الإسلامية الأساسية. وذلك بتجاوز الجدل الأيديولوچي واعتبار التطبيق العملي والممارسات اليومية. ومن الملاحظ على وجه العموم أن قيادات الإسلاميين هي التي تطالب بالترخيص لها وفتح الأبواب التي مازالت موصدة أمامهم، في الوقت ذاته يرى العلمانيون أنه فقط من خلال استيعاب هذه الحركات - إن أمكن وربما في حركة استخفاف بحتة - يمكن تحجيم الإسلاميين داخل إطار مؤسسي محكم لا يسمح بتسرب الرؤى المتشددة الأكثر أصولية. باختصار، هناك طريقة واحدة لطرد المخاوف من أن يدوس الإسلاميون على القواعد إذا تقلدوا السلطة وأن يطالب الإسلام السياسي (كما تقول النظرية السائدة خاصة في الولايات المتحدة) بالديموقراطية والانتخابات الحرة بهدفٍ واحد وهو "كرسي وانتخاب لمرةٍ واحدة". لا بد إذن من إدخال الإسلاميين في المطبخ السياسي كما يرى العديد من العقول الباحثة وكما هو واضح في واقع الأمر، حتى وإن كان بشكل جزئي، مثلما حدث في المغرب ويحدث الآن في الجزائر، ولكن بعد عشر سنوات من الحرب الأهلية.

وحتى النموذج الجزائري فهو ينطق اليوم بلغة "الاستيعاب الانتقائي"، كما وصفته في دقة إيزابيل ورينفل، المُحلِلة بأحد أفضل مراكز البحث في أوروبا، وهو الألماني Swp Stiftung Wissenschaft und Politik. لقد تم الأخذ بنظام التضمين هذا بعد الفشل الذريع لفكرة استبعاد الحركات الإسلامية تمامًا من المشهد السياسي، والتي كلفت الجزائر عشر سنوات من الحرب الأهلية الدامية والمواجهة المسلحة بين قوات الأمن والإرهاب المسمى بالإسلامي. إن الانقلاب الأبيض الذي اختاره القادة السياسيون والجيش الجزائري في يناير ١٩٩٢ عندما لم يؤخذ بنتائج الانتخابات التي أكدت النجاح الساحق للجبهة الإسلامية لم يكن

مؤشرًا على نهاية الإسلاميين ولم يستأصلهم القمع والسجن الجماعي وأحكام الإعدام دون محاكمة. كانت سياسة فرِّق تسد التي مارسها الرئيس عبد العزيز بوتفليقة في السنوات الأخيرة أكثر فاعلية، إذ تم الاعتراف ببعض القطاعات الإسلامية وضمّها جزئيًا بمؤسسات الدولة، بينما ظلت الجبهة الإسلامية غير معترف بها حتى وإن كان الرئيس بوتفليقة فتح الطريق في ٢٠٠٦ أمام مصالحة يتحكم فيها النظام (ولذا لا تعترف بالانتهاكات التي ارتكبتها قوات الأمن) مع الجبهة، وذلك بإطلاق سراح مئات من ممثليها.

أما التجربة المغربية، فهي أجدر بالانتباه حيث طبقت "التضمين الانتقائي" (أو لنقل "الاستئناس" كما تصفه ورينفلز) منذ البداية مستفيدة من الدرس الجزائري الدامي؛ فكَّر الملك الحسن الثاني عند نهاية ملكه المديد أنه من الأفضل السماح للإسلاميين بالدخول في المعترك السياسي لتلافي مشاكل أكبر، انطلاقًا من أمر واقع جوهري يساعد أيضًا في فهم كيف تم تقنين الإخوان المسلمين في الأردن على يد الملك حسين، أبو الملك عبد الله، وهو أن ما يتهدد الملكية أقل بكثير منه في حالة الجمهورية، لأن الملكية في حد ذاتها تتمتع بشرعية كبيرة لا يمكن أن يضعها الإسلاميون محل نقاش خاصة في المغرب، حيث يُعتبر الملك سليلا مباشرًا للرسول. ولكن حتى في هذه الحالة الصورة ليست واضحة تمامًا ولا ثابتة دائمًا كما يتضح من الهجوم على الملكية الذي تقوده منذ سنوات نادية ياسين التي فهمت جيدًا إلى أي حد يظل الملك عائقًا في طريق وصول الإسلاميين. ولذا فالإصلاح من الأعلى إلى الأسفل ـ كما حدث في الرباط ـ لا يحل جوهر المشكلة وهو المطالبة القوية التي لا تقبل النقاش بديموقراطية حقيقية.

أحفاد ابن خلدون

يتضح أن هناك شريحة كبيرة من مفكري المنطقة لها أهداف طموحة في رحلة البحث عن النهضة العربية الجديدة خاصة إذا انتهينا إلى أن لديهم العزم على تحقيق ذلك في واحدة من أصعب مراحل التاريخ المعاصر. إن الحراك والإبداع الفني والسياسي الكامن تحت الرماد هو الذي يسير لصالح أحفاد ابن خلدون، المؤرخ والاقتصادي والقاضي في الأزهر ومؤسس علم الاجتماع في منتصف القرن الرابع عشر عندما كنّا نفكر نحن [في الغرب] في أشياء أخرى

وكانت الحداثة خاصة بالثقافة الإسلامية. إن الحراك الثقافي والسياسي والقيمي هم أساس حقبة متفردة كتلك الحالية والتي نلمح فيها، براعم نبتة جديدة تخرج حول الصراعات الدائرة: إنها رغبة العرب في استعادة امتلاكهم لمصيرهم وحريتهم.

وخرج أيضًا بيان غريب لهذه التطلعات السياسية والثقافية وكالعادة لم يوافق عليه الجميع، ولكن في المقابل تمت مناقشته في جميع المنتديات والجامعات والحركات السياسية ومقاهي المثقفين وهو بالطبع أهم البيانات التي صدرت بعد الحادي عشر من سبتمبر، وهو مكوّن من مائتين وخمسين صفحة حررها ستّون مفكرًا عربيًا جمعتهم الأمم المتحدة التي قررت أن تخصص واحدًا من تقاريرها عن التنمية في العالم العربي وعن الإصلاح السياسي أيضًا. وهكذا ولد، بناء على رغبة منظمة الأمم المتحدة للسكان التقرير المعنون Towards Freedom in the Arab World (نحو الحرية في العالم العربي) والمسمّى أحيانًا Ahdr ٢٠٠٤ (ولكنه نشر في العام التالي لأن مضمونه لم يكن يروق للولايات المتحدة ولا لإسرائيل ولا لمصر)؛ وتلك الأحرف الأولى الجامدة تحتوي على محاولة لتوصيف الوضع السياسي والمؤسسي في العالم العربي والوصفات والنصائح النافعة لمستقبل هذا الوضع. ليس من محض الصدفة أن يتضمن عنوان التقرير شرطًا واحدًا أساسيًا لا يتمثل في الديموقراطية، وقد حط من قدرها استخدام الغرب المُشَوش لها وعدم مصداقيته في تناولها وتحقيقها، وإنما المطلب الذي لا غنى عنه هو الحرية.

"لا يشك أي مفكر عربي في كون الحرية شرطًا أساسيًا من أجل نهضة عربية جديدة، ولكن هذه النهضة لن يمكن تحقيقها في ظل غياب أي من الحرية أو التنمية أو العدالة المرتبطة فيما بينها" هكذا يقول المفكرون المجتمعون حول عالم الاجتماع نادر فرجاني الذي لا يخشى شيئًا عندما (من خلال مقاطعة السجائر المصنوعة في الولايات المتحدة أيضًا) يؤكد مناهضته لأمريكا بشأن توجهات إدارة بوش حيال العرب والمسلمين. نظريًا، إنه طموح المفكرين العرب البسيط وإن كان صعب التحقيق يتمثل في بناء دولة تحترم الحريات الأساسية، دولة تَعبُر بالمنطقة من المرحلة الانتقالية المؤبدة التي تعيش فيها تحت أنظمة استبدادية منذ عشرات

السنين إلى مرحلة الأنظمة "الديموقراطية" الحقة. الخيبة بالنسبة لنا كغربيين تكمن في أن هذه الأنظمة الجديدة هناك من يرى ضرورة تنظيمها طبقًا لنماذج مؤسسية وسياسية تختلف عن تلك التي يطرحها الغرب التي باتت تغشى صورته الأفكار المسبقة وغياب الثقة والمصداقية سواء عندما يحمل الانتخابات في بغداد على المدافع أم عندما يدافع عن الأنظمة الموجودة بالفعل ويقترح نماذج سابقة التجهيز وجامدة للديموقراطية "حسب المقاس"، على حد تعبير عبد المنعم أبو الفتوح؛ على مقاس متطلبات الغرب لا على متطلبات العالم العربي.

كتيبة الـ Ahdr ٢٠٠٤ لا تتحدث من أجل الاعتراض فقط وكأنها تقول: نحن ضد النموذج الغربي، ولكن ليس لدينا نموذج آخر لنطرحه. على العكس، الوصفة موجودة بالفعل. إنها نهضة اجتماعية ينطلق منها الإصلاح داخل أنظمة لازالت على قيد الحياة فقط، لأن الغرب لازال يرى أنها ضرورية لوقف الإسلام السياسي المتزايد. ولقد نجحت حتى الآن السياسة الأمريكية والأوروبية أيضًا في تحقيق هدفٍ واحد ألا وهو النمو الكبير للحركات الدينية وتوفير الأرض المشتركة بين العلمانيين والإسلاميين والدفاع عن الحريات والحقوق بل، والأكثر من ذلك، إنها سهَّلَت النجاحات الساحقة للأحزاب الإسلامية في جميع الاستشارات السياسية في المنطقة فاتحة أمامها الطريق لنجاحاتٍ أخرى في الانتخابات المزمعة لاستكمال صورة العالم العربي الجديدة. إنها بانوراما تختلف بالفعل كثيرًا عمَّا تصوَّرَه مخططو إدارة بوش الابن الذين تفتقت قريحتهم في البداية عن نظرية الشرق الأوسط الكبير ثم بعد ذلك، عن نظرية الشرق الأوسط الجديد على إثر ما حدث في حرب لبنان ٢٠٠٦.

ويقول محررو Ahdr ٢٠٠٤: "إن التجارب السابقة في أوروبا الشرقية وأمريكا اللاتينية أشارت إلى أهمية ميلاد حركة تأتي من منظمات المجتمع المدني ومن النقابات ومن مؤسسات العمل الخيري ومن الحركات الدينية. حركةٍ تضع حدًا لاحتكار الدولة للنشاط السياسي؛ حركةٍ من أجل شحذ قدرات المجتمع من أجل مقاومة آلية القمع المستمر من قِبَل الدولة لتوقيف قوى المجتمع" ربما يمكننا تسمية هذا النموذج بالنموذج البولندي الذي يضع الإنسان وحرياته في المقام الأول، ولكن دون تناسي الأصول الدينية والجماعية التي لا تعبر عنها الهيئات

والمؤسسات، وإنما الحركات النابعة من أسفل. مثلما كانت نقابة "السوليدارنوش" في بولندا والنقابات في العالم العربي، الحملات الدعائية لصالح فلسطين والعراق ولبنان في منطقة توصف فيها الأنظمة بأنها استبدادية (على الرغم من الآمال المنشودة في الفترة الأولى التي أعقبت الاستقلال) نستطيع القول بأن السياسة اتخذت منحىً آخر داخل المجتمع، حولت اهتمامها إلى السلوكيات الاجتماعية. وعلى الشارع العربي وقد تبلور الرأي العام العربي وأحدث اختلافًا في المناخ منذ ٢٠٠٢ وحتى الآن فإنه لا تطفو على السطح مجرد أحاسيس الضجر، وإنما أصوات المعارضة أيضًا وأبطال السياسة الجدد.

وعلى أية حال، فإنه من الواضح أن "وصفة" النهضة الاجتماعية هي فقط نموذج ولم يدخل طور التطبيق. لقد اتخذ التاريخ المعاصر في الأمم طرقًا مختلفة جدًا عن بعضها بعضًا يصعب معها التفكير في مسيرة موحدة للجميع. إلا أن النهضة الاجتماعية تعتبر مؤشرًا مهمًا لمسيرة ممكنة لهذه النهضة بالنسبة لمن ينظر، من خلف حاجز إلى العالم العربي وهو يتحرك. وهذه المسيرة الممكنة تتلخص في دعم يقدم ممن يقف على أطراف الأصابع، دون محاولات استعمارية جديدة، لمن يريدون النهضة وإعادة بنائهم وكرامتهم، حتى وإن كانت أهدافهم لا تعكس ما نرغبه نحن منهم. إن العالم العربي أقل علمانية مما نريده نحن، بل إن لديه القليل من العلمانية (بمفهومها الشائع لدينا). ولكن هذا لا يجب أن يكون معناه أن رغبته في الحرية هي أقل قيمة من وجهة نظرنا. قد تكون أوروبا أمًا متسلطة، ارتكبت في حياتها الطويلة الكثير من الأخطاء وتلاحظ الآن أبناءها وجيرانها يكبرون بطريقة لا تستطيع هي فهمها، ولكنها تستطيع مع ذلك النظر إليهم بنفس التعاطف والمشاركة.

خلاصة

لغة البحر المتوسط المفقودة

جارية" حسناء ترقص في دلال لأربعة شيوخ عرب يدخنون الشيشة، بينما يتجاذبون أطراف الحديث وسط وسائد وثيرة وأضواء خافتة، وقد ارتدوا الزي التقليدي: كوفيه وقفطان. الأربعة أثرياء (السعوديون) وحدهم في الغرفة قاتمة الألوان. يظهر النسر الأمريكي على السجادة بجوار مكتب معروف في العالم كله. مكتب الرئيس الأمريكي المكتب البيضاوي في البيت الأبيض. إنها صورة مركبة إلكترونيًا من آخر اختراعات Saatchi & Saatchi، وهي واحدة من أكثر وكالات الإعلان المجددة، لترويج "السيطرة على العالم"، وهي إحدى أحدث صيغ Risi-Ko، التي ترسم الحروب المستقبلية وتفترض سيناريوهات خارجة عن التصور مستوحاة أيضًا من مخاوف الناس. وفي جَوّ يصلح لأن يكون "لحرب العوالم" لماذا لا نتخيل أن يهبط الشرق الأوسط على واشنطن ويحتل شيوخ السعودية البيت الأبيض ويتحكمون فيه؟ إنه أيضًا عن طريق RisiKo أصبح من الممكن التصريح بمخاوفٍ باتت متأصلة في صدور البعض.

من المعروف أن مبدعي فن الإعلان يحولون إلى صور سريعة الاستهلاك تلك الأفكار الدفينة في معدة وقلب الجمهور. عندما يتعلق الأمر أيضًا بالسياسة العليا. وتتلخص أفكار الجماهير، التي لم تعد خفية إلى حد كبير، في المعادلة البسيطة الساذجة: مسلم = إرهابي، وإذا كان هذا المسلم عربيًا، فإن المصطلحين يُدمجان ببعضهما تمامًا، لأن العرب هم الجزء الأقرب والأكثر تقدمًا من العالم الإسلامي الذي كثيرًا ما نجهل عنه حتى خطوط الطول والعرض التي تمتد إلى كبرى أرخبيلات الشرق الأقصى. فإن كانت الفلبين وإندونسيا تبدوان بعيدتين، ولذا أقل خطرًا فالأمر ليس كذلك بالنسبة للمغرب والجزائر ومصر ولبنان.

البوابات التي يأتي منها، بحسب مخيلتنا، المد الهائل للإسلام الذي يَعبُر البحر المتوسط وينجح في اجتياز أبواب أوروبا المسيحية على الرغم مما بها من حواجز. ثم إن العرب يجسدون الإرهاب على طريقة بن لادن الذي يتستر في الإسلام مثلما كانت جماعة "الألوية الحمراء" تتحجج ببعض فصول من الأيديولوچية الشيوعية. باختصار، هناك حالة من الرعب من وصول وشيك للمسلمين كالقول الشهير في إيطاليا "الأتراك يا أماه..!"[1] ونتيجة لصرخة الفزع هذه من غزو لم يتم التحقق منه إلى الآن تقام الأسوار لحماية قلاع الغرب. تخرج من خزانة الموروثات أساطير تافهة مثل أسطورة ڤيينا حامية حمى المسيحية ضد جماعات المسلمين. ومن جانبها، تتأهب هوليود وترسل لدور العرض أفلام بها مغالطات تاريخية عن الحملات الصليبية، ويضع كاتبو سيناريو الأفلام الهابطة الإرهابي المسلم المفترس محل الجاسوس السوڤيتي الشرير.

وإنه عن طريق هذه القائمة القديمة المُملّة من الصور النمطية نخطو خطى متسارعة نحو صدام الحضارات. يبدو أن نظرية صامويل هانتينجتون، الأستاذ في جامعة هارڤارد وتوقعاته تتحققان بسرعة لم يكن المؤلف ذاته ليتوقعها في ١٩٩٢ عندما أصبح مقاله الشهير في" -Foreign Affairs شئون خارجية" المرجعية الأهم للسياسة العالمية الجديدة. ولقد لاقت نظريته رواجًا كبيرًا وأحدثت من الصخب ما دفعه لإعادة عرضها في مؤلَّف ضخم. ولكن ثمَّة شك يساورنا في عصر لم يعد يبدو فيه أن الماكارثية ومطاردة الساحرات سلوكيات نادت بها نفوس البشر. ماذا لو كانت هذه النظرة الكارثية وقراءة الأحداث على طريقة "الحملات الصليبية" هي مجرد لعبة مرايا؟ لعبة الجغرافيا السياسية وكبار الاستراتيچيين؟ لعبة RisiKo (على الورق ثم ربما في العقول) حلم "الشرق الأوسط الكبير" ثم "الشرق الأوسط الجديد" ثم أيضًا "الشرق الأوسط كما نريده نحن". وفي نهاية "لعبة الحرب" هذه، النتيجة واحدة دائمًا: شرق أوسط شرير تخرج منه كل الأرواح الشريرة ويجب أن نحاربه بكل ما أوتينا من قوة.

---

(١) تعود هذه الاستغاثة إلى ١٤٨٠ عندما رأى سكان سالينتو البوارج العثمانية تقترب من السواحل الإيطالية. ولقد تحولت هذه الجملة فيما بعد إلى تعبير عن الخوف من الغزاة خاصة الشرقيين منهم وفي الآونة الأخيرة أصبحت تستخدم ككناية عن الخوف مثل الذي تثيره الأحزاب اليمينية من أفواج المهاجرين.

كما لو أن نظرية هانتينجتون ـ وهذا هو ما أخذه الكثيرون على نظرية المؤرخ الأمريكي ولاسيما إدوارد سعيد في اتهامه اللاذع الذي نشرته "The Nation" في أكتوبر ٢٠٠١ ـ لم تأتِ لتفسير العالم ما بعد الحرب الباردة وإنما كسياسة عالمية، برنامج يجب اتباعه بطاعة عمياء كي نصل إلى السيناريو المناسب للغرب (بالأحرى للولايات المتحدة) في معركتها ضد الإسلام وضد الصين: الحضارتين الكبيرتين العدوتين على حد نظرية هانتينجتون.

وإذا ما نظرنا إلى داخل الشرق الأوسط (ولشمال إفريقيا بالتأكيد) نكتشف أنه لا يمكننا التسليم هكذا بكل شيء. إن التصوير الذي صُنِع في أروقة معاقل السياسة وقنصليات الدول العظمى، كثيرًا ما يكون مجرد صورة زائفة وضعت لتغطية الواقع الحقيقي الكائن في الشارع وفي المساجد والكنائس، وفي المدارس والأسواق. إن العالم العربي في واقع الأمر هو شيءٌ آخر، أبعد بكثير عن الصورة العبوسة المخيفة التي تُقَدَّم لنا منذ سنوات. إنه عالمٌ لا يعبر عنه وجه أسامة بن لادن المعروف ولا ملامح الثأر التي تملأ نوم الانتحاريين البائس. من بين الكثيرين الذين يحدثوننا عن هذه الحقيقة، أولئك العرب غير المرئيين الذين تحدثنا عنهم في هذا الكتاب: الناشطات النسويات اللاتي لا يتبعن شعارات الحركات النسوية لدينا، ولكنهن يناضلن بالحجاب ضد التفرقة والعنف خلف جدران المنازل ويطالبن بتكافؤ الفرص. ويخبرنا بهذا أيضًا الشباب الباحثون عن مستقبل لهم، بدءًا من أولئك الذين يجدون هذا المستقبل (أو جزءًا منه) في المنتديات الافتراضية، والتي أصبحت أيضًا منتديات سياسية، إلى ملايين الشباب الذين ـ بمنتهى البساطة ـ يدرسون ويبحثون عن عمل شريف. يوضحه لنا مفكرون محترمون وسياسيون محنكون يحاولون تحدِّي أنظمة فقدت معناها ومبادئها كي يحققوا ديموقراطية حقة. وتقوله التيارات الفنية الجديدة والتي بدأت في الظهور على السطح ـ بعد فترة كتم أنفاس طويلة ـ في جميع المجالات، بدءًا من الروايات المصورة إلى الخط، ومن السينما إلى الموسيقى، في أنشطة متلاحقة وحيوية وفي بعض الأحيان مدهشة.

ما نراه بالطبع أمامنا هو عالمٌ عربيٌ غاضبٌ وكثيرًا ما يكون ساخطًا، والغرب ـ الذي بات يعتبره وحدة واحدة دون تمييز أية اختلافات فيها ـ يُلصِق به كل

الفظائع ذاتها التي اشتمل عليها تاريخه عبر القرون: مثل العنف الذي ظل طيلة قرون سمة مميزة لتاريخ القارة القديمة، التي صدرته بالفعل للعالم في عهد المستعمرات. والآن تصدره في طائرات ١٣٠C الأمريكية والإنجليزية (أي الأمريكية والأوروبية) في الصحاري العراقية أيضًا كما لو أن عنف صدام حسين لم يكن كافيًا. وبعد العنف، ألصقنا بالعرب الفاشية التي ولدت دون أي شك في رحم أوروبا، والآن نلصقها بالإسلام في آخر نظرية سياسية محافظة جديدة أخرجها لنا المحيطون بجورج بوش بعد فشل المحاولات في تقديم المغامرة في العراق على أنها حملة صليبية جديدة ضد الخارجين على الدين. يرجع الفضل أيضًا لتدخل بابا الفاتيكان، يوحنا بولس الثاني، المريض الواهن الذي لا يعرف الهزيمة وكان حاسمًا - وذكر بوش عشية التدخل العسكري ضد صدام حسين في مارس ٢٠٠٣ - بأن يترك الله ليقوم بدوره وأن يحتفظ لنفسه بحربه المبيتة دون بركة الله العلي.

وهكذا، بعد فشل أطروحة الحملة الصليبية الجديدة، أصبحت الفاشية الإسلامية فجأة آخر اكتشافات معامل قطاعات الإعلام العريضة التي لا تزال تُطبِّق معايير غربية صِرفة على العالم العربي حتى تبرهن على صحة سياستها المتشددة (وغالبًا ما تكون العسكرية فقط) تجاه الشاطئ الآخر من البحر المتوسط. وحتى نكون محقين، فإن هجوم بوش الجديد كان له سابقة في الاتهام - الأكثر تحديدًا - الذي كان قد شنَّه واحد من أكبر الكتاب الجزائريين، وهو رشيد بودچييدرا، على الإسلام السياسي الذي وصفه في ١٩٩٢ بـ "الفاشية الخضراء". والمحافظون الجدد الأمريكان ومقلدوهم الأوروبيون يقومون رغم ذلك بحملتهم ضد "الفاشية الإسلامية" على غرار طلقات المدفعية التمشيطية دون النظر حتى إلى العدو. الضرب لمجرد الضرب دون معرفة حتى اسم العدو في الجانب الآخر من الخندق.

وحتى بالنسبة للمدفعية والقذائف الكثيفة (الافتراضية وغير الافتراضية)، فإن العالم العربي اليوم هو بالتأكيد عالمٌ مقهور في غضبه وأحقاده. إنه عالمٌ عربي لم يعد قادرًا على التهاون أو التسامح، تزداد مناهضته لإسرائيل (وبدأت تظهر فيه فقط الآن معاداة السامية التي هي جريرة أوروبية بلا شك، يلقيها بكل

سرور سكان الشاطئ الشمالي من البحر المتوسط على العالم العربي). إنه أيضًا عالمٌ عربي تزداد فيه مناهضة أمريكا وفي الآونة الأخيرة مناهضة الغرب، لأن أوروبا بعد الحادي عشر من سبتمبر أخذت تتخلى عن أوروبيتها. وفي الشهور الأخيرة فقط ومع الصراع اللبناني الإسرائيلي، استعادت شخصيتها المستقلة التي كانت قد ضاعت في غياهب سياسة جبانة، خارجية وخارجة على القارة القديمة.

بعد الحادي عشر من سبتمبر، أصبحت اللعبة الكبرى للسياسة العالمية، يتم تخطيطها أكثر من ذي قبل على الطاولة دون ارتباط كبير بالواقع. بل إن سوء معرفة الولايات المتحدة بهذا الواقع جعلها ـ وهي في أوج سلطتها ـ أكثر ضعفًا. وضَعُف معها الغرب كله. وهنا تقتضي اللياقة أن يعيد الـ RisiKo الكبير جنودَه ودباباته إلى الخزانات ويُفَعِّل من جديد نظامه القديم الذي كان يقوم على المعرفة العميقة والحقيقية بكل ما يجري خارج الديار. ولكن ذلك لم يحدث بعد. خاصةً أنه لازالت لا توجد علاقة ندية مع العرب، تلك التي لا يمكن حل أزمة الثقة من دونها. لا يجب أن نُصَدِّر ديموقراطيتنا لا بالدبابات ولا بالنظرات المعسولة التي تصدر ممن يريد أن يفرض قواعده بأدوات مختلفة أقل عنفًا، ولكن ليس لهذا السبب أقل إثارة للجدل. يجب علينا (ببساطةٍ) قراءة مفهوم الديموقراطية الآخذ في الظهور لدى النخبة العربية. يجب علينا أن نتقبل أن يكون نموذج الديموقراطية لديهم (والذي يعتبره مؤيدو الإسلام السياسي، المسمى "الإسلام الحداثي"، قابلا للأسلمة) نموذجًا مختلفًا وأن تكون له قيمته الخاصة. ومن جهةٍ أخرى، فإن كثيرًا من العرب المسلمين يرون أن الديموقراطية لدينا لا تحترم قيمَهم.

باختصار، لا يكفي الابتعاد عن سياسة الهجوم الوقائي وعن تصدير الديموقراطية المحمولة على المدافع الذي بدأته إدارة بوش الابن. لابد أيضًا من تفادي أن يغشى أعيننا الخيلاء بتفوق نظامنا السياسي الذي نريد أن نلقنه للعرب بطرق أخرى. كان المثال الأكثر شيوعًا على هذا الموقف ما عُرِف بـ "بيان أوستين" الذي أعدته قطاعات من اليسار الليبيرالي الأنجلوساكسوني وقامت بنشره أيضًا في إيطاليا (من قبل بعض العناصر في اليمين واليسار الوسطيين) بنتائج متباينة.

ما عسانا أن نفعل الآن؟ إن رؤيتي كمؤرخة أعيرت للصحافة وكامرأة من جيل ما بعد ١٩٦٨ تشير بأن يكتب بيانٌ آخر. ربما يكون بيانًا خياليًا كبعض مواقف أدريانو سوفري. يجب أن يكتب هذا البيان العرب والغربيون معًا. يسألون بعضهم بعضًا أولا أين يجب أن تصل حدود التعايش وأين يجب أن يترك التناصح المجال للجيرة الطيبة داخل اتحاد ملاك ضخم وصعب. واقع الأمر أن بيانًا من هذا النوع لابد وأن ينجح من خلال عمل عظيم، نعتقد للوهلة الأولى أنه غير ممكن: يجب إبعاد العالم العربي عن بعض موروثاتنا الأيديولوچية، فتح أبواب الجناح الخاص من السجن الذي قبع فيه العرب مدة طويلة (بفعلنا؟ بفعل التاريخ الحديث؟) والنظر إلى المائتي مليون عربي كما لو كانوا هنودًا أو صينيين أو أرچنتينيين أو بورونديين أو من سكان الإسكيمو؛ دون النظر إليهم بعدسات خاصة، دون الكيل بمكيالين، دون استخدام صبغات فحص أو أي من تلك الوسائل التي - على الرغم من أنها تساعد في القراءة والتفسير - تغير معنى بعض الأفعال والأفكار.

في واقع الأمر، يجب أن يكون بيانًا من شأنه أن يطيح بالنظريات على شاكلة نظرية هانتينجتون. يجب أن يكون وثيقة تبحر ضد تيار "صراع الحضارات" حقيقية كان أم زعمًا. أن يكون دستورًا لحقوق وواجبات ورثة إدوارد سعيد. أن يكون منصة القاعدة العريضة لأرض مشتركة common ground لأولئك الذين ليسوا مع بوش ولن يكونوا أبدًا مع بن لادن؛ منصة لأولئك الذين، حتى الآن ومع الصعوبات المتزايدة، لازالوا يتحدثون لغة "البحر المتوسط" المفقودة، تلك اللغة المشتركة التي تحدثها الناس طيلة قرون من الزمان وطالها الآن الصدأ وأصبحت لغة ميتة كالسومارية. بيان من هذا النوع، يجب أن تتناول أول نقطة فيه ما يتعين على جزء كبير من الغرب مثل أوروبا أن تفعله حتى تتفادى أن تجف خزانة حيويتها الثقافية بحثًا عن هدف وحيد وهو كيف يمكنها البقاء في منزلها القديم المغلق، بين اللوحات والتحف القديمة. وفي النقطة الثانية، يجب أن يتناول ما الذي لا يتعين على الغرب فعله إذا ما أراد أن يساعد العرب على القيام بنهضتهم دون وصاية أو عملاء.

يرى الكثيرون أن ما يكمن تحت رماد عدم الفهم يمكنه أن يتحول إلى نهضة. "نهضة تفرض نفسها" و"لها ثقلها التاريخي"، على حد قول أحمد زويل، العربي

الوحيد الذي فاز بجائزة نوبل للعلوم. عاش زويل بعيدًا عن الأضواء طيلة كل هذه السنوات مستمعًا اللهم إلا بشهرة من حصل ـ مثل نجيب محفوظ ـ على جائزة يصبو إليها الجميع، الذين يعتقدون من جانب آخر أنه لا يمكن لعلماء وفناني المنطقة الحصول عليها. ولكن على الجميع الآن أن ينزلوا إلى الميدان وقد فعل هذا بالفعل زويل في نهاية أغسطس الماضي على صفحات جريدة غربية ولكنها محبوبة جدًا، وهي "الإنديبيندنت" البريطانية، ليقول إن العرب بحاجة إلى "جهاد من أجل الحداثة والتنوير"؛ جهاد بمعناه الصحيح أي جهدًا، وليس بالترجمة الخاطئة مثل "حرب"، أو تلك الأسوأ منها أي "الحرب المقدسة" كما هو شائع في صحفنا وللأسف في بعض الدوائر الكاثوليكية أيضًا. إنه المجهود الذي يجب بذله بوسائل عدة وفي بعض الأحيان بالسلاح أيضًا. سلاح العقل بالطبع الذي كان اختياره لجائزة نوبل للكيمياء، ذلك الذي يطالب بتنمية "التفكير النقدي" في ثقافة الشرق الأوسط وشمال إفريقيا.

كيف يمكن إذن مساعدة النهضة العربية؟ لننظر إلى الموضوع من الجانب الآخر ونحاول أن نفهم ليس ماذا يجب أن يفعل العرب، ولكن ماذا يجب أن تكون قواعد سلوكنا نحن: قبل كل شيء وقبل أي تصرف حيال الآخر، العربي الذي أمامنا، يجب على الغرب استعادة مصداقيته: تلك الميزة التي فقدها في مواقف كثيرة ولأسباب كثيرة، على مستويات كثيرة ولأخطاء متعددة. بداية يرى العرب أن الغرب ضحى بمصداقيته على مذبح الصراع الفلسطيني ـ الإسرائيلي. سواء كان ذلك على يد أمريكا وأوروبا التي عن حق أو عن خطأ ـ على الأقل حتى الحرب على لبنان في صيف ٢٠٠٦ ـ ظلت تخضع لرغبات إسرائيل وأمريكا. باختصار كانت أوروبا في مواقف كثيرة ممثلاً قام تجاه العرب بدور مزدوج تلوم عليه واشنطن. ولكن الأمر لا يتعلق فقط بمصداقية الحكومات والتصويت الأوروبي بالأمم المتحدة. هناك أيضًا ما يجب أن يحفظ ماء الوجه والكرامة عندما يتعلق الأمر بالسياسات الداخلية والسلوكيات الاجتماعية وهنا تغيب مصداقية الغرب أمام العرب؛ عندما ينظرون إلى سياسات الهجرة في أوروبا وإلى التفرقة تجاه من يأتي من الشاطئ الجنوبي للبحر المتوسط وإلى ازدراء ثقافات وديانات الآخر (لنر مثلا واقعة الصور الكاريكاتورية الدانماركية وقميص روبرتو كالديرولي، الوزير آنذاك). فقط عندما تتخلص أوروبا من هذه القشور التي ترجع إلى

موروثات محلية بالية وسلوكيات غالبًا ما اعتبرها المشاهدون العرب وليدة تأثير خارجي، تستطيع أوروبا استعادة دور ذي مصداقية، تجاه من يعيش على الشاطئ الجنوبي من البحر المتوسط، من المشرق وحتى الجنوب، مثلما حدث لدى اهتمام الاتحاد الأوروبي المدهش بالنزول بالساحة بلبنان في أغسطس ٢٠٠٦ وبتصور سياسة جديدة تجاه إسرائيل، لأنه كما أخبرني يومًا ما مفكر إسرائيلي رفيع المستوى: "بإمكان الولايات المتحدة مساعدة إسرائيل لشن الحروب، ولكنها تصبح عديمة الفائدة تمامًا عند إرساء السلام مع جيراننا.".

لقد تدخلت أوروبا في الشأن اللبناني بعد حدث اعتبره العرب بالتأكيد أكثر تأثيرًا من ناحية ما مما مثلته الحرب الأنجلوأميريكية على العراق في ٢٠٠٣ .إن التدخل الإسرائيلي العسكري في لبنان والقتلى والدمار ومقاومة حزب الله التي أتت بنتائج مذهلة غيرت ومازالت تغير بطريقة سريعة المشهد في المنطقة ولاسيما قواعد اللعبة؛ لأنه ـ كما حدث كثيرًا طيلة أكثر من نصف قرن من تاريخ الشرق الأوسط وشمال إفريقيا ـ تثير الحرب في طياتها أشياء أخرى مثل الأزمات السياسية الداخلية وتغيير الأنظمة. بعد حرب لبنان في ٢٠٠٦ وتحول حزب الله إلى واحد من أطراف اللعبة السياسية التي لا غنى عنها؛ خضعت كذلك باقي الأطراف للتعديلات وتوقفت فجأة خطة إدارة بوش بشأن الشرق الأوسط: انتهى عهد الجانب الواحد وبدأت عجلة التاريخ تسير على قضبان أخرى واستعادت الأمم المتحدة التي ظلت لسنوات في عداد العربة القديمة المتهالكة في تعددية جوانبها.

وبجانب التغيرات على المستوى العالمي، تغيرت أيضًا الآليات الداخلية. فعلى الرغم من نجاحاتها المدهشة في الانتخابات ـ أخذت الحركات الإسلامية تتعرض لضغوط دولية كبيرة جدًا وأخذ مستوى صورتها ينحدر بشكل متواصل في الغرب، ومع ذلك تجددت حيويتها ونشطت مع نجاح حسن نصر الله. وكان معنى هذا النجاح بالنسبة لأنظمة طالها الضعف مثل النظام المصري والأردني والسعودي ضرورة توخي الحذر. والرأي العام، المقموع داخل قدر كاتم يغيب فيه الحرية وتملؤه انتهاكات مستمرة للحقوق المدنية والسياسية، شعر بالغطاء يرتفع عنه بالقدر اليسير الذي يسمح بدفع المعارضة لتخطي الحدود التي لم تكن قد

تجاوزتها من قبل في علاقتها بالرجال الأقوياء في بلادها، إذ وصلت التظاهرات المؤيدة لحزب الله وضد ضعف مواقف الدول العربية المسماة بالمعتدلة، مستويات من النقد مبشرة بتغيرات كبيرة في فترة إلى حدٍ ما وجيزة.

ومن جانبٍ آخر، فإن الصحوة الإعلامية الجديدة، التي استفاد منها حزب الله، أحدثت تغيرًا في علاقة السنة بالشيعة بعد أن كانت العمليات الإرهابية في العراق قد أوصلتها إلى أدنى مستويات التاريخ الحديث. لم يعد الإسلام السياسي يعير اهتمامًا كبيرًا للاختلافات الطائفية، ولكنه يتوحّد من أجل مقاومة العدو الخارجي ولطرح حركاته كبديل سياسي للأزمة التي يعيشها جزء كبير من الأنظمة العربية منذ عشرات السنين. هكذا يجب أن يفسر التأييد الذي ناله "حزب الله"[1] اللبناني من ممثلي حركات سُنِّية مثل الإخوان المسلمين في مصر. مرة أخرى يستطيع النموذج الإسلامي الشيعي على يد "حزب الله" إقناع السُنَّة، كما حدث حال ثورة الخامنئي التي تعتبر في المنطقة الثورة الوحيدة الناجحة في الفترة ما بعد الحركات القومية العربية. هذا التحالف غير المعتاد، سواء أكان تكتيكيًا أم على مدى أطول، هو جزءٌ آخر من الصورة التي تتغير بسرعة لا يمكن توقعها، وأدواتنا الحالية التي تنظر إلى العالم العربي على أنه لونان أصبحت غير كافية لقراءتها وفهمها فهمًا جيدًا.

أيًا كانت وجهة النظر، فإننا إذا ما نظرنا إلى الشواطئ جنوب وشرق عالمنا الأول، وركزنا على الأولاد الذين يلعبون الكرة على شاطئ الأطلنطي في كازابلانكا وإلى الاستغلال الوحشي للبشر بالقرب من الإسكندرية أو على البرلمانات في دواخل الشواطئ وعلى القنابل التي سقطت على بيروت أو على المهاجرين المرتحلين من ليبيا، لعلمنا أن العالم العربي ليس سواءً في مسألة الإرهاب. بل على العكس من ذلك، فالإرهاب وصِدام الحضارات يشبهان شمع تلميع دهنوا به الزجاج ومن خلال النافذة التي ننظر منها إلى العالم العربي، وزجاجها بهذه الحال لا نرى إلا ظلالا، والظلال - في أغلب الأحيان - تجسيد للأوهام.

---

(١) استخدمت المؤلفة هنا ترجمة اسم الحزب بالإيطالية واضعة إياه بين قوسي تنصيص كي تؤكد على معنى عبارة حزب الله. (المترجم).

شكر

"يجب أن تكتبي كتابًا كي توضّحي فيه حقيقتنا." فاجأني بهذا الطلب صديقي محمد عمر عام ٢٠٠٢، ثم مع مرور السنين أدركت ضرورة وعمق هذا الطلب الذي كان في حقيقة الأمر صرخة استغاثة. ولذا فإنني إن كنت ألّفت هذا الكتاب فيجب أن أتوجه بالشكر إلى محمد، طبيب الأطفال الماهر المصري حتى النخاع. وإلى جانب محمد يجب أن أشكر كل العرب غير المرئيين الذين ساعدوني على إزاحة حاجز الأفكار المسبقة: علمانيون وإسلاميون ورجال ونساء وأطفال وحاملو مؤهلات عليا وأميون وفنانون... أذكر منهم خالد، وعاطف، والحاج علي، وعلاء، ونصرة، وساهرة، وأحمد، وشريفة وأخيرًا ماهر الذي رحل عن عالمنا. إنني مدينة لبعضهم بالشكر والتقدير عن بُعد، بينما تربطني بالبعض الآخر صداقة وثيقة نمت خلال سنوات إقامتي في العالم العربي على الاحترام المتبادل. أتقدم بالشكر أيضًا لأبطال هذا الكتاب لإجابتهم على أسئلتي وشُكوكي بكل ترحاب، وآمل في أن يفهمهم الآخر حتى في اختلافهم عنه.

ثم تأتي قائمة الغربيين الطويلة الذين قابلتهم مع أسرتي والذين، مثلي أنا وأسرتي، كانوا ضيوفًا مكرمين وسط العرب. لأن العرب يستقبلون ويعاملون باحترام من يختار أن يعيش بينهم دون كِبر وادعاءات. لقد كانت رينسا تيرّي بروحها النقدية حيث عانت هي أيضًا من الظلم، أول من زودني بمفاتيح قراءة وتقبل ما كنت أراه. بيرا سالينّاس، امرأة تبحر بين عالمين، وقد أدت بسعادة دورها كوسيط ثقافي بين العالمين. وفيما يتعلق بكتابة وإخراج الكتاب، أدين بالشكر لأصدقائي الأعزاء الذين لم يبخلوا علي بوقتهم ولا بخبراتهم من قراءة النسخة الأولى ومناقشة محتواها؛ وهم ماريا كاريدي، وماريا جراتسيا

ماتسيتيلّي، وأريك ساليرنو، ودون ماتّيو تزوبّي ورفاقي الأعزاء في تجربةLettera 22 الرائعة التي تجمعنا، ومنهم إيمانويلى چوردانا وأتّيليو سكاربيلّيني أعتز كثيرًا باقتراحاتهم القيمة لي، بينما أتحمل وحدي وزر ما أكون قد وقعت فيه من أخطاء. وفي النهاية، شكرٌ خاص لابني، فرانشيسكو ماتّيو، الإيطالي الصغير الذي يجيد أكثر من لغة، ومعلمي الصارم للغة العربية، وكذلك عن طريق نظراته البريئة تعلمت كيف أعيش مع العرب.

المؤلفة في سطور

باولا كاريدي من مواليد (روما ١٩٦١) صحافية ومؤرخة. حاصلة على الدكتوراه فى تاريخ العلاقات الدولية. تعيش فى العالم العربى منذ ٢٠٠١، عاشت فى القاهرة شهور قليلة قبل أحداث ١١ سبتمبر ثم انتقلت إلى القدس، حيث استمرت فى عملها كمراسلة لـ Lettera 22، وكالة الأنباء المتخصصة فى السياسة الخارجية وهى من مؤسسيها. تكتب أيضًا فى L'Espresso، Il Sole 24 Ore، Il Ri-formista، Famiglia Cristiana و Diario della Settimana.

نبذة عن المترجمة

مروة علي فوزي، مدرس مساعد الأدب الإيطالي بكلية الألسن ـ جامعة عين شمس. حصلت على الماچستير في الشعر الإيطالي المعاصر بتقدير ممتاز في إبريل ٢٠٠٩. قامت بالترجمة في العديد من التظاهرات الثقافية الإيطالية في مصر خلال عامي ٢٠٠٣ ـ ٢٠٠٤ في إطار أحداث عام "مصر ـ إيطاليا" برعاية المركز الثقافي الإيطالي بالتعاون مع وزارة الثقافة المصرية. وشاركت من خلال هذه الأحداث أيضًا في مراجعة وتنفيذ ترجمة مسرحية "أرليكينو خادم سيدين" للمُخرج چورچ ستريلر، وذلك في إطار الرؤية الإخراجية للعرض الذي قدِّم على مسرح الجمهورية بالقاهرة. هذا ويُعَد هذا الكتاب من أحدث ترجماتها "المرئية" في مجال مد جسور التفاهم بين الشرق والغرب.

المراجع فى سطور

ـ أ. د. سوزان بديع إسكندر. أستاذ الأدب الإيطالي، المتفرغ، بكلية الألسن ـ جامعة عين شمس.

ـ إلى جانب الدراسات والأبحاث المكتوبة والمنشورة بالإيطالية، نشرت للمراجعة سلسلة مقالات عن الأدب الإيطالي في مجلتي الزهور والهلال من ديسمبر ٧٤ إلى إبريل ٧٦ وبمجلة القاهرة يناير ٨٧.

ترجمات:

- مطفأة السجائر، للكاتب البرتو مورافيا، نشريات المعهد الثقافي الإيطالي، القاهرة ٨٨.
- مريخي في روما، للكاتب إينيو فلايانو، نشريات المعهد الثقافي الإيطالي، القاهرة ٩٩.
- زوجان يوم الأحد، للكاتب ميكيلي بريسكو، نشريات المعهد الثقافي الإيطالي، القاهرة ٩٩.
- مختارات من أشعار جوفاني باسكولي، نشريات المعهد الثقافي الإيطالي، القاهرة ٢٠٠٠.
- المشاركة في ترجمة تاريخ مسلمي صقلية، للمستشرق الإيطالي ميكيلي أماري، دار نشر لمونييه، فلورنسا ٢٠٠٢.

- ولكن ليس على محمل الجد، مسرحية للكاتب لويجي بيراندللو، المجلس الأعلى للثقافة، ٢٠٠٧.
- مختارات من أشعار ج. باسكولي وتش. بافيزي وأيورتا، مجلة إبداع، شتاء ٢٠٠٧.

المشاركة في ترجمة دليل الأخلاقيات المتعلقة بالحياة، تأليف المطران إيليو سجرتشا و أ. د. فيكتور تامبون، دار الكمال للطباعة، الزيتون ٢٠٠٨.

مراجعة ترجمات:

- ترجمة تاريخ مسلمي صقلية، (مشاركة) ٢٠٠٢.
- دليل الممثل، تأليف داريو فو، ترجمة هند مجدي، أكاديمية الفنون، مهرجان القاهرة الدولي للمسرح التجريبي ١٦، ٢٠٠٤.
- وعي دزينو للكاتب إيتالو زفيفو، ترجمة د. مروة طنطاوي. تحت الطبع، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة.
- أطراف حديث في صقلية للكاتب إيليو فيتوريني، ترجمة أ. د. حسين محمود، تحت الطبع، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة.